شيلوشي أونيميلوكوي أونوبيا

ترجمة: تهاني فجر وعبير شاليش

مكتبة

ابن البيت

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

ابن البيت

مكتبة
t.me/soramnqraa

ابن البيت

تأليف: شيلوشي أونيميلوكوي أونوبيا
ترجمة: تهاني الفجر وعبير شاليش

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-75-832-7

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2024

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971 + فاكس: 5566691 6 971 +
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
kalimatgroup.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2024
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر
تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب
وفقًا لنظام التصنيف العمري الصادر عن مجلس الإمارات للإعلام
المرجع: MC-10-01-5646281
التصنيف العمري: +21

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Son of The House, Copyright © 2019, Cheluchi Onyemelukwe.
Published in 2019 by Penguin Random House South Africa (Pty) Ltd

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP

شيلوشي أونيميلوكوي أونوبيا

مكتبة
t.me/soramnqraa

ابن البيت

رواية

ترجمة تهاني فجر
وعبير شاليش

إلى والديّ

أوبيديما إيسيا أوكولي أونيميلوكوي

و

ريبيكا تشيغونو أونيميلوكوي

مع كثيرٍ من الحبّ والامتنان

استهلال

2011

مكتبة
t.me/soramnqraa

"ينبغي أن نفعل شيئًا لتمضية الوقت". هذا ما جال بخلدي، ونحن امرأتان مكبّلتا القدمين واليدين مسجونتان في غرفةٍ مقفلةٍ مجهولة المكان!

عرفتُ أن لا مفرّ أمامنا؛ فأقدامنا وأيدينا كانت مقيدةً بعُقدٍ لم أتصور أنه يمكنني التّحرر منها ولو أمضيتُ قرنًا أحاول. وحتى لو نجحنا في التّحرر من العُقد، فهذه الحجرة الضّيقة لا مخرج منها سوى بابٍ واحدٍ موصد بقفلٍ كنت أسمع صوت طقطقة المفتاح فيه كلّما دخلوا وخرجوا، والنافذة الوحيدة ضيّقة تكاد لا تتّسع حتى لفخذي، فما بالك بكامل جسدي. أما أن أجريَ لأنجو بحياتي - بغضِّ النّظر عن ثقل وزني - فهناك مشكلة ركبتيّ الضّعيفتين.

هكذا أيقنتُ أن لا مجال لفرارٍ يشبه ما نشاهده في الأفلام السينمائيّة.

أمّا أن تقتحم الشرطة المكان مضيئةً أملنا بطريقٍ نحو الحريّة بنيران مسدّساتها فذلك خيالٌ سينمائيٌّ لا نجرؤ أن نمنّي أنفسنا بحدوثه. يقال إنّ رجال الشرطة أنفسهم غالبًا ما يحضّون عائلات المخطوفين على دفع الفدية لئلّا يلحق الأذى بأحبائهم؛ فهم لا يملكون الموارد ولا النّية الجادّة في ملاحقة الخاطفين. حتى إن بعض الناس يعتقدون أنّ رجال الشرطة أنفسهم متواطئون في عمليات الخطف. وهكذا لم يكن لدينا أمل، شأننا في ذلك شأن كثرٍ من ضحايا الخطف في هذه البلاد، سوى في أن يأتي أقرباؤنا بالمال.

تملّكني الخوف الشّديد في البداية، إلّا أنني قاومتهم في السّيارة وهم يحاولون تعصيب عينيّ، وتقييد يديّ اللّتين كانتا تكيلان اللّكمات لهم.

انتابني رهاب الأماكن الضيّقة؛ فجسدي الممتلئ محشورٌ في مكان لا يتّسع حتى لجسدٍ يافعٍ في المرحلة الإعداديّة. لو سمعت الآذان ما عانيناه لسقطَت، ولو رأت العيون ما حلّ بنا لبكَت دمًا، فمع بندقيّةٍ تحفر في ظهري وسيارةٍ تشقّ طريقها مسرعةً إلى المجهول، صرتُ متيقّنةً أنني سأموت. وابني أفام، وزفافه القريب، ماذا سيحل به؟

بعدئذٍ تجاوزت خوفي إلى حالةٍ أكثر هدوءًا وعقلانيّة. لربّما خرجنا من هنا أحياء كبعض من سمعنا عنهم، فعلى الأقل قد أزالوا العصابات عن أعيننا. أخبرتني صديقتي أوبياجيلي مرّةً عن رجلٍ تركوا العصابة على عينيه لأحد عشر يومًا. تصوّروا، أحد عشر يومًا من الظّلام والعمى.

ما إن أزالوا العصابات عن أعيننا وفكّوا قيود أيدينا حتى شعرت أن الوضع صار أكثر قابليّةً للتّحمل. كانوا يطعموننا الخبز الأبيض في الصّباح، والخبز الأبيض بعد الظّهر، والخبز الأبيض في المساء. قبلها كنتُ لا أتناول الخبز الأبيض وفقًا لتعليمات الطّبيب الذي حذّرني من احتمال إصابتي بداء السّكري - إذ إنّ أبي قد توفّي بسبب هذا الدّاء - ويتوجّب عليّ مراقبة سكّر الدم. كنت أعلم أن جيناتي تتآمرُ ضدّي، وعليّ أن أغالبها قبل أن تغلبني. لذا اشتكيتُ هذا الصباح عندما أحضروا المزيد من الخبز.

سألوني ساخرين إن كنتُ أحسب أنّي نزيلةٌ في فندق.

قال الفتى ذو الصّوت الناعم والمخادع: "أمّاه، إن لم يأتِ أقرباؤك بالمال قريبًا، فقد لا ترين الطّعام مجدّدًا". علا صوته غضَبًا: "هل تظنّين أنّ الخبز مجانيّ؟" وكانت تلك المرّة الأولى التي يُظهر فيها أيّ انفعال.

"أنا آسفة" قلتها كطفلٍ مدلّلٍ قد عوقب للتّو. عرفت حينها أنه يستحسن عدم ذكر القائمة الطويلة التي وضعتها في رأسي مثل: أن الغرفة حارّةٌ ولزجةٌ،

خاصة أننا ذوي الوزن الزائد غالبًا ما نتعرّق كثيرًا، ودون استحمام ستصبح رائحتي ورائحة الغرفة كريهة. لو يسمحون لنا على الأقلّ أن نستحمّ، أو أن ننظّف أسناننا. ألا يمكنهم فكّ قيود أرجلنا؟ فالجلوس في وضعيّةٍ واحدةٍ والاستلقاء بساقين مقيّدتَين ليس أمرًا يسيرًا على امرأتَين، خاصّة لمن بلغت من العمر بداية النّصف الأخير منه. كان مزعجًا ومؤلمًا جدًّا أن أحاول حصر البول لا سيّما وأنني بمثل هذا السنّ وأحشائي قد انزاحت عن الموضِع الذي وضعها فيه الخالق. وأيضًا كان من المُهين والمحرج جدًّا مراقبتنا عن كثب كلّما أرادت إحدانا قضاء حاجتها. كانوا صغارًا بما يكفي ليكونوا أحفادي لو أنّي أنجبتُ في سنٍّ صغيرةٍ كأترابي. وفوق ذلك كنت أسمع مواء قطّةٍ في الليل فيقشعرّ بدني، ألا يمكنهم أن يفعلوا شيئًا ما حيال ذلك؟ وأخيرًا، هلا توقّفتم رجاءً عن مناداتي أمّاه؟ لست أمكم؛ فلو كانت أمّكم مكاني لما عاملتموها بهذه الطريقة، أو هذا أقلّ الرّجاء.

قلتُ لهم: "أعاني من ارتفاع ضغط الدّم. أحتاج دوائي. ألا يمكنكم فعل أيّ شيءٍ حيال هذا؟"

سألني: "شيءٌ مثل ماذا؟" لقد كان سؤالًا بلاغيًا، لكن صوته ووجهه كانا يوحيان أنّي قد تخطّيت حدودًا خفيّة. "ما يجب عليك الانشغال به هو الصّلاة لأجل أن يأتِيَ ذووكِ بمالنا." قال ذلك وهو يدير ظهره خارجًا من الغرفة، تاركًا أتباعه خلفه ليقفلوا الباب علينا ويلحقوا به.

حينها لم يبق لدينا سوى الأفواه الحرّة للكلام والوقت الطّويل لنمضيه، فنظرت إلى نوابولو قائلةً أحثّها على الكلام: "حدثيني عن نفسك، فها نحن ذا ولدينا الوقت بطوله".

بدَت متفاجئة، إذ إنّها لم تتوقّع سماع هذا الكلام في مكان كهذا. لكن

ماذا عسانا نفعل غير ذلك؟ بعد أن أمضينا اليوم الأول بطوله نندبُ حظّنا، والقرارات الخطأ التي أودت بنا إلى هنا، لم يتبقّ ما يمكن قوله حول اختطافنا. "فنحن عالقتان هنا إلى حينٍ لا يعلمه إلا الرّب، وكما تقول صديقتي أوبياجيلي، لا شيء يزيحُ عبء الوقت مثل حكايةٍ جميلة."

بدت نوابولو متردّدة. كان وشاحها الأنيق ممزقًا عند طرفه وبحاجةٍ لخياطة، وهناك كدمةٌ خفيفةٌ على ذراعها. لكنها ما زالت جميلة، وعلى محياها تبدو الجديّة.

قلت لها: "لا بدّ أن إيفيتشي قلقٌ الآن، لكنّي أعلم أنّه سيفعلُ ما في وسعه."

"نعم. لكنّنا لا نملك المال الوفير. آملُ ألّا يطلبوا الكثير من المال."

رجوت ذلك أيضًا. وفكّرت فيما قاله أفام عن نيجيريا، البلد الذي من أجله أدار ظهره لكندا حيث تصوّرت أنه سيستقر ويؤسّس حياته هناك بعد التّخرج. قال إن نيجيريا تنمو وتزدهر. هناك الكثير من الفُرص: القطاعات الناشئة، الطّبقة الوسطى في نمو، ليّس عاملو النفط والغاز وحدهم من يعيشون في بحبوحة، انظري إلى قطاع الاتصالات، أو قطاع المصارف، أو الموسيقا، الموسيقيون النيجيريون يتعاونون مع موسيقيين من الغرب ويجنون من المال ما يكفيهم لشراء طيّارات خاصة. الإنترنت؛ متاحٌ في كلّ مكان حتى في القرى. الشّعب يتقدم، بوجود الكهرباء أو بعدمه، بوجود قيادةٍ صالحةٍ أو بعدمه. الناس هنا يجنون المال، ويصنعون التّغيير.

لكن هناك اختطافٌ أيضًا. وددتُ لو أقول له ذلك الآن. فهو وسيلةٌ سهلةٌ للحصول على المال، رغم أن بعض المخطوفين قد لقوا حتفهم، ولكن في أغلب الحالات كان يُطلقُ سراحهم بعد ابتزاز عائلاتهم للحصول على مبالغ طائلة. لقد كان الاختطاف بالنسبة لنا قصّةً من قصص التّراث الشّعبي حيث يُختطف الناس ويباعون عبيدًا. يرى كثيرون أن البطالة هي الدّافع الأساسي

لتجارة الخطف، فلو ازدادت فرص العمل للشباب، لماتت ظاهرة الاختطاف موتًا طبيعيًّا. غير أن آخرين لا يجدون محرّضًا إلّا الجشع. لم أكن يومًا في حياتي جائعةً إلى الحد الذي يجعلني أشهر مسدسًا في وجه إنسان، أو أهدّد بسلب حياة أحدهم لأنّ حياتي لا تُحتمل. تساءلت أيّ شعورٍ هذا الذي ينتاب أولئك البشر

ليس ثمّة وسيلةٌ لمعرفة ما إذا كان أهلنا سيحضرون المال أم لا. فكرت في أهلنا وأنا أسمع صوت الفتى في رأسي. من هم أهلي؟ أهلي هم أوبياجيلي وأفام. شقيقاتي كنّ سيعتصرن أيديهن ولكنهنّ لن يفعلن شيئًا. أخي الأصغر كان سيهزّ كتفيه ويمضي في أيّ تجارةٍ تافهةٍ تؤمّن له مصاريف عادته في تعاطي الماريجوانا. أوبياجيلي ستشعر بالرّعب، لكنها ستتمالكُ نفسها وتدفع أفام لإحضار المال. وأفام... أفام عاقل. سيتدبران الأمر معًا. حاولت أن أتخيّل خوفه عليّ، وتصوّرت لو أنّ أفام اختطف. تمنّيت لو أنني استطعت أن أقول لهما إنهم يعاملوننا معاملةً حسنة، نوعًا ما...

قلتُ لنوابولو الآن: "أنا متأكّدةٌ أنهم يبذلون ما في وسعهم."

قالت مجدّدًا: "أعتذر لأنني سلكتُ ذلك الطريق."

كنتُ على وشك الشعور بالذّنب لأنّني طلبتُ منها أن تقلّني. كان من الممكن أن أؤجّل زيارتي لأوبياجيلي.

قالت نوابولو: "كان يجدر بي أن أسلك تقاطع أوتيغبا." ، ثم أردفت: "لم يكن ذلك ليحدث أبدًا في تلك المنطقة المزدحمة."

ظلّت تقول هذا وتُعيده مرارًا، ولكن ها نحن ذا، ما الفائدة من اجترار ما حدث؟

قلتُ لها:

"لم يكن هذا خطأَكِ. هم أرادوا خطفي، ولكن سوء حظّك جعلك

تقعين معي فيما نحن فيه."

"كان يجب أن ينشروا دورياتٍ للشّرطة على طول ذلك الطريق الموحش، فقد يتعرّض الناس للنّهب عليه."

"أو للخطف." قلتُ مبتسمة.

لم تبادلني الابتسامة. هزّت رأسها وحدّقت في قدميها.

"لقد جرى ما جرى". قلتُ لها هذه الحقيقة البَدَهيّة التي تعلمناها في مدرسة البنات الثانوية، آبا. ثم لم أستطع أن أكبح نفسي فأضفت: "لا فائدة من البكاء على اللّبن المسكوب."

حينها ابتسمت، ابتسامة متردّدة.

"إذن كنت على وشك أن تخبريني كيف بدأت العمل في تصميم الأزياء، صحيح؟ أتعلمين أنّك ماهرةٌ حقًّا في ذلك؟"

"إنّها قصةٌ طويلةٌ يا سيدتي."

"هل أنتِ في عجلة من أمرك؟" ونظرتُ حولي بطريقةٍ مسرحيّة.

ضحِكت.

"لكنّني متيقّنة من أن حكايتك أشدّ إثارةً للاهتمام. لقد عشتِ حياةً مشوّقة." بدَت مهتمّةً بالفعل.

"حسنٌ. فلنعقد صفقة. تروين لي قصّتك فأروي لك قصّتي."

جال في ذهني حينها أنّها امرأةٌ عمليّةٌ بطبعِها.

"لا بأس." وافقتُها الرأي.

بدأتُ قصتي. وكانت انفعالاتها تظهر على محياها، فمرّةً حيرة، ومرّةً استحسانًا، وأحيانًا الاستهجان.

لكن في النهاية كانت حكاية نوابولو هي الشّعلة التي أضرمَت النّار.

الجزء الأول

نوابلو

الفصل الأول

1972

كنتُ خادمة منزلٍ لما يقرب من نصف حياتي حين التقيت أورينا.

بدأت إقامتي الأولى كخادمة عندما كنتُ في العاشرة. في ذلك اليوم، وقبل أن يطلع الصّبح، مضيت لوحدي في حافلةٍ كبيرةٍ من تلك الحافلات التي تتّجه إلى لاغوس. رحلت حينها لأعيش مع أبي إيما وزوجته. كان عليّ أن أؤدّي بعض الواجبات المنزلية، وأذهب إلى المدرسة. هذا ما قالته لي أم نكيمديليم. كنتُ متحمّسةً للذهاب، وقلقةً بعض الشّيء، لكنني كنت أعلم أن أيّ مكانٍ في الدنيا سيكون أفضل من العيش مع أم نكيمديليم بعد موت أبي. وكانت لاغوس كبرى مدن نيجيريا، الكلّ يعلم ذلك. كانت أم نكيمديليم تقول إن كلّ من ذهب من قريتنا إلى هناك إمّا تزوّج امرأةً يوربيّة[1] ولم يعد قط، أو عاد ورائحة المال واليُسر تفوحُ منه.

لم يكن مفاجئًا أن تبعدني أمّ نكيمديليم عند أوّل فرصةٍ تطرقُ بابنا.

كانت كلّما رأتني أقفُ منتظرةً الطّعام عند المطبخ تنعتني "أموسو"[2]، وتسألني ووجهها مكفهرّ: "لماذا ما زلت تمدّين يديك لأجل الطعام؟"، وكانت تنحبُ قائلة: "ألا يكفيك الدّم الذي تمصّينه منّي ومن أولادي؟ أم أنّه يذهب إلى رأسك المنفوخ؟" مشيرةً إلى رأسي الذي يبدو ضخمًا فوق جسمي النّحيل. كان الأولاد الآخرون ينعتونني "آتينغا"، آخذين في الاعتبار بِنيَتي الهزيلة. لم تكن أم نكيمديليم ترى أنه ينبغي تبذير طعامنا القليل لتكنيز اللّحم فوق

(1) مجموعة عرقيّة في نيجيريا.

(2) وتعني الساحرة بلغة الايبو (اللغة الأصلية للمجموعة العرقية في نيجيريا)

عظامي. فالمزيد من اللّحم سيكون عائقًا أمام أدائي الأشغال الكثيرة التي كانت ترسلني لأدائها.

كانت أم نكيمديليم تلومني على كلّ مصائبها. ومنذ أن جاءت لتعيش معنا والمصائب تنزلُ علينا مثلما ينزل المطر في يوليو. وبعد أن مرّ عامان ولم تستطع أن تحمل طفلًا، ألقت اللّومَ عليّ. قالت إن ديبيا أخبرتها أنّني السّبب وراء عقمها. إذ تقول إن الشّؤم يحوم حولي مثلما تحوم البعوضة حول أذُن المَرء في الليل، وكما يحوم الذّباب أمام الوجوه. وبعد موت أبي، صارت تلمّح إلى أنه كان جنديًّا نجا من الحرب، وتحمّل الفقر، وتمسّك بالحياة بعد أن قتلتُ أمي وأنا أدفعُ نفسي إلى العالم، لقد سلِم أبي من كلّ هذا، لكن كيف سيسلمُ المرءُ من طفلةٍ ملعونةٍ قتلت أمها؟

"لن تقتليني." كانت تصيح بصوتٍ سوبرانيٍّ مشحونٍ بالإدانةِ والاشمئزاز كما لو أنني وحشٌ بسبعة رؤوس كوحوش القصص الخرافية، "لن تتمكّني من ذلك يا عديمة الحياء! لستُ حمقاء كأمك، ولا ضعيفة كأبيك. سأقتلكِ قبل أن تقتليني." ولم أكُن حينها إلّا طفلةً صغيرةً خائفة.

"لم أقتل أمي وأبي." كنت أردّ عليها محاولةً إبعاد رأسي عن لكماتها الموجعة التي كانت تدقّ جمجمتي.

ومع ذلك لم تتمكّن ضرباتها المؤلمة من القضاء على روح التّمرد فيَّ؛ إذ كنت أقول في سرّي: "لو أن في مقدوري قتل إنسان لما كانت أم نكيمديليم حيّةً وأبي وأمي ممدّدان في قبريهما اللذين كساهما العشب أمام منزل أبي". عندما كانت تقترب صوبي وفي يدها القضيب الذي تقتلعه على عجلٍ من نبات النوغبو بجوار المطبخ، لم أكن أقف في انتظار وابل ضرباتها على بدني، بل أهرع باتجاه الطريق، وأنا أصرخ مستغيثةً بأبي الميّت، وأعلم أن عقوبتي ستبقى تنتظرني في

البيت حين أعود إلى رشدي. حين كانت تحرمني الطعام، كنت أستيقظ في اللّيل وأتسلل خلسةً إلى المطبخ لأتناول بعضًا من الحساء والسّمك المجفف الذي لا تطعمه سوى لأطفالها؛ للوقاية من نقص البروتين، كما تدّعي.

حين أصبحتُ في سن العاشرة، جاء إلى قريتنا في عيد الميلاد أبو إيما، قريب أم نكيمديليم. قال إنّه في حاجةٍ إلى فتاةٍ تُعين زوجته في الأعمال المنزلية. اعتقدت أم نكيمديليم أنّي سأكون خيارًا مناسبًا؛ فبذلك ستتخلّص مني. غير أنها اغتمّت لفكرة أن تلك فرصةٌ أكبر مما أستحقّ في رأيها.

"ألا تظنّين أن ذلك كثير عليها؟" سألت صديقتها، أم أودينكيما.

كنتُ أصيخ السّمع من خارج المطبخ.

"همم." قالت أم أودينكيما: "هل تريدينها أن تعيش هنا، أن تمصّ دمك، وتمصّ دم نكيمديليم ودم أختها كلّ ليلة، غيرَ آبهةٍ بشيءٍ مثل جرذ؟"

"إيه، هذا كلامٌ صحيحٌ يا إيزيوكو، ولكن ماذا لو أصبحَت ذات شأنٍ في لاغوس؟"

ضحكت أم أودينكيما من قلبها، وجلجلت طويلًا. لم تستطع تصوّر نوابولو، الآتينغا، وقد أصبحت ذات شأنٍ في أيّ مكان. ولا حتى في لاغوس. سمعتها تقول ذلك، تلك المرأة الشّحيمة ذات الفم المدبّب الذي يجعل المرء يتساءل كيف يمكن للطعام أن يمرّ عبره إلى معدتها. ومع ذلك كانت دائمًا ما تمضغُ شيئًا في فمها كما لو كانت نعجة تجترّ العشب. وافقتُها الرّأي في صمتٍ فمن المضحك أن أصبح ذات شأن من خلال التّنظيف، والطّبخ، والغسيل في منزلٍ ما، حتى لو كان في لاغوس، كبرى مدن نيجيريا. حتى طفلة في العاشرة لم تذهب إلى المدرسة لسنتين، تدرك حينها أن تلك الفكرة أشبه بالحكايات الطّويلة التي ترويها السّلحفاة للحيوانات الأخرى الذين ألحقت بهم الأذى

بجشعها حتى لا يرموها من السماء.

ما قرّر مصيري كان كلام أم أودينكيما: "يا أم نكيمديليم، أبعدي تلك البنت، ففي عروقها تجري دماء أمّها المشعوذة فقد كان أفراد عائلتها كلّهم من المشعوذين. مؤكّدٌ أنّك لا تريدينها أن تدخل ولديك إلى تلك الجماعة، أو أسوأ، أن تقتلهما."

بعد ذلك أدّت أم نكيمديليم التزامها بإبلاغ عمي نابوزو.

أردت أن أذهب إلى لاغوس، حتى لو تسلّقت جبالًا وسبحت بحارًا، في سبيل أن أبتعد عن زوجة أبي. لكنّي لم أرغب يومًا في أن أرحل عن عمي نابوزو.

لم يحبّذ عمي فكرة أن ترسلني أم نكيمديليم إلى لاغوس. كان يفترض أن يقع على عاتقه أمرُ تقرير مصير ابنة أخيه، لكنه بدا ضعيفًا أمام سطوة أم نكيمديليم العاطفيّة واللّفظية. كانت انتقاداتها اللّاذعة في بعض الأحيان خفية، لكنها في الغالب حادّةٌ مثل الحجر الذي نطحن به الفلفل في الهاون الصغير.

قال لها: "دعيني آخذ نوابولو. على الأقلّ ستظلّ أعيننا عليها." وألقى على وجهي نظرة قلق، لكن نبرته كانت رقيقة، كما كانت على الدوام.

"ألم يكن زوجي - أخوك - يقول إنّه يتمنى لنوابولو أن تذهب إلى المدرسة؟" سألته أم نكيمديليم، وهي دائمًا تعرفُ كيف تختار كلامها بعناية.

قال نابوزو: "نعم، هذا صحيح."

"الناس الذين ستعيش عندهم سيرسلونها إلى المدرسة. أبو إيما بنفسه قال لي ذلك." وهمهمت: "أنا لا أستطيع إرسالها إلى المدرسة. هذا كلّ ما في وسعي فعله لإطعام نفسي وبنات أخيك."

كان نابوزو يدرك متى يُغلب، فعمّي يكاد يعجز عن إطعام أسرته

بصناعة النّبيذ تلك. كانت زوجته تنجب وليدًا كل عام. آخر ما أتذكر، كانوا تسعة أولاد. لطالما اعتدنا رؤيتها بهيئتها النّحيلة وبطنها البارز تدبّر شؤون منزلها. سمعت أم نكيمديليم تقول إن عادتها في إنجاب طفلٍ كلّ عامٍ عائدةٌ إلى عجز نابوزو على إبقاء قضيبه في سرواله. مذكّرةً إيّاهُ كلّما أتيح لها المجال بواجباته المهملة تجاه أسرة أخيه الراحل، ملمّحةً إلى أن عليها في مقابل عجزه عن أداء تلك الواجبات أن تبقى تحمل على كاهلها الأنثوي الضّعيف عبئًا على الرّجال أن يحملوه.

يوم رحلتُ، في صباح مكفهرٍ ذي هواءٍ شماليٍّ شرقيٍّ جافٍّ وبارد، لم يأتِ أحد لوداعي سوى نابوزو. ارتديتُ ملابسي في الظلام وفي أذني صوت أختي من أبي، نكيمديليم، وهي تمصّ لسانها عند طرف السّرير بصوتٍ مسموعٍ يتردّد على نحوٍ متواتر.

ما إن خطوت خارجةً حتى ارتعش جسدي من البرد. أمسك نابوزو يدي وجذبني نحوه. عانقتهُ بقوّة. وضع بضعة أوراق ماليّة في يديّ، فأحكمتُ أصابعي عليها لأخفيها عن عينيّ أم نكيمديليم التي لو علمت بها لما توانَت لحظةً عن انتزاعها مني.

قال لي: "ستكونين في رعاية إيزيتشيتوكي"؛ قاصدًا إله الأرض. "تذكّري والدك. تذكّري موطنك. نحن لا نسرق، ولا نكذب، ولا نخدع. نقنعُ بما لدينا مهما كان متواضعًا. لا تجلبي العار لنا." أومأت رأسي بكلّ جدّية. كلّ ما سأتذكّره من ذلك اليوم هو معانقة نابوزو، وتشبّثي به، وأنا أحفظ هيئته النحيلة ورائحة التّبغ التي تفوح منه، قبل أن تشدّني أم نكيمديليم بعيدًا وهي تقول لي إنّ أمامنا طريقًا طويلاً إلى الحافلة. كانت تلك آخر مرّة رأيته فيها.

وبينما كنت أنظر نحوه ونحن نغادرُ في ظلام ذلك اليوم، انهمرت أولى

دموع الرّيبة والخوف على خديّ تاركةً خلفها علامات بيضاء مسحتها عن وجهي بأصابع رطّبها بصاق امرأةٍ ذات أردافٍ عريضةٍ جلست بجواري في الحافلة. طوال العامين الماضيين منذ موت أبي، كان عمي نابوزو يفعل ما في وسعه ليؤدّي دور الأب. كان هو من روى لي حكاياتٍ عن أبي وأمي، وحكاياتٍ عن ولادتي، حكاياتٍ قال إنّ عليّ ألا أنساها لأن تلك ستكون رغبة أبي لو كان بيننا. وهو من روى لي كيف توصّل أبي - أخوه الأكبر والوحيد - إلى إطلاق اسم "نوابولو" عليّ بعد موت أمي وهي تخرجني إلى هذا العالم.

وحين كان الحزن يعتصر قلب أبي لفراق زوجته التي أحبّها من كلّ قلبه، كان نابوزو يقول له إن المولود مع هذا بركة. حتى لو ماتت أمها وهي تخرجها إلى العالم، تظلّ الابنة بركة، وأعظم هِبة. قل لي لماذا يتزوّج الرجال؟ لإنجاب الأبناء. لماذا يكدح الأب من شروق الشمس إلى مغربها؟ لأجل الأبناء. لماذا تتزوّج المرأة؟ لتنجب الأطفال. لمَ قد تبقى لو كان زوجها عاطلًا عن العمل أو يضربها؟ لأجل الأطفال.

وهكذا استلهم أبي اسمًا لي من كلام عمي بعد أن كان قد أنهكه الحزن، ونفقات الدّفن التي لم يحسب لها حسابًا، والأبوّة التي تنتظره وحيدًا، فكان اسمي "نوابولو". وقد كنتُ في رأي عمي هبةً بالفعل، وبركةً للعالم؛ إذ ورثتُ جمال أمي، ذاك الجمال الذي جعل أبي يقطع البحور السّبعة، ثم يتسلّق الجبال السبعة، ثم يقاتل الوحوش السبعة في غابات الشّر السّبع لكي يظفر بالزواج بها.

كانت أمنيته أن ألتحق بالمدرسة وأصبح ممرضةً أو معلّمة. كان يقول إن بعض الممرضات اللّواتي رآهنّ خلال الحرب قد بعثهنّ الإله إيزيتشيتوكي نفسه. والتعليم اختيارٌ موفّقٌ أيضًا. ما إن اشتدّ عودي، حتى أدخلني إلى مدرسة القرية. وكل صباح يوقظني ونمضي سيرًا إلى المدرسة التي كانت من

المباني القليلة في القرية التي بُنيت بالإسمنت وغطّاها سقفٌ لائق. وكلّ مساء، يسألني ماذا تعلمت في ذلك اليوم، وقد كنت أردّد حروف الأبجدية وأنا أغني "حرف الألف؛ أرنب، حرب الباء؛ بيت، حرف التاء؛ تفاحة..." وكان يؤمئُ ويبتسم فرحًا.

كان يأخذني أحياناً لنسبح في النهر. تلك متعتنا الخاصة. فحينها يكون الرجل الذي تزوجته أمي، إذ يعود البريق إلى عينيه ويرتفع خدّاه الغائران بعض الشّيء ليرسما ابتسامةً على وجهه. هناك يريني البقعة التي رأى أمي فيها لأوّل مرّة؛ حيث كانت تسبح مع صديقاتها. لم يفوّت مرّةً دون أن يقول إنّه رآها مثل حورية خارجةً من الماء، أجمل امرأة رآها في حياته، ذات العنق المرمري، امرأة تأسرك اليوم بطوله، امرأة تجعلك تغفل عن الذّهاب إلى عملك ولا تستطيع أن تزيح عينيك عنها. وكان على الدوام يردف القول بأنّني أشبهها شبهًا بالغًا، وأنني سأصبح فاتنةً حين أكبر. كنت أشعر في تلك اللحظات أن أمي معنا، وأننا عائلةٌ سعيدة، إلى أن دخلت أم نكيمديليم إلى حياتنا.

لطالما كان الناس يقولون لأبي إنّه في حاجة لزوجةٍ جديدة، لامرأةٍ تكون أمًا لي وتنجب ولدًا. إلى أن جاء اليوم الذي استجاب فيه لهم وتزوج أم نكيمديليم. ومنذ ذلك اليوم، لم يزر بيتنا السلام ولا البهجة؛ فالسلام والبهجة لا يحلّان في محلٍّ تملؤه غيرة أم نكيمديليم. وبعد أن أنجبت ولدًا، بات لها موطئ قدمٍ ثابتٍ في البيت، وراح شرّها ينمو.

كنت في الثامنة حين مات أبي. لم يعانِ المرض لمدة طويلة، بضعة أسابيع فقط. بل إنه لم يبدُ مريضًا بالفعل، مجرّد حمى وسعال. ليس مريضًا إلى درجة أن يموت. كان نابوزو متيقّنًا من أن أعداءً لعائلتنا قد دسّوا له سمًّا. أما أم نكيمديليم كانت تعتقد، بدرجة اليقين ذاتها، أنني أنا من قتله.

ومع موته حدثت التّحولات. بعضها حدث على الفور؛ كالذّهاب إلى المدرسة. فأم نكيمديليم لم تكن ترى فائدةً في ذلك ما دامت هي ذاتها لم تلتحق بالمدرسة ومع ذلك تسنّى لها أن تتزوج رجلًا صالحًا. لم تذهب يومًا إلى المدرسة ومع ذلك كانت تعلم كيف تفعل ما تفعله نساء نوكينتا؛ من تنظيفٍ، وطبخٍ، وجلب الحطب، وإشعال النار، وصنع زيت النخيل، والزراعة، والشّراء، والبيع، وإنجاب الأطفال.

أما التّحولات الأخرى فقد استغرقت وقتًا أطول، كالسباحة في آماتا. لقد كان الحرمان من السباحة في النهر هو ما جعلني أدرك كيف أنه حين يموت الأب فإن الحياة لا تبقى على حالها. تعلّمت أن الحب أكبر من مجرد الطّعام والمأوى.

جلّ ما قدمته لي أم نكيمديليم هو المأوى وبعض الطعام. وكلّ صباح، كنت أنقّل المكنسة جيئةً وذهابًا في أرجاء الحجرة بينما أولاد أم نكيمديليم يغطّون في النوم، ثم أحمل فوق رأسي قدور الماء من النبع، ثم أسخّن حساء الليلة الفائتة على نار الحطب الذي أجمعه في اليوم السابق. كنت أذهب معها إلى المزرعة فنعمل فيها إلى أن يصيبها التعب أو يبدأ الأولاد في الصراخ من حرّ الشمس. كنت أستطيع فعل كل شيء؛ تقشير بذور الإيغوزو، ودقّ ثمار النخيل لصنع الزيت، وقلي الغاري. وتصنع هي أوكبا شهية محمّرة بزيت النخيل، أبيعها في إيكي نوكينتا. وفي بعض المرات، حين أبيع الأوكبا بسرعة، أبقى وألعب الأوغا[3] مع بعض الأولاد في السوق. لكن ذلك لم يكن يعجب أم نكيمديليم، فحين تعلم بالأمر تحرمني من الطعام.

كنت في الفترة الأولى التي تلت موت أبي أحلمُ به كثيرًا. يأتيني في الحلم

(3) لعبة السّيد والتّابع.

ليأخذني إلى النهر. لكن عندما تكدّست المهام الملقاةُ على كاهلي مثلما تتكدّس طوابق الأبنية بعضها فوق بعضًا، صرتُ أغطّ في النوم حالما يلمسُ رأسي الوسادة وأظل ممدّدةً في عالمٍ آخر إلى أن تهزني أم نكيمديليم لأصحو وهي تناديني آموسو لأعود من جولات مصّ الدماء. كنت أندبُ أحلامي وأنا أتولّى أمور البيت، وأحيانًا أدندن أغنية الأبجديّة خشية أن أنساها.

لم تكن الحياة في لاغوس مثلما تخيّلتها. كان أبو إيما وأسرته يسكنون في شقّةٍ في أبابا، ولديهم جيرانٌ من كلّ أرجاء نيجيريا ويتحدّثون لغاتٍ مختلفة، كالإيدو، واليوروبا، وإيتسكيري، والبيدجين. كانت الحياة معهم مختلفةً لكنها مع ذلك مشابهة لما عشتهُ من قبل. لم يرسلوني إلى المدرسة كما جعلتني أم نكيمديليم أصدّق أنهم سيفعلون. بذلتُ الجهد نفسه الذي اعتدت على بذله عند أم نكيمديليم. كنت أنظف، وأطبخ، وأغسل، وأساعد أم إيما في متجرها في السّوق، لكنني لم أنعم بالضّحك مع الأطفال عند مجرى النهر أو الغناء لأختي الرّضيعة، أو لعب الأوغا في السّوق بعد بيع الأوكبا. ورغم أننا ننتمي إلى القرية ذاتها وأب إيما قريبُ زوجة أبي، إلّا أن أم إيما أصرّت على أن أناديهما أوغا[4] ومدام؛ لتؤكّد على المسافة ما بيننا؛ فهما في المرتبة العليا وأنا في المرتبة الدنيا.

كان التوتر الواضح والمستمر بين أبي إيما وزوجته يخيّم على البيت منذ الصباح حتى المساء. في البداية شعرتُ بالأسف على أبي إيما؛ فقد كان يعمل طوال اليوم في متجرهما وحين يقفل عائدًا إلى البيت يستقبله صراخ المدام. مثل اللبؤة، تزأر عليه وتقذف التوّعدات والتهديدات في وجهه مهتزّةً من عنقها الغليظ حتى ساعديها وردفيها. كنتُ في غمرة عملي الذي لا نهاية له أشفق على حال ذلك الرجل الهادئ الجسيم الذي لم يبدُ لي نصيبهُ في الحياة أفضل من

(4) سيد

نصيبي إلّا بقليل. كان العار الذي يملؤه جديرًا بالشّفقة، ولو أنه لم يكن باديًا سوى في وجهه المتكدّر وفكّه المشدود المتشنج وجحوظ عينيه اللّتين تخفيان بمشقّة غضبًا مكبوتًا. كانت آداكو، الخادمة الإيبو الأخرى في المنزل، وهي فتاة جلفة كبيرة الصّدر من أنامبرا، تنعتُ أبا إيما بالجدي "إيوو"، لأنه يحدّق بالجميع ببلاهة. كانت كلما مرّ بقربنا ونحن نسحب الماء من البئر تقلّد الثغاء "ماااااا"، وكنت وقتها أقهقه ضاحكة، فيقطع علينا الضحك لنردّد له "صباح الخير، يا سيدي" وهو ما يزال محدّقًا. ومع ذلك، فعندما أحضر له الطعام إلى جانب الطاولة في غرفة الجلوس، حيث يجلس وحيدًا بعد العمل بينما تجلس زوجته تحصي نقودها في غرفة الطعام، يدمدم "دالو" دون أن ينظر إليّ. أخبرتني آداكو أن المتجر كان للمدام من عائلتها الثريّة.

"لماذا تسع نايرات فقط؟"

أرادت المدام معرفة السّبب بينما تهزّ في وجهه المال الذي سلّمه لها. كان صوتها خفيضًا ومخيفًا كفحيح الأفعى إلى درجة أنني جفلت في مكاني أمام الحوض وأنا أغسل الصحون.

ارتبك بحثًا عن كلماتٍ يشرح بها سبب نقص النّقود من غلّة المتجر، بينما ذراعاه ترتجفان على جانبي جسده الطويل الضخم.

كنتُ مُطرقةً أنظر إلى مياه غسيل الأطباق المتّسخة حين سمعت صوت صفعة قوية. وحين رفعت رأسي رأيت يده على خدّه، وقد أشاح بوجهه عنّي وعن أولاده.

لماذا يسمحُ بذلك يا ترى؟ ألم يكن رجلًا؟

واصل إشاحة وجهه عني؛ كما لو أنه لم يشأ الاعتراف بأنني رأيتُ عاره. إلى أن جاء يومٌ، بعد أشهرٍ من العيش عندهم، بدأ فيه يتردّد إلى فراشي في الليل

ليمرّر عارهُ إليّ.

يومذاك، كان الأطفال يلعبون، وكنت أدلّك ظهر المدام، وأوغا قد وصل البيت للتوّ، لتسأله المدام أين كان حين اتّصلت عصر ذاك اليوم. كان تردّده برهةً وهو يسرد ما كان يقوم به طوال اليوم جوابًا على سؤالها كفيلًا بأن يتسبّب له بصفعة غضب. اتّجهت يده مجدّدًا نحو خدّه. وعيناه، اللتان أزاحهما عن زوجته، وقعتا على وجهي.

ما الذي رآه في وجهي؟

في تلك الليلة، تسلّل أوغا إلى المتجر حيث كنتُ أنام وسط درنات البطاطس الحلوة وأكياس الأرز والفاصوليا. ألقى بثقله عليّ مثلما يُلقي بناءٌ من ثلاثة طوابق بركامه فوق الشارع. أطبق على عنقي بإحدى يديه، وأخذ يتحسّس زمام سرواله بالأخرى، ويهمس مهدّدًا كلّما حاولت أن أصرخ، أو أن أقاوم، أن أحرّك من تحته جسدي الذي يكاد لا يبلغ من العمر أحد عشر عامًا. تصوّرت أن المدام ستقتلني، فرحتُ أكزّ على أسناني، وأعضّ كاتمةً الألم.

"لا تخبري أحدًا" أمرني حين انتهى.

من عساي أخبر؟ الطّفلين الصغيرين؟ آداكو في الشّقة الأخرى، تلك الفتاة التي لا تسمع أذناها ما تقدر على كتمانه عن بقية البشر؟ أو لعلّي قد أخبر الجارة الجديدة، تلك الشابة المعلّمة في المدرسة الابتدائية المجاورة (التي كان يفترضُ أن أذهب إليها) والتي توقّفت لمساعدتي في حمل غالون الماء إلى الأعلى الأسبوع الفائت؟ حسنٌ. لقد أزعج ذلك الأمر المدام، فتلقّفتني حينها بسيلٍ من الأسئلة التي كانت تفصل بين الواحد والآخر منها بصفعةٍ على وجهي كما لو أنّها تضع علامة الاستفهام. لِمَ كنت أكلّم الجارة (صفعة)، أكنتُ أتضوّر جوعًا (صفعة)، ألم أقوَ على حمل غالون (صفعة). بالطّبع لم أجرؤ على أن أخبر

أحدًا أن اللّيل قد بات عدوّي، بعدما كان صديقًا أتوق له وسط أشغال النهار التي لا تنتهي.

لطالما كنت أقول في نفسي "بسرعة" وهو يدنو منّي. كنت أستلقي بهدوء، وأنا أرتجف، ودقّات قلبي تتردّد في طبلة أذنيّ، وأراه يخور مثل تيس، بل كانت رائحتهُ رائحة تيسٍ كذلك. ومنذ ذلك الحين لم أعد أشفق عليه.

ذات ليلة، كنت ممدّدةً على السجادة، كالعادة، بينما أوغا ينزل سرواله. وحين فرغ، خطر في ذهني أن زوجة أبي قالت إنها أرسلتني إلى لاغوس لألتحق بالمدرسة وأتعلّم أشياء جديدة، هل هذه إحداها؟ لكن تلك الفكرة لم تلبث أن تلاشت عند صياح أوغا المفاجئ وهو يهرول مبتعدًا، فإذا بالمدام واقفة خلفه والسّكين في يدها، بينما وجهها يستشيط غضبًا وهي تنظر لا إلى أوغا بل إليّ أنا.

تقدمت نحوي وشقّت كتفي كما لو أنها تشقّ عنق دجاجة، وتدفّق الدم الأحمر فوق ردائي. وراحت السكين تهوي على ذراعيّ ويديّ وأنا أصرخ، حتى تحرك أوغا أخيرًا وأمسك يد المدام في الهواء. الكراهية التي بدت في عيني المدام يعجز عنها الوصف، يكاد الرّعب الذي تبثّه يضاهي رعب السّكين القاطعة، ما جعل رجليّ المتيبستين تُشحنان بالذعر وتقذفان بي شبه عارية نحو الباب.

وأنا أهبط سلالم الشّقة، هاربةً من موت محقق، وصوت صراخي يتردّد في أرجاء البيوت المعتمة التي كان جيراننا نيامًا بسلامٍ فيها، عرفتُ أني لن أعود يومًا. حتى لو كان عليّ أن أرجع إلى بيت زوجة أبي.

لم يفتح لي أحدٌ بابًا سوى امرأةٍ بدينةٍ تقطن في شقّةٍ في الطابق السفلي وكانت تنعتها أم إيما بخطّافة الرّجال لكثرة ما كانوا يترددون على منزلها. أدخلتني إلى بيتها وسارعت دون سؤال تضع الإيودين على جروحي. صرخت من حرقة الإيودين، ومن العار الذي جلبه أبو إيما عليّ، ومن توحّش أم إيما.

تلك السيدة البدينة - رغم أنها خطّافة رجال - أعطتني الطّعام وفراشًا آوي إليه، وفي الصّباح صعدت لتتكلم مع أم إيما. لم تخبرني وقتذاك ما قالت لها أم إيما، لكنني أدركت أن أم إيما لم ترغب في أن تراني في بيتها مرّةً أخرى. وأنا لم أكن راغبةً في العودة إلى هناك.

وعندما التأمت جروحي بعض الشّيء، تدبرت مدام كلارا (كان هذا اسم تلك السيدة الطيبة) أمر عودتي إلى نوكينتا على متن حافلة أخرى. لم أكن حينها قد أتممت عامًا كاملًا في لاغوس.

استقبلتني أم نكيمديليم بالغضب والشّتائم.

"أيتها المشعوذة" نعتتني أمام صديقتها أم أودينكيما، "ألم أكن على حق، ألم يكن واضحًا كالشمس أنّه لا خير فيك؟" ثم أردفت وهي تستدير نحو صديقتها متظاهرةً بالاستعجاب، "كم واحدًا قلتِ لي... كم واحدًا حظي بالذهاب إلى لاغوس؟"

"لستُ أنا،" أجابتها صديقتها.

"ولا أنا يا أختاه، ولا أولادي. كم واحدًا تسنّى له أن يحظى بمساعدة شخصٍ هناك؟"

"قلّة. قلّة قليلة." قالت أم أودينكيما مؤكدةً كلامها.

وكان ذلك الجواب الذي انتظرته أم نكيمديليم، فاندفعت نحوي وشدّتني من أذني وسحبتني حول الفناء الخلفي وأنا أتأوّه ألمًا، "هكذا أرسلت تلك الدابة، تلك البهيمة إلى لاغوس، إلى حيث تشعّ السماء فوق أهلها وها هي ذي، قضمت الفرصة كالبهيمة ثم لفظتها." أرخت قبضتها عنّي برهةً لتلتقط أنفاسها بينما أئنّ ثم عادت تزعق وعروقها تنفر من رقبتها، "هل ينتظر أحدٌ من بنتٍ قتلت أمها أن تعيش في سلام؟"

لم تفدني روايتي لما جرى لي سوى أن قالت: "هذا ما يحدثُ حين تسرقين زوج امرأة أخرى."

سمعتها بعد أشهر تقول لصديقتها "ولكن انظري إليها، تكاد بنيتها تكون أنحل من بنية نكيمديليم رغم أنها تبلغ اثنا عشر عامًا. ما الذي يغري رجلًا في ذلك؟" لكن المرأة قالت لها إن بعض الرجال يغريهم هذا. وكانت تلك هي الإشارة الوحيدة على أنها ربما صدّقت حكايتي.

عدت إلى سابق عهدي قبل لاغوس؛ إلى أشغال البيت، والشتائم، والجوع، والصياح، والنوم، ثم النهوض لمواجهة كلّ ذلك من جديد.

مرّت عدّة أشهر قبل أن تأتيني فرصةٌ أخرى. هذه المرّة عند عائلة في إنوغو. كان هناك رجل من قريتنا يدعى هياسينث يعمل موظفًا حكوميًّا في إنوغو ويبحث للعائلات الثريّة عن خادماتٍ من قريتنا. جاء إلى أم نكيمديليم قائلًا لها إن هناك عائلةً تحتاج إلى فتاةٍ صالحةٍ تتولى أشغال المنزل وقد يرسلونها إلى المدرسة. وأخبرها أنهم على استعداد لأن يدفعوا مبلغًا من المال يُعينها في تربية بقيّة الأطفال.

كان حماس أم نكيمديليم لسماع هذا الجزء أكثر من حماسها لاحتمالية ذهابي إلى المدرسة هناك. فقد تحظى راحتاها بلمس المال، أو على الأقل - كما قالت له - سينقص عدد الأفواه الجائعة لديها واحدًا. لم يكن عمي نابوزو موجودًا ليتحرّى تلك الفرصة الجديدة أو يرفضها، فقد مات حين كنتُ في لاغوس وبات حال عائلته أسوأ من حالنا. وهذه المرّة، على عكس ما شعرت وأنا أتوجّه إلى لاغوس، رحلت إلى إنوغو وفي داخلي خوفٌ وتوجّس. إلّا أنني مررتُ بتجارب جيّدة؛ فقد ذهبت إلى المدرسة، وتعلّمت القراءة، ووقعت في حبّ أورينا.

الفصل الثاني

حين وصلتُ إلى إنوغو مع هياسينث، أجريتُ المقابلة في غرفة جلوس فسيحةٍ تتوسّطها سجّادةٌ حمراء من النوع الذي تغوص فيه قدمك كلّما خطوت خطوة. تلك الغرفة وحدها كانت أكبر من بيتنا في نوكينتا كله. كانت كتبٌ ذات غلافٍ مقوّى وحروفٍ مذهّبةٍ تتربّع بمظهرها الباذخ فوق الرّفوف الخشبية. أما بالنسبة لي، فتجلّى التّرف الخالص في الآرائك والوسائد المكسوّة بقماشٍ مخمليٍّ ذي لونٍ بنّيٍّ داكن.

عند الباب وقف هياسينث باحترام، وإلى جانبه وقفتُ ويداي تقبضان على كيس النايلون الأسود الذي يحوي ثيابي. تبادل ربّا المنزل التّحية مع هياسينث ثم دعوانا للدخول، فجلسنا على تلك المقاعد الوثيرة قبالتهم. كنتُ في أوّل أسبوعٍ لي هناك أتحيّن الفرصة لأجلس على الأريكة وأشبك رجلي كما يفعل الأثرياء.

تولّى هياسينث الحديث قائلًا إن زوجة أبي يسعدها أن أعمل لديهم، وأنّها لا تطلب في المقابل سوى أن أدخل المدرسة وأتلقّى المعاملة الحسنة. ولدهشتي كان كلامهُ رصينًا. كان هياسينث ينال احترام القرية، فقد عُرف على أنه يعملُ عمل الأسياد البيض، موظفًا حكوميًّا في ولاية إنوغو. ثم علمت لاحقًا أنه لم يكن سوى موظفٍ مدنيٍّ في مكتب السّيد.

"هل أنتِ نظيفة؟" سألني الرجل الذي سأناديه لاحقًا "سيدي". كان لوجهه النّحيل أذنان خرجتا من رأسه وبدتا كما لو أنهما قطعتان وضعتا على جانبي رأسه على عجل. له فمٌ واسعٌ للغاية، تحدّه أخاديد عميقة من كلا الجانبين، لكن

عينيه الصّارمتين الثاقبتين هما ما جعلني أشعر بالقلق. كان يتفحّص وجهي آنذاك، وسمعتُ صوتًا في رأسي يقول إنه يرى الكذبة قبل أن أتفوّه بها.

"هل استحممت هذا الصباح؟ هل تستحمّين كلّ يوم؟"

أجبته على أسئلته تلك بـ"نعم يا سيدي" وكانت مكافأتي قوله "هنا تغسلين يديك في كلّ مرة تستخدمين الحمّام.

"هل تكذبين؟"

"هل تسرقين؟"

"هل تستطيعين القراءة؟"

"هل تستطيعين قراءة الوقت؟"

مكتبة
t.me/soramnqraa

كانت إجابتي على تلك الأسئلة "لا يا سيدي." فهزّ السيد رأسه والتفت إلى زوجته قائلًا: "جيد، على الأقل لا تكذب."

أومأت موافقة. وكانت هيئتها الطّويلة تبدو أكثر رهبة من بنية المدام المكتنزة رغم ضآلتها.

"سوف نرعاك. نحن لا نسيءُ معاملة الناس. ستأكلين مما نأكل وستشربين مما نشرب. لكن بالمقابل يجب عليك أن تنفّذي ما تؤمرين به. الكسل مرضٌ لا نسمح بوجوده في هذا البيت." بهذا بدا أنّني تخطيت المقابلة.

حاولت كبت قلقي. أين سأنام؟ لم يكن السيد يشبه أوغا كثيرًا لكن لم يكن من شأن تلك الفكرة أن تُسكّن قلبي الخافق وأنا أتذكّر ما فعله بي أوغا

حاولت عندما أخبرا هياسينث أنهما سيهتمان بي ألّا يظهرَ عليّ الخوف. شكرهما ونبّهني أن أحسن التّصرف وألّا أمدّ يدي إلى ما ليس لي، وأن أبقي عينيّ على عملي ومدرستي. لم يخبرني كيف سأتّصل به إذا ما حدث مكروه، وفي غمرة خوفي لم أشأ أن أسأله.

تسلّمت بعد ذلك لائحة بالأشغال التي عليّ أن أؤديها: بعضها لمرّتين أو أكثر في اليوم الواحد، كحمّام إيكينا - ابنهما الصغير - (مرّتان في اليوم، في الصباح وفي المساء)، وتنظيف غرفة الجلوس (مرّتان في اليوم، قبل الفطور وبعد العشاء)، والمطبخ (كلّما وجدت نفسي قد فرغت من الأشغال). أرسلوني إلى غرفةٍ خلف البيت. أروني حمّامي، وقالوا لي إن عليّ أن أبقيه نظيفًا.

بدا كلّ شيءٍ باذخًا وأنيقًا، خاليًا من ذرّة غبار. ألقيتُ كيس ثيابي، وخلعت عنّي ملابس الكنيسة التي جئت بها.

"خذي،" قالت لي السيدة وهي تعطيني كيسًا أزرق صغيرًا. تناولته بيدي وتحسّست في داخله شيئاً لم يكن من الطّراوة ولا من المتانة ما جعلني أخمّن ما هو، لكن خجلي منعني من السؤال.

"هل بدأت عادتك الشّهرية؟" استهلّت كلامها بالإيبو التي أفهمها جيّدًا وأتحدّث وأفكّر بها، لكنها أربكتني بقولها "العادة الشهرية" بالإنكليزية، وبدا أنها لمحت ارتباكي فأردفت موضحة: "الدم الذي ينزل كلّ شهر."

شعرت بالارتياح لأنني عرفتُ ما كانت تتكلم عنه. كانت عادتي قد بدأت قبل أن أصل إنوغو بثلاثة أشهر فقط. يومها كنت في السوق وفوق رأسي بعض من الأوكبا الذي تصنعه أم نكيمديليم. شعرتُ صباح ذاك اليوم ببعض الألم في بطني لكنني لم أشتكِ خشية أن تصيح في وجهي. غير أن الألم ظلّ ينمو خصوصًا في الجزء السّفلي من جوفي. شعرت وأنا أسير بشيءٍ يجري على فخذي، فنظرت باستغرابٍ لكنني لم أجد شيئًا. تابعت المسير حتى وصلت إلى السوق، وهناك رأت أم أوكيشوكوو ما كان يجري معي. كانت أم أوكيشوكوو غريمتي في بيع الأوكبا، ولطالما كانت تمتعض عندما تراني أبيع جميع ما لدي من الأوكبا بينما ما تزال تنتظر أن يعير الزبائن بضاعتها اهتمامًا. لا بد أنّها رأت البقعة

الحمراء على ثوبي الفاتح لأنها سارعت بإزالة وشاحها ولفّته حولي. أصرت على أن أعود إلى البيت على الفور. أخبرتها أن أن أم نكيمديليم قد تقتلني لو عدت دون أن أبيع شيئًا، لكنها قالت لي إن أم نكيمديليم ستتفهّم الأمر. غير أنها عندما رأت أنني من شدّة خوفي من غضب زوجة أبي لم أتزحزح من مكاني عرضَت أن ترافقني إلى البيت. ووضّبت الأوكبا التي لم تبعها وسرنا سويًّا باتجاه البيت.

عندما وصلنا أخذت أم نكيمديليم جانبًا وتحدّثت إليها وهي تشير إليّ وإلى ردفيها. لم تسعد أم نكيمديليم لرؤية أنني لم أبع الأوكبا، لكنها لدهشتي لم تتّهم أم أوكيشوكوو بالتّدخل فيما لا يعنيها.

"تعلمين العرف،" سمعت أم أوكيشوكوو تقول لزوجة أبي وهي تغادر. "اذبحي دجاجة ورحّبي بها بين النساء." ثم ابتسمت وتمنّت لي التوفيق، وغادرت.

طلبت منّي أم نكيمديليم أن أضع الأوكبا جانبًا. ذهبت إلى الغرفة وأحضرت بضع قطع قماشية وشرحت لي أن عليّ أضعها في سروالي الداخلي، وأن أغسلها وأبدّلها بأخرى كلما ابتلّت. أخبرتني أنّي سأمرّ بذلك كل شهر، لثلاثة أو أربعة أيام. وقالت أيضًا إنّه لم يعد من المسموح لي الاقتراب من رجل، وإلا فإنني سأصبح حبلى على الفور وسيقتل العار أبي في قبره ألف مرّة. ثم قالت إنها لا تملك ديكًا لتذبحه من أجل أن تستقبل أحدًا في عالم الأنوثة، وأن ذلك كلّ ما في وسعها فعله لرعايتنا دون عونٍ لا من الأرض ولا من السماء.

نعم. كنت أعلم عن الدم الذي ينزل كل شهر، أكّدت لربة عملي الجديد ذلك. أومأت برأسها بشيءٍ من الارتياح وقالت: "هذا ما ستستخدمينه. لا تستخدمي مناديلي. الخادمة السابقة كانت تستخدم مناديل تكفي لشهرٍ كلّ مرّة." وأشارت إلى ما أحمل في يدي، "هذا ما ستستخدمينه. يسمونها فوطةً صحّية."

"نعم يا سيدتي."

"عندما تنتهين من استخدامها، تطوينها في كيسٍ من النايلون وترمينها في سلّة الأوساخ. أفهمت؟"

"نعم يا سيدتي."

"احذري أن تحاولي رحضها مع مياه المرحاض، أسمعت؟"

"نعم يا سيدتي."

"ترمينها في القمامة."

"نعم يا سيدتي."

عندما خرجت، فتحتُ الفوطة ولمستها. كانت شديدة البياض وناعمة. لعلّ هذه المدينة الجديدة، وهذا البيت الجديد، سيكونان خيرً لي. لعلّ إنوغو سترأفُ بي.

لم يكن يجدر بي القلق إزاء السّيد. فبالكاد كان ينظر إليّ نظرةً خاطفة حين أراه. وبعد أن عشت معهم لعدّة أشهر، وجدت أنَّ هلعي الذي جعل قلبي يرتعش في يومي الأوّل هنا، يكاد يبدو مثيرًا للضحك الآن. ومع أني كنت أؤدي عملي على أحسن ما يمكن، علمتُ أنني لن أرتقي يومًا لمعايير النّظافة التي ترضي السيد.

أصرّ السّيد على أن ألتحق بالمدرسة، لا طيبة منه؛ بل لأنه لا يريدني أن أكون في البيت مثل نعجة. قال إنني سأكون برفقة إيكينا لأوقاتٍ طويلةٍ ولا يريدني أن أعديه بالبلادة. أضِف إلى ذلك أن عليّ أن أكون على معرفةٍ ببعض الأساسيات كمعرفة الوقت، وقراءة لائحة إذا ما احتجت الذهاب إلى السوق، والتّعرف إلى لافتات الطريق إذا ما أرسلوني لأداء عملٍ ما خارج المدينة.

وهكذا - بعمر الثانية عشرة - دخلت مدرسة سانت ماري الابتدائية.

أذهب إلى المدرسة بعد الظهر، بعد عودة السيدة من العمل في الأمانة العامة. كانت السيدة موظفةً حكوميّةً ولطالما اشتكت من أن صعود السلالم من مكتب الإدارة أشبه بدفع صخرة إلى قمّة ميليكن. كان مديرها يرسلها في مهمّات يفترض لأمين المكتب أو المبعوث أن يؤديها، رافضًا الاعتراف بعلوّ رتبتها الوظيفيّة. أشارت مرارًا إلى رغبتها في تحصيل درجةٍ علميّةٍ أخرى كما لو أنها تهدّد. فيتجاهل السيد شكواها، أما أنا فكنت أتصرّف كما ينبغي عليّ؛ أصغي بصمت.

كان العيش مع السيدة والسيد عملًا شاقًّا؛ لا لأن الأشغال كثيرة - رغم أنها ضاهت ما كانت أم نكيمديليم تكلّفني به - بل لأن السيد عانى من وسواسٍ بالكمال جعلني في حالة استنفارٍ دائم. كان ينبهني أن عليّ أن أفعل كلّ شيءٍ مرّتين. أن أكنسَ، ثم أكنس ثانية. أن أمسح الغبار، ثم أمسح ثانية. أن أشطف، ثم أشطف ثانية. أن أغسل، ثم أغسل ثانية. كنّا نعيش في شارعٍ مليءٍ بالأتربة، معبّدٌ من قبل لكنه أُهمِل لاحقًا، فكان الغبار يتكوّم فوق الصّوَر، والطاولات، وفواصل الجدران، كلّ دقيقة.

كان عليّ أن أنظف الشرفة كل صباح، وأن أمسح الغبار عن رفوف الكتب في غرفة الجلوس والمكتبة، وأن أكنس البيت كلّه، وكانت مساحته تضاهي ثلاثة أو أربعة أضعاف مساحة بيتنا في القرية أو حتى البيت الذي عشت فيه في لاغوس. وعليّ أن أفعل كلّ ذلك مرّتين؛ مرّةً في الصّباح ومرّةً في المساء، وأن أتأكد أنّي لم أترك شيئًا خلفي. توجّب عليّ فرك الحمّامات الثلاثة بالمنظف، كلّ واحد منها ثلاث مرات، شدّدت السيدة على ذلك، ثم آخذ منديلًا وأمسح به أسفل مقعد الحمام. كان عليّ أن أغسل يدي أربع مرّات بعد تنظيف الحمامات. فتلك هي المهمّة الأخيرة، وبعد أن أفرغ منها عليّ ألّا ألمس شيئًا في البيت لثلاثين

دقيقة حتى أتأكّد أن مضاد الجراثيم الذي غسلتُ به يديّ قد سرى مفعوله.

على عكس الحي الذي عملتُ فيه في لاغوس، كان حيّنا في ضاحية الاستقلال نظيفًا؛ فقد كان حيًّا يقطنه أهمّ الموظفين ورجال الأعمال، والقساوسة والأساقفة الكاثوليك، بعضهم أوروبيًّا. المنازل مختلفةً لكنها جميعًا تحوي صفوفًا من الزّهر؛ الكركديه، وزهرة مجد الصباح، وصفوف بنات الإيورا الأكثر رواجًا. لدى جارتنا في المنزل رقم (9) أزهار ورديّة تغطّي السور بأكمله وتندلق من فوقه، وكان السيّد يرى أنَّ عليها تشذيبها. أما أنا فكنت أقول لنفسي حين يصبح لدي بيت فسأملأ أرجاءَه بالزهور. لكلّ البيوت في الليل أضواء في الخارج، من تلك الأنابيب الفلورية الطويلة. لو أن أم نكيمديليم رأت ذلك لقالت إن المدينة هي المكان التي تُنير المصابيح سماءه. كل العائلات كذلك لديها خادمات، ما عدا البيت رقم (21)، فقد كان الزوج مصرًّا على أنه لن يُطيق العيش مع وجود خادمة. وللغرابة، سمعت أنّه يساعد زوجته في الطّبخ وتحميم الأولاد وإيصالهم إلى المدرسة. عائلات كثيرة أيضًا لديها سائق، أما نحن فلا. كان السيد يفضّل القيادة بنفسه، فهو لا يُطيق رائحة السائقين في مكانٍ صغيرٍ وخانقٍ كالسيارة.

كانت عاداتي القروية تسقطُ عنّي رويدًا رويدًا، كما لو أني كنت سكينًا مثلومةً بحاجةٍ لمن يشحذها. فمثلاً، أكواب الماء يجب أن تكون نظيفةً وجافة. أوّل مرّة قدمت الماء للسيد، كنتُ قد نظفت الكأس جيّدًا تمامًا كما كنت أفعل في لاغوس، ثم أخذته مع زجاجةٍ من الماء البارد على صينية. وقفتُ أقدّم له الماء، فنظر إليّ مطولًا نظرةً باردة، ثم قال: "لماذا أحضرت لي كأسًا قذرة أشربُ منها؟ اخرجي من هنا."

عدتُ إلى المطبخ وساقاي ترتجفان بقوّةٍ حتى لم أعد أقوى على الوقوف.

سمعته لاحقًا يقول للسيدة إنه يصعب على الرّجل أن يتزوّج بامرأةٍ لا

تستطيع أن تمنح بعضًا من وقتها لتعلّم خادمةً كيف تؤدّي الأعمال المنزلية. وعندما جاءت إلى المطبخ، صرخت في وجهي.

"ألم تتعلّمي شيئًا في حياتك في قريتك الغبيّة؟ ألم يقولوا إنّك عملت في مثل هذا العمل من قبل؟"

شعرتُ بالحيرة. ما الخطأ الذي ارتكبته؟

"ألم يخبرك أحد، أيّ أحد، أنك لا تقدمين الماء لأحد، أيّ أحد، في كأسٍ مُبلّلة؟ أو أنه حتى لو قدّمت الماء للربّ بذاته في كأسٍ مُبللة، لا يمكنك أن تقدّمي لزوجي الماء في كأسٍ مُبلّلة؟"

تسمّرت في مكاني ولم أردّ؛ لم تكن تنتظر منّي أن أردّ.

هكذا تعلمت أن عليّ بعد أن أغسل الصحون، أن أضعها فوق صينيّةٍ لتجفّ، وأن يكون هناك - مهما حدث - كأسان جافّان جاهزان لأيّ لحظةٍ يطلب فيها السيد ماءً. بدأت أدرك أن أجواء البيت تتعكّر تدريجيًّا مع مرور النهار حتى حلول المساء، ولا تعود إلى صفوها إلا حين يغادر السيد إلى عمله في الصّباح التالي. عندما كان يدخل البيت، فأول ما يفعله قبل أن يردّ على تحيّة زوجته هو أن يشير إلى أنه رأى ذرّة غبارٍ على الأرض، أو شعرةً على الشّرفة، أو الأزهار ذابلة. ثم ينتقل للتذمّر من العشاء: مالح، حارّ، بلا طعم، ينقصه الملح، الكثير من اللحم ما يعني أن ماله يُهدر، القليل من اللحم، ما يعني أنه يتغذّى مثل فقير.

مستمرًّا في انتقاد كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ إلى أن تنفجر زوجته صارخةً مثل طفلٍ ضاق صدره من المداعبة. لطالما تصوّرت أن جلده أضيق من أن يستحمل المرء العيش فيه، لهذا يراه المرء يحاول الخروج منه وإزعاج الآخرين. كان ينفجر في وجه زوجته، مع أنه نادرًا ما كان ينفجر في وجهي. لكن غاية غيظه بكلّ

الأحوال تنتهي عندي، لأنه ما إن تنتهي جولة صراخهما حتى تصبّ هي جام غضبهما عليّ.

لم تكن السيدة امرأةً لئيمة، ليس على نحو مباشرٍ وموجعٍ كلؤم زوجة أبي. كنت أحصل على كل ما أحتاجه من الطعام، وتدعني أفعل ما يحلو لي عندما أفرغ من العمل. استطعت مع الوقت فهم أمزجتها، فقد كانت في أرقى مزاجٍ عندما يخرج السيد إلى عمله ومباشرةً بعد أن تعود من عملها بين الثالثة والرابعة. أما بين الخامسة والسادسة فيبدأ مزاجها بالتّعكر، ويصيبها القلق والعصبية والهلع. كنت فور عودتي من المدرسة أهرع لأتحقّق من أن كلّ شيءٍ في البيت على أحسن ما يكون؛ لا غبار، لا نسيج عنكبوت، ولا عنكبوت على مرمى النّظر، الطّعام ممتاز، المنزل لا تفوح منه رائحة الطّعام ذاته. عند السابعة إلا عشر دقائق قد تكون في أقسى حالاتها أو ألطفها، اعتمادًا على مزاج زوجها. لم تكن قاسيةً إلّا عندما يثير زوجها غضبها، وتلك مرّاتٌ كثيرة. وكان تعامله معها يشبه تلك المرّة التي أخذ فيها إيكينا يشغل الضّوء على الحائط ثم يتّجه إلى فراشه ويطفئه من المفتاح الآخر ثم يعود راكضًا ليفعل الشّيء نفسه مرارًا. يشغّل، يطفئ، يشغّل، يطفئ.

كنت أؤدي عملي على أحسن وجهٍ ممكن؛ لا لأنّه كان مطلوبًا مني ذلك فحسب، بل لأنني أشفق على السيدة؛ فزوجها يقتفي أثر الغبار تحت رفوف الكتب، والشّعرة في الأمشاط، ونتف الطعام بين أسنانها، ثم ينفجر في وجهها ما إن يجد شيئًا.

رغم ذلك، تبذل السيدة كل ما في وسعها لإسعاد زوجها. تدخل في بعض الأحيان إلى المطبخ وتبكي بهدوءٍ بعد شجارٍ ثقيل الوطأة.

"أنا آسفة، يا سيدتي." قلتُ لها عندما حدث ذلك أوّل مرّة.

رفعت رأسها ونظرت إليّ بازدراء شديد فعرفت أنّي تجاوزت حدودي. صرت بعد ذلك ألتزم الصمت وأنحّي بصري، تمامًا كما تفعل جميع الخادمات حين يرين الأزواج يضربون زوجاتهم أو يحضرون نساءً إلى البيت في غيابهن.

كان في وسعي إخبارها أن زوجها يحبّ البيت النظيف أكثر من حبّه لأيّ امرأة، لكن ذلك لم يكن من شأني. لطالما اعتقدت أن القلق سيهرمها أكثر من أيّ شيءٍ آخر، قلق أنها لم تكن جيّدةً بما يكفي أو على الأقل ليست على قدر توقعات زوجها. كانت تصرخ في وجهه أيضًا، لكنه كان يفوقها مهارةً في الإزعاج. عندما كانت تنقلبُ علي، أعلم أنها لم تكن في حاجة سوى لمتنفّسٍ لغضبها، وقد رضيتُ بأن أكون لها ذلك المتنفّس؛ فقد أرسلوني إلى المدرسة، وأحسنوا إطعامي، ، والسيدة تتكلم معي بلطفٍ عندما لم لا يصبّ زوجها إزعاجه عليها ويكون إيكينا مبتهجًا.

كان إيكينا في الخامسة حين انتقلت للعيش معهم، وكانت خبرتي في التعامل مع أخي وأختي من أبي مفيدةً لي هناك؛ فقد صرتُ الشخص الذي يناديه حين يرى أحلامًا مزعجة، فتهرعُالسيدة إلى غرفتي خلف البيت. كنت أيضًا الشخص الوحيد الذي يستطيع إطعامه حين تصيبه الحمى بسبب الملاريا. كانت أمه المنهكة تسلّمه لي بكلّ سرورٍ ثم تمضي لتحومَ حولي؛ لعلّها لم تكن تريد أن تبدو عديمة الفائدة.

درّبت إيكينا على استخدام مبولة الأطفال. سأحسب بعد مضيّ سنواتٍ أنه ربما كان ذلك السبب الذي لأجله أبقاني السيد في العمل: لا لشيء إلّا لأجل تدريب ابنه على استخدام المبولة. كان من المعروف عن السيد في أرجاء الحي جميعها ميله لطرد الخادمات، لربما كان عاجزًا عن التوقف عن عادته في الحصول على ستّ، أو ربما عشر خادمات كلّ عام، ثم يجدهنّ غير قادرات على

الارتقاء لمعاييره التعجيزيّة، ثم يمضي في إعادتهن إلى قراهنّ، أحيانًا بعد يومٍ واحدٍ فقط. يُشاع أنه مرّةً أعاد خادمةً خلال ساعات: قال إنها سمينة، وتتعرّق كثيرًا، وتصدر منها رائحةٌ مزعجة.

رفض إيكينا جميع محاولات تدريبه على استخدام مبولة الأطفال. كان حينذاك في الخامسة ومع ذلك فضّل أن يقضي حاجته في سرواله على أن يقضيها في أيّ مرحاض، أينما كان ومهما كان نظيفًا. ذات مرّة، لاحظ والده أنه يرغب في قضاء حاجته فأرسله إلى غرفته. وهناك، وقف إيكينا بجانب المرحاض وتغوّط في سرواله. لاحقًا ذلك اليوم وجدت السيد ينظف المرحاض في غرفة الصّبي. رفع نظره نحوي ثم عاود تنظيف المرحاض الذي نظفته في الصباح، وكانت الفرشاة في يده تحتكّ بشدة بالحوض الأبيض كما لو أنه يريد أن يعاقبني. أشحتُ وجهي وقلبي يرتجف. لقد نظّفته هذا الصباح، كنت أريد أن أقول له ذلك. لكن السيدة قالت إن السيد يريد أن يتأكد من أن إيكينا لم يكن يتجنّب المرحاض لأنّه قذر.

لم يُجد أيّ شيءٍ نفعًا، لا الضرب بالعصا، ولا المكافآت، ولا التّهديد. حتى أساتذته سئموا، وطلبوا من والديه أن يضعا له الحفاض، وهو ما يعتبره آباء الأطفال في مثل هذا السن دليلًا على أن ابنهم غير طبيعيّ، أو على أنهم فشلوا في دور الأبوة. هكذا كان الحال، حتى أتيت، وبدأتُ بتقديم حكايةٍ خياليّةٍ مقابل كلّ مرّة يجد فيها البول طريقه إلى حوض الحمام.

كان إيكينا عندما يصير أبوه في مزاجه المهووس بالكمال ويشرع في البحث عن النمل تحت أصص الزّهر يأتي إليّ في المطبخ حيث أقصّ عليه الحكايات الخيالية عن الماعز والسلحفاة، وعن السنجاب الذي كانت أمه الحكيمة تخبئ الطعام في السماء استعدادًا للمجاعة، وحكايته المفضلة التي تجد

فيها السلحفاة سبيلًا لأكل وعاءٍ كبيرٍ من الفلفل الحار دون توقف بالتّحايل على ضيوفها ليسمحوا لها بالغناء وهي تأكل. حين أدركت كم يحب إيكينا حكاياتي، بدأت أصرّ عليه أن يقضي حاجته في مقابل الحصول على حكاية. وحيث لم تفلح معه لا المكافآت ولا الضّرب ولا الملاطفة، نجحت مقايضة الحكايات بالتبوّل.

كان والداه ممتنّين لي، وجعلني السيد أبقى.

يبدو أن إيكينا هو الشّخص الوحيد في ذلك المنزل القادر على ألا يجعل التّوتر بين والديه يزعجه. كان قادرًا على البوح بكلّ ما يجول بخاطره بطريقةٍ لا يقدر عليها سوى الأطفال.

"كيف تكونين أعلى منّي بصفٍّ واحد رغم أنك أكبر منّي بكثير؟" سألني ذات مرّة.

أخبرته أنّي انقطعت عن الدراسة لفتراتٍ متعدّدة وشرحت أسباب ذلك.

"ولكن لماذا لم ترسلك زوجة أبيك إلى المدرسة؟"

شرحتُ له أنه لم نكن نملك مالًا.

"لماذا لم يكن لديكم المال؟"

أسئلته لا تنتهي، يطرحها ببراءةٍ دون تصوّرات مسبقة، بدافع الفضول فحسب. كل ما أراد معرفته هو لماذا عالمي مختلفٌ عن عالمه. وعجزتُ عن إعطائه إجاباتٍ منطقيّةٍ لأنّني أنا نفسي لا أعلمها.

كان صبيًّا ذكيًّا ونبيهًا. وقادرًا على القراءة قبل أن يصبح في الرّابعة. ولكي أواكب تقدّمه في القراءة وأن أقرأ له كل ما يضعه بين يدي كلّما سنحت له فرصة، أصبحتُ أكثر طلاقة. التحق بمدرسةٍ ذات مستوى عالٍ، أعلى من مدرستي، وغالبًا ما يعود إلى البيت ومعه كتبٌ يريدني أن أقرأها له عندما

تضجرُ أمّه من إلحاحه.

تحسّنت في القراءة، بدا ذلك على نحوٍ مطّرد، وكنت أتفوق في صفّي في المدرسة كلّ فصل. ولأنّ مدرستي بعد الظهر، فقد كان الصف مليئًا بعمّال المنازل والخادمات، ومعظمهم دخل الابتدائية في سنٍّ متأخرةٍ، مثلي. ورغم ذلك فقد حازت درجاتي ومثابرتي على إعجاب السيدة، واقترحت على السيد إرسالي إلى مدرسة التّجارة المجاورة لإتمام الدراسة.

أما السّيد فلم تعجبه درجاتي بقدر ما كان معجبًا بقدرتي على حبس دموعي وأنا أنظّف غرفة الجلوس على عدد ما يرغب من المرّات، لكنه وافق.

أحسست بالسعادة. كنتُ أعلم أنني لن أصبح ممرضةً أو مدرّسةً كما تمنّى أبي، لكنني كنت متيقنة أنه سيسعدُ لأنني سأذهب إلى المدرسة، وقد أُصبح عاملةً على الآلة الكاتبة، أو حتى سكرتيرة - كما سمعت السيدة تقول لزوجها. كان دربي يبدو أكثر وضوحًا.

رضيتُ بنصيبي في الحياة. لم يمت أحدٌ من أهل البيت - كما تنبأت أم نكيمديليم عندما غادرت إلى إنوغو - كنت أنظف وأفرك وأمسح وأزيل الغبار وأدرّب على استخدام المبولة، وبدا كلّ شيءٍ على ما يرام، ما عدا أن السيدة لم تكن قادرةً على إنجاب طفلٍ آخر، وتذهب من مستشفى لمستشفى دون جدوى. كان السيد يلقي اللوم على زوجته، واعتقدتُ لو أنّه يكفّ عن مضايقتها حول كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ولو لشهرين فقط، لأصبحت حظوظها أفضل. فحتى أنا كنت أعلم أنّ التّوتر لا يساعد على الحمل.

كانت تشيدينما رفيقةً لي من الحي، تقطن في البيت رقم 16 - خادمة مثلي - نسير إلى المدرسة سويًّا، أنا بهيئتي الطويلة والنحيلة، وهي ببنيتها الضئيلة والممتلئة. وفي المدرسة كنا نتشارك في كلّ شيء؛ نجلس على المقعد المزدوج ذاته،

ونثرثر سويًّا أثناء وقت الفسحة. لا نفترق، تمامًا مثل طرفي المقص. كانت في مثل سنّي، لكنها أشدّ اعتدادًا بنفسها منّي؛ فقد عاشت في الحي لوقتٍ أطول، ولذلك تعتقد أنها تعرف أكثر. أما أنا فرأيت أن أتركها لاعتقادها ذاك.

"أرجوك تعالي إلى خلف البيت،" كنت أتوسّل إلى تشيدينما. كانت تحب أن تعبث بأزرار التلفاز الكبير في غرفة الجلوس وهي تحاول تشغيله.

"ألم تقولي إن السّيد مسافر؟" سألتني متجاهلةً توسّلي إليها. كانت معتادة على مشاهدة التلفاز في بيتها وغالبًا ما تساءلت لم لا يسمح لي ذلك. لم يقل أحدٌ إنّ ذلك ممنوع، لكنني علمتُ أنه من الأفضل ألّا أفعل ذلك. فبصمات أصابعي على أزرار التلفاز وحدها كفيلة في أن تجعل السيد يجن.

استطعت أن أجرّ تشيدينما إلى المطبخ. وبأفضل ما يمكنها تقليد صوت ذكوري أمرتني "أعطني كأسًا جافة" وضحكنا.

كان السيد مسافرًا إلى الخارج. قالت السيدة إنّه ذهب إلى لندن، قالتها مبتسمةً، وفي عينيها بريقٌ غريب. وطوال اليومين الماضيين، لم تكن السيدة بتلك السعادة أثناء السنوات الأربع التي عشت فيها معهم. سألتني الكثير من الأسئلة عن أم نكيمديليم ونوكينتا أكثر مما سألتني في المقابلة الأولى. تنشّقتُ الحرية مع هواء البيت وأنا أؤدي أعمالي، متوقّفةً من حين لآخر لأستنشق المزيد

بعدما شربت تشيدينما الماء من كأسٍ جافة، رحنا نأكل البطاطس الحلوة والخضروات التي طهوتها الليلة الفائتة ونغمس أصابعنا في الصّحون حتى لم يبق فيها أثرٌ للطعام. ثم شرعنا بعد إصراري نكتب واجباتنا المدرسيّة. جلست على أرضية المطبخ، ووضعت أمامي مقعدًا صغيرًا لأستند إليه بدلًا من الطاولة. جلست تشيدينما إلى جانبي صامتةً لا تفعل شيئًا ولا تلهيني، فقط جالسة بهدوء. انتظرتني لأنتهي حتى تنسخ ما كتبته في دفترها، خطّها أشبه بخنجلة

الدجاجة وهي تصول وتجول بحثًا عن الطعام.

كان الواجب المنزلي هو جدول الضرب. ضرب عشرة، ضرب أحد عشر، ضرب اثنا عشر. فكّرت أنّ الغناء قد يساعد في الحفظ.

بدأت بجدول العشرة لأنه الأسهل. "عشرة ضرب واحد، عشرة؛ عشرة ضرب اثنان، عشرون؛ عشرة ضرب ثلاثة، ثلاثون." توقفت تشيدينما عند العدد أحد عشر، ورفضت الاستمرار في المحاولة.

كان رأس تشيدينما غلقًا؛ هكذا تصفه. "إنه مثل كتلة إسمنتية، لا أستوعب شيئًا كلّما حاولت أن أفهم ذاك الذي في الكتب،" ثم تضحك دون خجل. لم تجد المعرفة لها طريقًا إلى رأسها. كنت أستطيع أن أتعلم من الكتب التي يحضرها إيكينا معه إلى البيت، لكنها بدت عاجزة. قائلةً إنه لا فائدة من ذلك، كلّما حاولتُ أن أبسّط لها الأمور قدر استطاعتي - لكنّ عقلها مثل كتلة من الإسمنت - كانت تقول، "رأسي طافحٌ بالحسّ السّليم، لا يتّسع لمعرفة الكتب." لم تتحسّر أبدًا على افتقادها القدرات المعرفيّة أو تحسدني على مقدراتي. كانت تتطلّع لإنهاء المدرسة والبدء في تعلم حرفة الخياطة.

"هممم، لا أعلم كيف ستصبحين خيّاطة وأنت لا تعرفين كيف تقيسين أو تحسبين أموالك." قلت لها ذلك محاولةً أن أحثها على المحاولة.

توجّب عليّ أن أدعها وشأنها؛ فتشيدينما لم تهتم لذلك. ضحكت ضحكةً من أعماق قلبها، وغمازات وجهها تغور عميقًا في وجنتيها.

قالت لي: "لا تقلقي، لا تقلقي ستحسبين أنتِ أموالي وسأدفع لك."

"لا." وقفت بحزم: "سأكون سكرتيرةً في مكتبٍ كبير، وأرتدي ثيابًا جاهزة. سترين."

"آه، سكرتيرة؟ حسنًا، بعد أن تفوزي بلقب ملكة جمال نيجيريا، أيّتها

الحسناء السمراء. ستمشين شبه عارية في ذلك الشيء الذي يرتدونه." قالت مشيرةً إلى ثوب السباحة المؤلف من قطعةٍ واحدة. وقفت تستعرض المشهد وهي تمشي كما لو أنها كانت ترتدي كعبًا عاليًا. كانت هيئتها البدينة بأردافها البارزة على نحوٍ مضحك أظرف ما رأته عيناي.

وعلى عكس صديقتي، حافظتُ على رشاقتي، لا بسبب الجوع؛ إذ كنت أحصل على ما يكفي من الطعام ولو كنت أعمل حتى النخاع. قدري أن أصبح طويلةً مثل أبي وأمي.

حين انتهيت من الضحك قلت لها: "أتعلمين أنَّ أورينا سمعك تنادينني بهذا اللقب ذات مرّة؟ الآن أصبح يناديني "الحسناء السّمراء".

"إيه." قالت بفتور ظاهر.

"نعم." قلتُ لها بطيشٍ دون أن أبالي بشيء، مستغلّة كلّ فرصةٍ للتّحدث عن ابن أولياء نعمتها. كانت تشيدينما ترى إعجابي بأورينا ضربًا من الجنون، فهو الابن الوحيد لوالده، وطالبٌ جامعيٌّ يكبرني بعامين. لم يكن في مقدورها أن تراه كما أراهُ أنا. بالنسبة لها كان مجرّد عمل، أما بالنسبة لي فكان العالم بأسره.

"وهل تردّين عليه حين يناديكِ بذلك؟" وكانت عيناها حينها مثبّتتان على الكتب التي تركناها على الأرض.

أجبتها: "لا"، وفي نبرتي كنتُ أقول نعم وأقرصها في ذراعها وأنا أحاول أن أستعيدَ المزاج اللّطيف السائد منذ لحظات، لكنه اختفى ولم يبدُ عائدًا أبدًا.

قالت وهي تجمع كتبها: "تأخّر الوقت." ثم أردفت: "ستعود الطفلتان بعد قليل. دعيني أذهب وأحضّر الغداء لهما." كانت الطفلتان هما أوغوما وجيدي، أختيّ أورينا الصغيرتين.

سرتُ معها نحو البوابة وودّعتها، فابتسمت لي، لكن ابتسامتها لم تعد عفوية، ثم قالت لي وهي تغادر: "لاقِني عندما تتجهزين للمدرسة.".

غالبًا ما كنت أُنهي أعمالي المنزلية وأتهيّأ للمدرسة قبلها، ثم أنزل الشارع وأتّجه إلى بيتها وأنتظرها هناك حتى نتجه سويًّا إلى المدرسة. كان عليها أن تجهّز الغداء للأولاد ثم تنتظر معلّمهم الخصوصي قبل أن تتّجه إلى المدرسة. أما إيكينا الذي أعتني به فيبقى في بيت مدير مدرسته حتى تأتي أمّه وتقلّه في المساء، ما يجعل مساءاتي أكثر رحابة من مساءات تشيدينما.

راقبتها من الخلف وهي تدخل بيتها رقم 16 وأردافها تتأرجح، وفكّرت أن من المحزن خسارة صداقتها؛ فقد كانت صداقتنا هي ما أفضت إلى معرفتي بأورينا.

الفصل الثالث

التقيتُ بأورينا في شهر سبتمبر. كنت وقتها في الصف السادس الابتدائي. وقد أتممت ستة عشر عامًا ودخلت في عامي السابع عشر.

ذهبت في ذلك المساء لأتفقّد تشيدينما؛ إذ إنها لم تأت إلى المدرسة يومذاك وقرّرتُ أن أمرّ بمنزلها في طريق عودتي. رجوتُ ألا تنزعج السيدة لو تأخّرت بضع دقائق، بيد أنني كنت مستعدّةً للمخاطرة بذلك. لم تكن من عادة تشيدينما التّغيب عن المدرسة مع أنها لم تكن تستوعب كلّ ما تشرحه المعلمة. كانت تحب لعب الأوغا في أوقات الاستراحة ومضايقة الأولاد في الصّف. فعلى النّقيض مني، ليست خجولةً وتبدو رفيقةً للجميع.

فتح أورينا لي الباب. كانت تشيدينما قد تحدّثت عنه من قبل ورأيتهُ في الصّور التي يعلّقها والداه في مكانٍ بارزٍ في غرفة الجلوس. كان وقتذاك في مدرسةٍ داخليّة، أمّا حينها فقد كان طالبًا في الجامعة ويعود إلى البيت في فتراتٍ متباعدة. كان شابًّا متوسط البنية، فاتح البشرة، له عينان تجعلك تشعرين أنها تلاطفانك بمجرد أن تقعا عليك. ارتدى زيًّا إفريقيًّا؛ قميصًا أزرقَ ذا أكمام طويلةٍ وضيّقةٍ وأزرارٍ مفكوكةٍ من عنقه حتى منتصف صدره، من الطراز الذي يرتديه مغني أغنية زومبي. اسمه فيلا كوتي ولم يكن يعجب السيد، مع أن موسيقاه جميلة. اشترت السيدة الأسطوانة ولم تشغّلها إلا في غياب السيد لأنّه يصفه بـ"المتمرد" و"الثوري"، وأيًّا يكن متمردًا أو ثوريًّا فإنه يبغضه.

كان صوت أورينا رخيمًا ولطيفًا وهو يردّ بـ"كيدو؟[5]" على "مساء النور"

(5) (Kedu) تعني "ماذا" بلغة الإيبو.

التي قلتها في تردّد. أمال رأسه نحوي في تساؤل، ولا أذكر من تلك اللحظة سوى دماثته وصوته الرّخيم. هززت نفسي لأستفيق من تلك السّطوة العذبة التي داهمت حواسي، وذكّرت نفسي لمَ كنت هناك.

"أبحث عن تشيدينما. نذهب سويّةً إلى المدرسة." فقد أردت أن أعرف ما إذا كانت على ما يرام، وكنت أرجو أن أوضح ذلك، لكن لساني عجز عن التّحرك طاعةً لأفكاري.

"تشيدينما ليست على ما يرام. لكن أستطيع أن أبلغها برسالتك. من أخبرها؟" نظر إليّ متسائلًا.

أردت أن أقول له إنّه لا يعرفني لكنني أعرفه، أنّ تشيدينما كانت تذكر اسمه في أحاديثنا. أردت القول إنّي لم أره من قبل لكن كلّ ما في داخلي يشعر أنه يعرفه منذ أن جئت إلى هذه الدنيا.

كان لساني أذكى من قلبي المرتجف ونطق اسمي ببساطة.

"نوابولو،" قال مردّدًا كما لو أنه أراد التأكّد من لفظه على نحوٍ صحيح. "هي ليست على ما يرام،" كرّر. "لكنني سأخبرها أنّك أتيتِ."

تلك الليلة تمدّدت في فراشي ورحت أفكر في لقائه مجدّدًا. أحببتُ صوت اسمي وهو يخرج من بين شفتيه. ثم رأيتني أتعجّب من سذاجتي وهززت جسدي قليلًا لطرد تلك الأفكار؛ فالخيالات وأحلام اليقظة لا تأخذك سوى للوهم. ومع ذلك حسدتُ تشيدينما لأنها تراه كثيرًا.

بعد يومين، عادت تشيدينما إلى المدرسة. قالت إن الملاريا هي أسوأ ما أصابها في الحياة، فالحمى تضاهي في حرارتها الصحراء الكبرى التي علّمنا عنها السيد إيبي، أستاذ الدراسات الاجتماعية. ورغم أن صديقتي تحب المبالغة والأجواء الدرامية، إلّا أنها فقدت في غضون أربعة أيامٍ فقط الكثير

من الوزن حتى كادت تبدو بمثل نحولي. همست لي بينما كنت أتحسّس رأسها وعنقها بيديّ بأن أورينا أرادها أن توصل إليّ تحيةً منه. لقد تذكّرني - رحتُ أفكّر - ولا بدّ أن وجهي كشف ما يدور في خاطري لأن تشيدينما نظرت حينها إليّ في تعجب، ثم ضحكت وشرعت تغيظني لاهتمامي بابن أرباب عملها.

"يا للحب!" ضحكت وهي تدقّ كتفي الذي تعلوه أزرارٌ زرقاء.

تظاهرت بدايةً أني لم أعلم عمّ تتحدث. بعد ذلك ضحكت؛ فقد كنا نحن الاثنتين نعلم أنه كودساك[6] ، مثل الشارع الذي تتربع فيه مدرستنا، على حدّ تعبير المعلمة.

كانت الأمور ستسير كما هي عليه على الدوام - أؤدي أعمالي، أذهب إلى المدرسة، أثرثر، أنام، أستيقظ، أفعلُ كل ذلك مجدّدًا - لو لم أصادف أورينا في السوق بعد بضعة أشهر. فقد ذهبت إلى أباكا لشراء بعض الطعام للسيدة. وبينما أغالب دجاجة تخبط وتقرقر وترفرف جناحيها كما لو أدركَت أنها ستزيّن بأجزائها ذلك المساء قدرًا زكيّ الرائحة من حساء الطماطم - لم يكن ذلك بالوضع المثالي للقاءٍ من تعجبين به - لمس أحدهم كتفي. توقّعت أن يكون أحد التجار يحاول بيعي بضاعةً ما، فهيّأت له لساني السّليط. ألم يروا أن تلك الدجاجة تحاول الهروب من قبضتي؟

التفتُّ خلفي فوجدت أورينا. أورينا! صحتُ صيحةً مكتومةً.

"هل ستذهبين إلى البيت؟" سألني.

نظرتُ إليه برهةً مثل الحمقاء وقد نضبت منّي كلّ مفردات اللغة.

"هل ترغبين في أن أقلّك؟" قال لي وهو يرقب وجهي الذي لم يردّ بشيء.

(6) (cul-de-sac) تعني طريقًا مسدودًا بلغة الإيبو.

ثم أخيرًا وجدتُ صوتي. "نعم."

جاهدتُ لأرتّب ما يعتمل في داخلي، وسألت نفسي ليلة ذلك اليوم: كيف تجرّأت أن أجيبه نعم؟ كيف أجبتهُ نعم دون التفكير في أن السيدة قد تراني في سيارته وتسألني لماذا رافقته وقد أعطتني النّقود لأركب الحافلة؟

ركبتُ في السيارة.

قال: "جئت لأجلب بعض غالونات الزّيت لأمي."

"حسنًا." أجبت. لم يخطر في بالي جوابٌ غير ذلك.

"رأيت الدجاجة تحاول الإفلات منكِ ففكّرت أن عليّ أن أعرض توصيلك قبل أن تفرّ منك." ابتسم، ولم أستطيع أن أتبيّن ما إذا كان يمازحني.

لا أذكر عمّ تحدثنا أيضًا. كانت أشياءٌ كثيرةٌ تداهم حواسي دفعةً واحدة، فأنا لم أجلس في سيارةٍ جميلةٍ إلّا فيما ندر.

كنت في بعض الأحيان أرافق السيد والسيدة وإيكينا إلى الكنيسة، لكن ذلك قلّما يحدث؛ إذ كانوا إنجيليين أما أنا فكاثوليكية. في أغلب الأوقات أذهب إلى السوق سيرًا أو في الحافلة، أمّا أن أستقل سيارة فولفو جديدة فذلك أمرٌ نادر الحدوث.

كان قربه مني، ورائحة الطّيب الذي يضعه على جسمه قد أخذا منّي الحكمة والذاكرة. لا بد أنني أجبتُ على أسئلته بآليّة، بيد أنّي لا بدّ قلت شيئًا ترك فيه انطباعًا. فقد بدأ يرسل إليّ الرسائل مغلفةً في ظرفٍ بنّيٍ مع تشيدينما. والكتب أيضًا. لا بدّ أني ذكرتُ شيئًا عن حبّي للكتب.

لم تكن رسائله تبوح بأيّ شيءٍ جدّيٍّ في البداية. قلت ذلك لتشيدينما لكنها أرادت أن ترى بنفسها فأريتها إيّاها. تقول الرسالة الأولى:

كيف حالك؟ أرجو أن تكون المدرسة على ما يرام. سررتُ بلقائك في السوق.
أورينا

هكذا كانت. قصيرة. لم تفد بالشّيء الكثير. كان خطه يميل في اتجاهٍ واحدٍ كما لو أن الرّيح تحاول بعثرةَ كلماته على الأرض. ومع ذلك فإنها تجعلني أطير من الغبطة.

كنت دومًا ما أكتب له بعناية وحروف متّصلة تلتصق ببعضها في المكان الصحيح - تعلقُ أطراف حروفي ببعضها بعضًا في وسط الكلمة بشيءٍ من الانسجام. دسست رسالتي في الظّرف الذي أرسله إليّ. قالت رسالتي الأولى:

أنا بخير. أرجو أن تكون أنت أيضًا بخير. المدرسة جيّدة. شكرًا.

"على ماذا تشكرينه؟" سألتني تشيدينما. مغتاظةً من جعلها تؤدّي دور المرسال. قالت إنني أتصرّف بحماقة. عرفتُ أنها محقّة، لكنني كنتُ سعيدة بحماقتي.

قالت محذّرة: "انتظري حتى تجد السيدة إحدى تلك الرسائل، سترين حينها ما الذي سيحصل". أخذتُ تحذيرها جدّيًا وبدأت أخفي الرسائل تحت فراشي. رسالة أخرى تقول:

أفتقدك. هل يمكننا أن نلتقي ثانية؟ بكلّ صبابة، أورينا

"ماذا الذي تعنيه (صبابة)؟" سألتني تشيدينما وهي تحاول بصعوبة تهجئة

الكلمة. لم يبدُ عليها أيّ تأثر. اعتقدت أنها كانت تعني "إعجاب" أو ما شابه. قلت لها ذلك فلوَت شفتيها باستهزاء. في اليوم التالي عندما خرج الجميع، بحثتُ عن معنى كلمة (صبابة) في المعجم، أحد الكتب ذات الغلاف السميك في غرفة الجلوس. شعرت أنّي أحلّق فوق الغمام على إثر ذلك. لكن أحدًا لم يلاحظ شيئًا سوى تشيدينما. ولم تكن تستحسن ما يجري.

فسألتني: "يريدُ أن يلتقي بك من أجل ماذا؟"

لم أصغِ إلى شكوكها. انشغلتُ بترتيب أفكاري لتدبير الأمر.

في البداية كنا نلتقي لفترات قصيرة جدًّا بعد المدرسة. التصقَ لساني في أول مرّة بسقف حلقي ولم أستطع النّطق إلّا بإجاباتٍ مقتضبةٍ عن أسئلته حول المدرسة والمعلّمين. لم يسأل عن الأشخاص الذين أعمل لديهم - السيد والسيدة - وأنا بدوري لم أقل عنهما شيئًا يذكر.

كان يلتقي بي خارج المدرسة في المساء بعد انتهاء الدّروس. وكان من المحرج أن أسير إلى جانبه، بينما تشيدينما تسير في الجانب الآخر من الطريق. تصرّف كلاهما كما لو أنهما لم يرقدا ويصحوا في نفس البيت.

"عمّ يحدّثك؟" كانت تشيدينما تسأل.

"لا شيء يذكر." أجيبها. "يسألني عن المدرسة والمعلمين وعن المواد الدراسية."

"تعلمين أنّ الآخرين" قالت مشيرةً إلى بقيّة التلاميذ، "سيلاحظون عاجلًا أم آجلًا. هممم، أبعدي يديّ القرد عن الحساء قبل أن تبدو مثل يديّ البشر،" اقتبست مثلًا من الإيبو. وبمنخرين ملأهما الاشمئزاز سألتني إن كنتُ قد نظرتُ إلى وجهي في المرآة مؤخّرًا، كما لو أنني كنتُ أفعل شيئاً سوى ذلك! لقد أردت أن أرى ما رآه حين نظر إليّ. وفجأة، انتابني الشّك حول جمالي - ذاك الذي

أورثته لي أمي - ولم أرَ إلّا رأسي الكبير الذي كان جسدي ينمو تحته محاولًا خلق التوازن ما بينهما. ورأيت نهديّ اللّذين كانا أصغر مما يفترض أن يكونا عليه لفتاة في السادسة عشر، وأصغر من نهديّ تشيدينما. وتساءلت ما إذا كنت أشبه بفتى.

لكن لا بدّ أن أورينا رأى خلاف ذلك؛ فقد أرسل لي ذات يوم رسالةً يقترح فيها أن نلتقي في مكان أكثر خصوصيّة. أتممت أعمالي المنزلية يومذاك وقلبي يخفق بقوة، وشفتاي ويداي ترتجفان ترقبًا لما سيأتي.

خرجت ذلك اليوم باكرًا من المدرسة. التقينا في بناءٍ لم يكتمل إكساؤه بعد؛ فقد مات صاحبه قبل سنة، بُعيد بدئه بناء البيت. أشيع وقتها أن الرجل كان ينتمي إلى جماعة منحته الثروة شريطة أن يموت قبل الانتهاء من البناء. ورغم أنَّ زوجة أبي كان تنعتني بـ(أموسو)، الساحرة، خشيتُ الأشباح والسحر والمشعوذين من أيّ عرقٍ أو لون. أما مع أورينا، فلم يهمني أيٌّ من ذلك. كان المكان مثاليًا للقاء؛ لأنّ الخوف يبعد الناس عن البناء، ولم يكن بعيدًا من شارعنا، فبات من السهل عليّ العودة إلى البيت سريعًا.

في اليوم الأول، مدّ ملاءة على عتبة نافذةٍ مليئةٍ بالغبار وطلب مني الجلوس. وقف قبالتي وابتسم لي. لخجلي، أخفضت رأسي نحو الأرض، فرفعه من ذقني بطرف إصبعه.

"أخيرًا" قال، "ها نحن وحدنا."

"نعم." كان كل ما استطعت أن أهمس به.

قبّلني ولسانه يباعد بلطفٍ شفتيّ اللتين لم تظهرا أي مقاومة. كان في فمه طعم السجائر. لم يقبّلني أحدٌ قبل ذلك، لذا لم أكن أعلم ما عليّ فعله، فتركته يُريني.

لم نفعل شيئًا يذكر يومها. إذ ابتعد عنّي وبدأ يسألني عن عملي.

"هل يعجبك العمل في منزل السيدة أوبيديغو؟"

"لا بأس." قلتُ وأنا أبتسم وأشيح بوجهي. كنت خادمة. كان ابن البيت. كيف له أن يعلم ماذا يعني أن يعمل المرء في مكانٍ ويعيش وينام فيه ورغم ذلك لا يكون بيته. كيف له أن يعلم؟ حتى أنا لم أستطع التّعبير بالكلمات. كانت تشيدينما تقول إنّه مدلّلٌ ويترك ملابسه مبعثرةً هنا وهناك على أرض غرفته. لم يبدُ مدللًا بالنسبة لي. بدا ناضجًا. لكن مع ذلك ليس له أن يعرف ما يعني أن يخدم المرء في بيت.

"وهل تعودين إلى قريتك في بعض الأحيان؟" سألني.

كان ذلك الموضوع مزعجًا لي، أم نكيمديليم وبقية عائلتي. لم أذهب إلى القرية في السنوات الأربع التي عشت فيها مع السيد والسيدة. كان ذلك خياري منذ أن قالوا إنه يمكنني الذهاب إلى موطني في عيد الفصح، لا في عيد الميلاد على الإطلاق. فضّلت البقاء وبدا أن قراري سرّهما. سمعت السيد يقول مرة للسيدة: "من الأفضل ألا تذهب. فهم ينسون كلّ شيء تعلموه في المدينة بعد بضعة أيام فقط يقضونها في قراهم."

"لا." قلت وأنا أتمنى ألّا يستمر أورينا في أسئلته.

لكنه لم يفعل. بدلًا من ذلك راح يتكلم عن الجامعة وعن سروره لابتعاده عن رقابة أهله رغم أنه يسرّ أيضًا عندما يعود إلى البيت في العطل ويمضي الوقت معي. قبّلني أكثر هذه المرّة وهو يضغط نفسه على جسدي. وبدأت يداه تتلمسان سترتي، فشعرت بالجزع. تذكّرت أبا إيما في لاغوس وجسده الضخم الذي كان يلقي به عليّ وهو يأتي بأفعالٍ موجعةٍ لي. دفعت صدر أورينا فتوقّف. بدا محتارًا. صلّيت ألا يكون قد غضب مني، لكنه لم يبدُ كذلك. ابتسم لي.

"لا تقلقي،" قال. "سنحظى بالمزيد من الوقت."

أردت أن أشرح له أنّ الذّنب لم يكن ذنبه، أنّ المشكلة فيّ أنا. لا ليس فيّ أنا. إنه أبو إيما في لاغوس. ارتبكت. هززت رأسي وقلت، "عليّ أن أذهب."

"أوه، الآن؟ لم نكد نمضي ما يكفي من الوقت سويًا. حسنًا. لا عليكِ. سنرى بعضنا مرّةً ثانية. ربما بعد يومين؟"

أومأت برأسي موافقة. طلب مني أن أغادر أولًا ثم يتبعني هو. مضيت في طريقي وأنا مخبولة بالحماسة حتى وقفت أمام بوابة البيت رقم 9، حينذاك عدتُ إلى الواقع، تدرّبت على كذباتي، ودخلت.

كنت ألعب بالنار، هذا ما كنت أفعله. حذّرتني تشيدينما. ذكّرتني بتهديدات السّيدتين اللّتين نخدمهما. حين أعطتني السيدة فوطي الصحية كانت تقول، بأسلوبٍ يحمل بعضًا من التهديد، "هذه إنوغو. الرجال هنا لهم لسانٌ يقطر عسلًا، إذا فتحتِ فخذيك لأيٍّ منهم وعدتِ لي ببطنٍ منتفخةٍ، فسأضع الفلفل بين هذين الفخذين وأضعك في صندوقٍ مثل سمكة وأرسلك إلى أهلك."

"لم تحمل فتاةٌ في بيتي يومًا، أتسمعين؟" كانت تشدّد ويداها تمسكان بطرفيّ أذنيها توكيدًا على نسختها لتنظيم الأسرة. استلقيت في فراشي تلك الليلة ورحت أصلي لمريم العذراء ألّا أقع في المشاكل، بيد أنني علمتُ أن لا قدرة لي على قول لا لأورينا، وأني لم أرد امتلاك تلك القدرة.

***

استغرق الأمر أسبوعين قبل أن أستسلم. وعندها لم تنطفئ ناري بل اضطرمت كما لو كانت في موسم رياح الهرمتان.

"ستكونين بخير." قال بعد أن جعلني أتمدّد على الأرض. لم يكن الوضع

مريحًا لكنّني كدت لا أشعر بذلك. كان أورينا لطيفًا... كان مقنعًا.

"ستكونين بخير." قال مكررًا وهو ينزع عنّي سروالي الدّاخلي.

"ستكونين بخير. أعدك ألا أفرغه في داخلك." قال وهو يغرز عضوه داخل عضوي الذي كان رغم رطوبته غير مستعدٍّ للأمر.

وقد كنت بخير. كنتُ في أحسن حال. كانت تشيدينما تتذمّر من طيشٍ لم تره فيّ من قبل، والسيدة من كسلٍ لم تعهده. قال السيد إن على السيدة أن تبقي عينيها عليّ، لأن مهاراتي في التّنظيف قد تراجعت في الآونة الأخيرة.

كنت في تلك اللقاءات السرية القصيرة أمتّع ناظريّ بجمال أورينا. في قريتنا، وحدهن النساء يوصفن بالجمال الذي أجده في أورينا، نساء ذات خدود مدورة وناعمة وأجسام لحيمة تأسر الرجل بجمالها. لكنني هكذا كنت أرى أورينا، أراه جميلًا إلى هذا الحد، ببنيته النحيلة، وهيئته الإفريقية الأنيقة. كان أنفه مستدقًّ، لا كأنفي المفلطح الذي لم يحاول سوى محاولة خجولة للبروز وسقط عائدًا إلى ساحة وجهي. كانت عيناه شديدتيّ البريق والجاذبية، وشفتاه ممتلئتان وفي منتهى التناسق كما لو أن الخالق أمضى ساعاتٍ يرسم حدودهما. حين كانتا تداعبان أذني، كنت أنسى كلّ همومي، كلّ أعمالي التي عليّ أن أنهيها، كلّ شيءٍ عدا ما منحني إياه من متعةٍ تتجاوز الوصف. كان قصيرًا، أقصر مني، إذ كنتُ فتاة طويلة القامة، لكنه مع ذلك بدا واثقًا من مكانه في هذا العالم، وكان ذلك يمنحني الطمأنينة.

في ذلك البناء الموحش تحدّثنا عن كلّ شيء. أخبرته عن أمي وأبي وعن حبّهما. حدّثني عن عبء كونه الابن الوحيد وعن تطلعات والده المبالغ بها. أخبرته عن زوجة أبي وعن قسوتها. أخبرني عن رغبته في الرسم وفي أن يصبح فنانًا وكيف أن والده أجبره على دراسة القانون في الجامعة. أخبرته عن خططي

لأصبح عاملةً على الآلة الكاتبة أو سكرتيرة في الخدمة المدنية، وكيف أن والدي كان يريدني أن أصبح ممرضةً أو معلّمة.

أحيانًا كان وجهه يخلو من التعابير حين أحكي له قصصًا عن قريتي، وعن أحلامي الجامحة، أحلامي التي لم أعلم كيف وما إذا كانت ستتحقّق أم لا، أحلام ببيت كبيرٍ هنا في ضاحية الاستقلال وأسرة كأسرته.

لم نضع خططًا بعيدة لحياتنا معًا. لم نكن في حاجة لذلك. يكفينا أن نعيش اللحظة لذاتها. حين يأخذني بين ذراعيه، أتحوّل من مجرد خادمة إلى فتاةٍ تختبر حبّ رجل.

كنت خائفة في البداية. قلت له إننا نرتكب خطأ، لكنه طمأنني. قال لي إنه يأخذ حذره. لن يحدث شيء؛ لأنّه كان حريصًا على أن يسحبه في الوقت المناسب. كان انسكاب بذرته على جسدي، أحيانًا على بطني، يجعلني أحبّه أكثر. رويت لتشيدينما أني كنت أستشعر قلبي يكبر بالحب، أكثر مما كان صدري يتّسع له. أقلقتها حماقتي وأحداثي الدرامية وتساءلت أين أضعت عقلي. ورغم ذلك أرادت أن تصغي إلى كلّ تفصيل، فبُحت لها بكل ما استطعت البوح به وخبأت البعض الآخر لأستعيد طعمه في الليل بعد الانتهاء من العمل.

كان أورينا يعود إلى الجامعة بعد العطل. لحسن الحظ، فالجامعة في إنوغو، لذا كثيرًا ما يأتي إلى البيت. لم يذكر لي ما إذا تساءل والداه أو كلماه في ذلك. أحيانًا يعود من الجامعة منتصف النهار مباشرة إلى بيتنا. وأحيانًا أخرى نذهب إلى بيته حين يكون متأكدًا أن لا أحد في البيت سوى تشيدينما. جازفنا؛ أحيانًا أكاد أكون متيقّنة من أن أمرنا سيُفتضح. ذات مرّة كنت ذاهبة إلى المطبخ لأجلب بعض الماء حين سمعت صوت أمّه وقد عادت إلى البيت دون أن نتوقّع قدومها. متّجهةً من غرفة الجلوس نحو المطبخ. اندفعتُ خلف الطّباخ

الكهربائي وحشرتُ نفسي هناك. خفق قلبي سريعًا. وشعرت كما لو أنها سمعت دقاته تتسارع مثل دقات قلب أنثى الماعز حين يطاردها الذّكر في مزرعة أم نكيمديليم، هائجة، وقلقة. لكنها بالكاد فتحت باب الثلاجة، أخذت شيئًا ما، وخرجت.

في مرّةٍ أخرى، كان أورينا في بيتنا حين عادت السيدة من العمل بسبب الصّداع. ذُعرتُ وأنا أخرجه من البيت، لكن ذلك لم يحدث قبل أن تتّجه السيدة إلى البوابة لترى من هناك. اختلق وقتها كذبة أن أمّه تفكر في عقد اجتماعٍ لسيّدات الحي وتريد أن تعرف ما إذا كانت السيدة مهتمّة بالموضوع.

"تلك المرأة المتعجرفة التي تتجوّل مفتخرة بردفيها الضخمين وكأنَّ البراز لا يخرج من بينهما، كان يفترض أن تأتي إلى هنا بنفسها، لكن لا، السيدة الراقية رفيعة الشأن لديها ما يكفي من الأشغال." قالت السيدة باشمئزاز، بينما كنت أرجو أن يتوقّف قلبي عن رقصه المجنون من شدّة الذّعر.

تمنيت لو حظيت بالحرية التي كان أورينا يتمتع بها في الخروج والعودة متى يشاء، غير أنَّ أعذاري لمغادرة البيت قد بدأت تزعج السيدة وتثير شكوكها. كنت في بعض الأحيان أتغيّب عن الدروس وأخرج من المدرسة قبل موعد انتهائها. فتتستّر تشيدينما عليّ قدر استطاعتها أمام المعلمة، لكن ذلك شكّل عبئاً عليها وعلى علاقتنا. شككتُ أنه في الأمر شيئًا من الغيرة، لا سيما أنني وقتذاك بدوت كما لو أنني استطعت تجاوز المستحيل.

كانت مساءاتي تملؤها القصص التي كان إيكينا يقرؤها لي من الكتب، بينما أروي له الحكايات الشعبية التي سمعتها في القرية. "وعاشا في ثباتٍ ونبات،" بهذا كان يختم حكاية الأميرة النائمة. أما حكاياتي فكانت لها نهايات أكثر واقعية: نالت السلحفاة نصيبها - قوقعة مكسورة وعنق مخفي - لمحاولتها

خداع الحيوانات الأخرى والتهام طعامهم؛ الفتاة الجميلة التي رفضت بازدراء جميع الرجال الصالحين قد تزوجت وحشًا بسبعة رؤوس. لكن سندريلا، الفتاة اليتيمة التي تعيش مع زوجة أب شرّيرة في قصة إيكينا، التي تجرّأت على الذهاب إلى الحفلة، حظيت بالنهاية بالزواج من الأمير.

لم أستطع التنبؤ بنهاية حكاية الخادمة ووريث البيت رقم 16 في جادة الثالوث، في ضاحية الاستقلال في إنوغو، لكنني جهدت بقلبٍ ملؤه الأمل ألّا أفكر في المستقبل البعيد.

الفصل الرابع

أشرق الصباح على إنوغو برّاقًا ومشمسًا، إلّا في بيتنا. كنت أسقي أزهار الإيزورا عندما اندفع السيد خارج المنزل وحقيبته في يده. كانت تفصل بين عباراته الغاضبة فواصل من البصاق المنثور في الهواء. لو أن أحدًا غيره كان ينثر البصاق هكذا لهرع بحثًا عن معقم. أطرقت رأسي راجيةً أن يقيني ذلك من أن تقع عينا السيد عليّ ويلقي أحد أوامره المستحيلة، لكن الحظ لم يكن حليفي ذاك الصباح.

"نوابولو" صاحت السيدة. "تعالي إلى هنا" قاصدةً أن أسرع. كان صوتها شديدًا حتى تصوّرت أنه وصل إلى مسامع الجيران الذين يعيشون في آخر الحي.

ألقيت خرطوم الماء من يدي وهرعت إلى الداخل قبل أن يجد السيد (الذي كان ينظر إليّ الآن وهو لا ريب يبحثُ في ذهنه عن نوافذ مخفيّة يكسوها الغبار أو حشائش لا وجود لها في فناء البيت أو قمامة متخيلة في المزاريب أمام البيت) فرصةً للكلام، غير أنه تجاهلني واتّجه نحو السيارة. وحين سمعت الباب يصفق، استدرت وجريت لأفتح البوابة.

"لماذا لا تعمل هذه؟" وقفت السّيدة وسط المطبخ وفي يدها وعاء الخلاط. كانت تقطر عرقًا رغم أن شمس الصباح لم تصل ذروة احتدامها بعد. جفّفت الرياح كلّ ما أتي في طريقها إلا وجه السيدة.

"لا أعلم يا سيدتي" قلت بهدوء.

صاحت بي: "ما الذي تعنينه بأنك لا تعرفين؟" لم يكن الغضب يليق بالسيدة. فعروق وجهها تنفر، وخطوط التجاعيد الجديدة تبدو مثل الأفاعي

التي تزحف ببطء في كلّ الاتجاهات، وشفتاها - اللتان يكسوهما أحمر الشفاه الذي تدّخره لأوقات العمل والذهاب إلى الكنيسة - تبدوان غريبتين عن المشهد كما لو أنهما مثبتتان في وجهها عنوة. بدت أشبه بالساحرة التي كان إيكينا يقرأ لي عنها من كتابه الليلة الفائتة. قد يكون ذلك - ولم تكن تلك أول مرّة تخطر لي هذه الفكرة - السّبب وراء عجز السيد عن ضبط نفسه وشتائمه عندما يتشاجران. أمّا حين تكون رائقة المزاج، فتكون امرأةً جميلة، أنيقةً بطول قامتها ورشاقتها، في سلامٍ مع هذا العالم، بما فيه أنا. كل ذلك إلى أن يأتي زوجها إلى البيت.

"عندما استخدمتُه قبل عدّة أيام كان يعمل يا سيدتي." أيّ متاعب كانت في انتظاري ذلك الصباح؟ ألم يحن موعد ذهاب السيدة إلى العمل؟

"كفّي عن تدوير رأسك هنا وهناك مثل الديك الرومي،" صرخت في وجهي وأنا أنظر خلفها لأرى ما إذا كنت تركت دلو الماء الذي كنت أستخدمه لمسح الأرضية.

لم أعتبر نعتها لي بالديك الرومي صبيحة ذلك اليوم إهانة، ولم أقل لها أنها تعلم أنّ الخلاط لم يعد يعمل لأنها حاولت فرم بعض الطماطم فيه في اليوم السابق. لم تكن تقصد سوى أن تجد متنفّسًا لها بعد شجارها مع زوجها.

"لماذا لم تنظّفي الغرفة هذا الصباح؟" سألت.

لم يكن هذا غريبًا عن طبعها، فحين تكون السيدة مهتاجة فهي تقفز من تذمّرٍ لآخر مثل أتوشا؛ ذاك المريض بالفصام في سوق أباكبا.

شرحت لها بتأنٍّ أني نظفتها بالفعل.

"قال إنّها لا تبدو نظيفة."

هو قال؟ ما الجديد في ذلك؟ أردتُ أن أسألها. لكن أبي لم يربّني على

الحمق، فأبقيت فمي مغلقًا.

"اذهبي ونظّفيها مجدّدًا ولا تجعليني أجدك متبطّلة في هذا البيت."

أيّ تبطّل ذاك الذي كانت تتكلم عنه وأنا منذ أن أنهى رحيل أبي رغد طفولتي وأنا لا أفعل في الدنيا سوى الكنس ومسح الغبار والشّطف والطبخ؟ حتى أني لم أكتسب أيّ قدرةٍ على الرّد أو رفع صوتي، اللّٰهُمَّ إلّا حين أثرثر مع الخادمات الأخريات.

كنت أتوق لتلك الثرثرة حالما تخرج السيدة من البيت. تأتي تشيدينما إلى البيت ونبدأ معًا الثرثرة عن جميع السيدات اللواتي يجعلن خادماتهن يعملن منذ مطلع الشمس حتى غيابها، وهنّ نائمات. مثل السيدة أوده التي تأمر خادمتها أن تناولها أشياء تقع تمامًا عند قدميها. أو عن السيدات اللواتي لا يرسلن خادماتهن إلى المدرسة أو لتعلّم حرفةٍ ما كما وعدن أسرهنّ، كالسيدة أوديناكا التي وعدت أهل خادمتها بأنها سترسلها لتعلم الخياطة ثم تركتها في البيت تقوم بكلّ أعمال التنظيف من الصباح إلى المساء. كنا نثرثر عن أم كوليكا السمينة المتخصصة - بالإضافة للأكل - بتوظيف بستانيين وبوابين شبابًا يؤدون أعمالًا تزيد على ما يكلفهم به زوجها. لكننا كنا نعجب كذلك للسيد أبي أوبينا الذي يعيش في آخر بيت من بيوت الحي، البيت رقم 22 الذي يحوي أشجار الميلينا، ويتحقّق من الواجبات المدرسية لخادمه أوغيشوكو كلّ يوم. ثم ننتقل للخادمات اللواتي يضربن أبناء سيداتهن دون رحمة، وبطريقةٍ أو بأخرى يستطيعن منعهم من إفشاء ذلك، وعن الخادمات اللواتي يرتدين ثياب سيداتهن حين يخرجن ولا أحد يعرف عن الأمر شيئًا، وعن تيريزا، التي كانت تخدم لدى السيدة بير بارلور، وتسبّبت في إغلاق عمل سيدتها بعد بيعها جميع صناديق الجعة في المخزن. كانت ثرثرتنا مليئةً بما يعجب له المرء أو يهلّل أو

يصفّق يديه إثارةً بسببه. غير أنّ أشد ما كنت أتوق للحديث عنه هو أورينا.

ارتسمت ابتسامة على وجهي، كعادتي حين أفكر فيه.

"لماذا تبتسمين؟" صاحت السيدة.

أنا من أوقعت نفسي.

"أتحسبينني مزحة؟" لطمتني على رأسي قبل أن أستطيع التّراجع. حتى أنا عرفت أنه لا مبرّر لابتسامتي تلك.

"قلتها لك من قبل وسأقولها لك مجددًا؛ لو سئمت من الحياة هنا، من الحصول على الطعام والتعليم، احزمي أمتعتك وعودي إلى أمك. لن أسمح لك أن تدمّري كلّ شيءٍ في هذا البيت. لا شيء هنا جاء لوحده، كسبت كلّ شيءٍ بالمال الذي جنيته بعرق جبيني. قبل أن تذهبي إلى المدرسة بعد الظّهر احرصي على تنظيف البيت وغسيل الحمامات. لم آتِ بك إلى المدينة لتجلبي لي الفقر بتبطّلك."

وبهذا، اندفعت إلى غرفتها، ربما لتأخذ مفاتيح سيارتها وتقودها في سورة الغضب تلك. تنفست الصعداء ورجوت أن يعمل محرك الفولكسفاغن هذا الصباح، وإلا فسيكون دفع السيارة والتوسّل للمارة في الطريق لمساعدتنا عبئًا يضاف إلى قائمة أعبائي الطويلة.

وقفت في المطبخ في انتظار بدء نهاري، في انتظار لقاء أورينا.

فيما بعد، أتت تشيدينما لتقف إلى جانبي في المدرسة. استمعت لي وأنا أتحدّث لكنها لم تضحك عليّ كما اعتادت أن تفعل حين أتحدث عن أورينا. عوضًا عن ذلك انحنت تحكّ رجليها. لم تكن تضع زيتًا عليهما فجعلت رياح الهرمتان الجافة آثار أظافرها تبدو مثل خيوط الطبشور على بشرتها الداكنة. لم تحمل رسالة من أورينا وكان ذهنها مشغولًا بأمرٍ آخر أكثر أهمية من قصة غرامنا الأحمق.

صمتت لفترةٍ على غير عادتها. فلطالما كان لسانها يعمل ساعات إضافية ليكون بمقدورها تغطية كل ما في بالها من نميمة وقيل وقال، وحديث والدي أورينا في غرفتهما ليلًا وهي تنظّف الحمام. كان الكرب يكسو وجهها الدائري، والقلق يملأ عينيها. هل سيطردونها من العمل؟ لم أعتقد ذلك، فقد كانت تعتني بالطفلتين على أكمل وجه وكانتا تحبّانها جدًّا. كان ثمّة شيءٌ من الأمومة والطمأنينة في تشيدينما، وتعمل لدى السيد والسيدة لمدة ليست بالقصيرة، ستّ أو سبع سنوات تعادل عمرًا في حياة الخادمات. أخبرتني أنهم يرغبون في إرسالها إلى المدرسة الإعدادية، لكن تشيدينما ليست من النوع الذي يفلح في الدراسة. كنا نشترك في تأخّرنا في السّن مقارنة بالعمر المناسب للمدرسة الابتدائية، لكنها على النقيض منّي - أنا التي انقطعت مرارًا عن المدرسة - كانت قد أعادت صفوفًا عدّة وتضحك لحقيقة أنها لم تصل إلى السّنة الأخيرة من الابتدائية إلّا لأن المعلمين سئموا من رؤية وجهها في الصّف كما لو أن الأمر نكتة. بعد الابتدائية كانت ستتّجه لتعلم مهنة الخياطة وأنا سأدرس الكتابة والطباعة أملًا في تلك الوظيفة في الحكومة. كنت أقول لها مرارًا إنها ستفصّل لي ثيابي مجانًا حين ستصبح خياطة، وهي تضحك، لكنني علمتُ أنها ستفعل ذلك من أجلي؛ إذ كنت سأفعل أيّ شيء من أجلها.

كنت أعلم أن طموح تشيدينما أكثر واقعيّةً من طموحي. فترتيبها الرابعة بين إخوتها السبعة: أوّلهم أخوها، ثم أختها، ثم أخ آخر، ثم تشيدينما، وجميعهم أرسلهم والداهما للعمل في الخدمة في البيوت منذ أن كانوا في العاشرة. لطالما روت لي تشيدينما عن تلك الأيام التي كانت هي وأخوتها يعملون بجدٍّ سعيًا للاستقرار، وبهذا لا يضطر الأصغر سنًّا للعمل في الخدمة، وقد نجحت أختها أزوما في ذلك بالفعل، وكانت أولهم. كانت قد عاشت في بيت سيدتها في إنوغو

لثماني سنوات. وطوال تلك المدة لم ترد أيّ شكاوى حول عملها؛ لم تسرق، وتتّصف بالاحترام، وتؤدّي عملها بإتقان، ولم تتذمّر من قضاء عطل عيد الميلاد دون أن ترى والديها، فنالت جزاء ذلك سنةً تدريبيّةً لمهنة الخياطة ثم آلة حياكة وافتتحت ورشتها الخاصة ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى تزوجت.

حتى لو طردت تشيدينما، فهناك مأوى لها، ومكان تبدأ فيه من جديد. أما أنا فلم يكن لديّ شيء.

"ما بكِ؟" لم أتمالك نفسي وسألتها أخيرًا.

"هناك من تحرّش بأوغوما." انفجرت قائلة، وخرجت الكلمات من حلقها دون أيّ تنميقٍ أو شرح.

"ماذا تعنين؟" سألتها وقد عرفت على الفور ما قد يعني ذلك غير أني كنت في حيرة حول كيفية ذلك. "من؟" أضفتُ حين لم تجبني؟ "أوكيشوكو؟" كان أوكيشوكو الخادم الجديد الذي وظّفه والدا أورينا ليتولى أعمال التّنظيف وكناسة ساحة البيت وتشذيب الورود وما إلى ذلك حتى يتسنى لتشيدينما إيلاء الرّعاية الكافية لجيدي وأوغوما. وكان على عكس تشيدينما يأتي إلى البيت ويغادر دون أن يقيم فيه. ما الذي يجعله يتحرّش بأوغوما؟

"لا، السيد زوم، المدرس الخصوصي." كان السيد زوم قد وُظِّف ليقدم للأولاد دروسًا خاصة في البيت.

"آه؟" صحت. "ما الذي فعله بالضبط؟"

حدّقت فيّ لبرهة. "تعلمين، فعل هذا." قامت بإشارة بإصبعها. "قالت إنه طلب منها أن تلمسه."

"ماذا؟ هل جُن؟ متى ذلك؟ هل أخبرت السيدة؟"

نظرت حولها لتتأكّد من أنّ أحدًا لا يسمعها. كنا نقف في نهاية الممر، ولا

يبدو أن التلاميذ الآخرين يعيرونا أيّ انتباه.

"لا، لم تخبر أمها. لم تخبر أحدًا سواي. قالت إن ذلك حدث مرّتين. كنت في المدرسة وقتذاك. إنها تشعر أنها ترتكب خطأً."

"هراء" قلت. "هو المعتوه، الحيوان... هو الذي يستحقّ أن يُعرّى ويُسحل في الشوارع كما يعاقب اللصوص في قريتنا."

فكّرت في السيد زوم ببنيته العجفاء ومظهره الجائع الذي رأيته عدة مرات في بيت تشيدينما. كنت في إحدى تلك المرات قد تجرأت على الدخول إلى غرفة أورينا، وإذ كنّا خارجين سويًا وقع بصرنا على السيد زوم جالسًا هناك في انتظار الأولاد. ألقى التّحية على أورينا وابتسم لي، وكان ثمّة ارتيابٌ في ابتسامته الجائعة تلك التي تشبه ابتسامة فرقة (Uriah Heep)[7]. أذكر أنها كانت مخيفة.

تصوّرته الآن يطلب من الطفلة الصغيرة ذات الأعوام السبع - أو ربما الست؟ - أن تلمسه، وشعرتُ برغبةٍ في التقيؤ.

"ماذا ستفعلين؟" سألت صديقتي.

"لا أعرف كيف سأخبر أم أورينا" قالت تشيدينما.

"ماذا تعنين؟ هل ستدعينه يستمرّ في ذلك؟" قلت مهتاجة. كيف يربي أولئك الأثرياء أبناءهم دون أن يعلموا عن حياتهم شيئًا؟

"بأيّ لسانٍ سيكون بمقدوري أن أبلغ مثل هذه الأمور؟"

كنت أعرفها. قد يجدها المرء خجولةً حين لا يتوقع ذلك، كما حين تنادي عليها المعلمة لتجيب عن سؤال ما في الصف، حينها سيختفي كل طيشٍ وغرورٍ لديها في لحظة، مثل فأرٍ وجد نفسه وجهًا لوجه مع صاحب البيت.

"لكنّكِ لن تدعي الأمر يستمرّ."

(7) فرقة روك إنكليزية شهيرة تأسست عام 1969.

أومأتْ برأسها لكنها لم تبادر حول متى وكيف ستخبر السيدة. كانت السيدة ربّة عملٍ طيبة، لكنها امرأة كثيرة الأشغال تشغل منصبًا رفيعًا في أحد البنوك، وليس لديها الوقت الكافي لعائلتها. لطالما يشعر المرء أنّها على عجل أو فظّة في بعض الأوقات. كانت تشيدينما تقول إن ما يهمها فحسب هو أن يكون بيتها في حالٍ جيدة، والغرف نظيفة، والحساء في الثلاجة، وثياب زوجها نظيفة ومكويّة، والأولاد في فراشهم عند الثامنة. وما دام كل ذلك على ما يرام، يبقى لتشيدينما أمر تدبير شؤون البيت الأخرى ورعاية الأطفال وتربيتهم. وها هي تشيدينما تشعر الآن بالمسؤولية إزاء ما جرى.

اتّكأت تشيدينما إلى الحائط الذي كان في الأصل أبيض اللون لكنه تلون بفعل الغبار وأيدي التلاميذ المتسخة باللون البني. كان القلق بائنًا على وجهها.

رحت أفكر للحظات، وشعرتُ أن الأمر يخصني على نحوٍ أعجز عن تفسيره: فكّرت في أبي إيما وهو يتحرش بي وأجّت النيران في داخلي واعترتني كل ما في الدنيا من مشاعر ضيم وأسى، حتى شعرت كما لو أن قلبي يكتوي في صدري.

"أخبري أورينا. أخبريه وهو سيتولّى الأمر." قلت ذلك بكلّ ثقةٍ ويقينٍ أنه ما إن يعلم أورينا بالأمر حتى يتولاه.

"لكن يمكنك أن تخبريه أنت،" قالت تشيدينما متذمّرة. "أخبره بشيء كهذا؟ ذلك أسوأ من أن يقال."

لم أضع الوقت في التّفكير في السبب وراء عدم رغبة تشيدينما إخبار أورينا.

"أنا أعلم ما عليّ فعله،" قلتُ لها. "اتركي الأمر لي، سأخبره أنا."

أومأت، وكانت تتوق لإيجاد من يتولى هذا الأمر البغيض عنها.

"هذه لك." أعطتني ورقةً صغيرة. الآن وقد ألقت عن كاهلها ذلك العبء

بدا أنها شعرت ببعض الراحة وبات في مقدورها الحديث عن عبثي مع ابن أرباب عملها. كانت وقتها قد كفّت عن تنبيهي إلى خطورة ما أفعله، وإلى حماقتي وإلى أن ذلك لن يؤدي سوى لمصيبة ما. لم تعد تقول لي إنه كان يستغلني، أو تتساءل ما إذا كنت أعلم بأمر فتيات الجامعة اللواتي يزرنه. لم تعد تقول لي إن أم أورينا قد تبلغ عنّي الشرطة حالما تعلم بالأمر، وأنها لا بد ستفعل ذلك، وأن السيدة ستعيدني إلى قريتي بعد أن تجلدني طويلًا بالعصا. كانت الآن قد نسيت خوفها من أن أم أورينا قد تعيدها إلى قريتها لأنها تتستّر على ما لا ينبغي التّستر عليه: علاقة بين خادمة والابن الوحيد لأسرة ثرية. أربعة أشهر من التحايل، مئاتٌ من الرسائل الغرامية، وأسابيع من اللقاءات السرية بعدها. استسلمت أخيرًا لعلاقتي الغرامية مع أورينا بكلّ ما فيها من حماقة وإثارة.

فتحت الورقة المطويّة. كانت رسالةً غراميّةً جديدة يطلب فيها أن نلتقي في مكاننا المعتاد. لم تتصوّري كم مرة شكرت الربّ على أنني أجيد القراءة وتمكّنت من قراءة رسائله المنمّقة، وفي المقابل كنت آسف على القدر الذي جعلني في المرحلة الابتدائية، أدنى بصفوف كثيرة من أورينا الذي كان في سنته الجامعية الأولى. في تلك الرسالة قال إنه يفتقدني. لم أرسل له شيئًا طوال أسبوعٍ كامل، وكنت أفتقدته أيضًا.

بعد أن أخبرتني تشيدينما عن السيد زوم لم أعد أطيق صبرًا حتى أرى أورينا. وفي ذلك المساء وبينما أتسلّل خارجةً للقائه، كانت السيدة تشاهد زيك[8] على التلفاز وتلوح له. "دعك من هؤلاء الناس، سيسببون لك الخزي. أنت أعلى منهم شأنًا بكثير،" كانت تقول ذلك بصوتٍ عالٍ كما لو أن المرشح وحزبه السياسي بمقدورهم سماعها. اعتقدتُ أن زيك - أول رئيس لنيجيريا -

(8) المقصود بنجامين نمدي أزيكيوي أول رئيس لنيجيريا

يعلم ما يفعله، وكنت أستحسن فكرة أن يكون رجل من الإغبو رئيسًا للبلاد، فلربما لن نضطر في قريتي إلى الذهاب إلى النبع لجلب الماء وسيجري في صنابير تصل إلى البيوت كما في لاغوس.

تصوّرت أنه في إمكاني الخروج والعودة سريعًا بينما السيدة تغني وتعلّق على السّياسيين وعلى حياتهم وعلى زوجاتهم. ولتلك المرة لم تكن أيٌّ منّا قلقة بشأن السيد وبشأن ما إذا كان أيّ من أرجاء البيت فيه ذرة غبار؛ فقد سافر إلى لاغوس للعمل. وهكذا في وسع السيدة أن تمضي وقتًا أطول من المعتاد وهي تشاهد التلفاز، ومنحني ذاك بعض الوقت لأتسلّل خارجة. طلبت منها بعض النقود لأشتري الطماطم المعلبة، فأعطتني دون سؤال.

عندما التقينا أنا وأورينا، تعانقنا، وعانقني هو بشدة كما لو أنني أنتمي إليه. كان عليّ أن أخبره ما روته لي تشيدينما ذلك اليوم. لم يكن في الأمر أيّ طابعٍ رومانسيّ يتناسب مع لقاءاتنا الغرامية تلك، لكنه كان مثقلًا على صدري طوال فترة بعد الظهيرة.

"كان السيد زوم يتحرّش بأختك الصغيرة." اندفعت قائلةً ما إن تركت ذراعيه.

"ماذا؟"

"نعم، أوغوما أخبرت تشيدينما." قلت ذلك ثم صمتت منتظرةً ردّه.

"كان يتحرّش بفتاةٍ صغيرةٍ في حين يُفترض به أن يعلمها الإنكليزية والحساب؟ ما هذا الهراء! على أمي أن تسمع ذلك. يجب أن يطرد الرجل ويبلّغ عنه للشرطة!"

هل كانت تُبلّغ هذه الأمور للشرطة فعلًا؟ تساءلت. هل تحقّقت العدالة يومًا للأطفال إزاء هذه الأعمال الشنيعة؟ لعلّها تحققت لأولاد الأثرياء. فعلى

الأقل أوغوما لديها أورينا. تذكّرت لاغوس، تذكّرت أبا إيما يندفع صاعدًا وهابطاً فوق جسدي المتألم، وسكين السيدة تغرز صعودًا وهبوطًا في ضلوعي، وأنا، كيف كنت أمزق ستار الليل بصراخي. كانت الذكرى تراودني بقوة كما لو أنها حدثت البارحة.

رأيت أورينا ينظر إلى النّدبات على يدي. لقد علم ما كنت أستحضره، فقد أخبرته من قبل ما جرى، وكان أوّل شخصٍ أروي له ما حدث منذ شكوك زوجة أبي الغاضبة طوال تلك السنين.

"نعم، أرجوك أخبر أمك. قل لها أن تجد معلمةً لهما. قل لها أن تطلب من تشيدينما أن تبقى في الغرفة أثناء الدروس. قل لها أن تخبر الفتاتين أن بمقدورهما إخبارها أيّ شيء، وأن ذلك ليس ذنب أوغوما."

كان وجه أورينا مكفهرًا، والغضب جعله شديد الحمرة والحنق. مع ذلك كان يمسّد يدي، صعودًا وهبوطًا، وهو يستوعب ما رويت له للتو ويفكّر فيما عليه فعله. كان لطيفًا.

"سأفعل،" قال مستجيبًا ليديّ اللتين كانتا تضغطان على يديه. أخذني بين ذراعيه ووقفنا هناك بصمتٍ وقد خيّم الكرب على لقائنا. جلسنا سويًّا نتأمل الأمر بدل أن ننخرط بمرحٍ وسعادةٍ في الغرام. لم يمد يده في العتمة إلى ثيابي الداخلية؛ لقد لوث اشمئزازنا إزاء السيد زوم أجواء اللقاء.

لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى حان أوان عودتي. هرعت إلى ذريعتي أن أشتري بعض الطماطم المعلبة لأجل وجبة الأرز ذلك المساء، وودعنا بعضنا بحسرة.

لم أتلقّ أيّ نبأ طوال أسبوع. لم تنقل لي تشيدينما أيّ خبرٍ أو رسالة من أورينا. قالت لي إن السيد زوم لم يأتِ يوم الثلاثاء لكنه جاء الأربعاء ثم توقّف عن المجيء لبقية الأسبوع. ذهب أورينا إلى جامعته يوم الخميس. أما أنا فكنت

أحيانًا قلقة وأحيانًا أخرى ساخطة. قلقةً لأنني أردتُ أن أعلم ماذا حدث وهل سينال السيد زوم أيّ جزاء على فعلته، وساخطةً لأن أورينا عليه ألا يبقيني في انتظار الأنباء بهذه الطريقة.

أخبرتني تشيدينما أن السيد زوم لم يأت إلى العمل في الأسبوع التالي، وكان من المعقول الاعتقاد أنّه طرد. لكن ماذا حدث؟

في تلك الفترة كان موعد امتحانات الشهادة الابتدائية قد اقترب، فكنت أسهر طوال الليل أدرس للامتحان بعد الانتهاء من جميع واجباتي المنزلية وأتساءل عن حال أورينا. مقاومةً إغراء قراءة الروايات التي أعطاني إياها أورينا - روايتين لأغاثا كريستي و(الأشياء تتداعى) - لأنني وعدته بأنني سأركّز على الدراسة. وحين كنت أدرس الإنكليزية والرياضيات حرصتُ على ألا أتسلّل بنظري إلى الإجابات الموجودة في الصفحة الأخيرة من كتاب التمارين الذي اشتراه لي السيد قبل أن أحاول حل الأسئلة أولًا. راجعتُ أسئلة مادة الدراسات الاجتماعية: من هو رئيس جمهورية نيجيريا الفيدرالية؟ فخامة اللواء أولوسيجون أوباسانجو، كتبت. من هو حاكم ولاية أنامبرا؟ رجلٌ عديم اللون - أردتُ أن أكتب - فهذا ما كان السّيد يطلقه عليه. لم أكن أعلم ما إذا كان وصف عديم اللون يعني أنه بلا لون أو شيئًا آخر. لكنه لم يكن عديم اللون بالطبع، بل كان سواد لونه واضحًا لا ريب فيه، كما يبدو في الصورة المعلقة في غرفة الأساتذة. لم يكن من بين الأسئلة أيّ واحدٍ عن الأحزاب السياسية الجديدة التي كنت أسمع السيد ورفاقه يتناقشون حولها، ولم يكن هناك أيّ ذكرٍ للدستور الجديد الذي كان معلّمي - السيد أزاري - يتكلم عنه بكل حماسة. لم يفهم أحدٌ في الصف أو حتى يكترث لمسألة أن يكون هناك دستورٌ جديدٌ للبلاد وأننا سنشهد قريبًا انتهاء الحكم العسكري وبداية عهد

الديمقراطية. لن يغيّر ذلك من كمية الطعام التي سنستطيع تناولها ولا عدد الأعمال التي علينا إنجازها. وهكذا غفوت ليلًا وأنا أحفظ أسماء الولايات وحكامها والحكومات المحلية في ولايتي: ولاية أنامبرا، ولاية لاغوس، ولاية أويو، بوشي، كانو، كادونا. ثم استيقظت في اليوم التالي على واجباتي المنزلية وتساؤلي متى سأتمكّن من لقاء أورينا وماذا حدث في أمر السيد زوم.

ذات مساء، بعد أسبوعين بينما كنّا نسير إلى المدرسة، أعطتني تشيدينما رسالةً من أورينا. كنا سنلتقي في مكاننا المعتاد.

كنت في قلقٍ وتوقٍ لأسمع ما حدث. أخبرني أورينا أنه تحدّث إلى أمه. وبالطبع أصابها الغضب والاشمئزاز، وانتظرت لتتكلّم مع السيد زوم حين يأتي لتعليم الأولاد في اليوم التالي وتواجهه بالأمر. لم ينكر السيد زوم الأمر، واعتذر. لكن أورينا الذي شهد المواجهة تلك قال لي إنّه لم يتحمل فكرة أن يمضي السيد معتذرًا دون عقابٍ أو حتى مجرد تهديدٍ بالتبليغ عنه للشرطة.

لذا تبعه أورينا إلى الخارج وقال له إنهم سيبلغون عنه لمدير المدرسة.

بدا الخوف على وجه السيد زوم، لكنه بعد برهة نظر إلى أورينا وقال له مستهزئًا: "حسنٌ، أعتقد أنه كان علينا أن نبلغ عنك أيضًا لسيدات الخادمات اللواتي تضاجعهن."

حين سمعت كلماته تلك، انتابني خوفٌ ملأ قلبي وامتدّ إلى كلّ جسدي. الناس تعرف بأمرنا أنا وأورينا! رنّت الفكرة في رأسي مثل جرسٍ في حلمٍ مزعج. الناس كانوا يعلمون!

وهكذا كان لقاؤنا قصيرًا ذلك المساء، بل أقصر من المعتاد. بدا أورينا متوترًا، فلم نتّفق على لقائنا القادم. كان ذهننا مثقلًا بأمورٍ أخرى.

بقيتُ لأيامٍ بعدها أنتظر استجواب السيدة لي، لكن شيئًا لم يحدث.

مضت الحياة كالمعتاد، باستثناء أنني لم أرَ أورينا أو أسمع منه أي خبرٍ لأسابيع.

"لعلّه نسيني،" قلت لتشيدينما. مسحت حاجبي، كانت حرارة النهار أشبه بعقوبةٍ قاسيةٍ لي بعد كلّ ما مررت به.

"أليس ذلك أفضل؟" ردّت. "إيه، اسمعي، أليس ذلك أفضل؟ ألم يحن الوقت لتعودي إلى رشدك؟ إلى أين ستودي بك هذه العلاقة مع أورينا؟ ربما داخل قدرٍ من حساء البامية الحار الدّبق؟ أو ربما في قبضة أم نكيمديلم اللعينة عندما يعرف والداه أو السيد والسيدة؟

كنت أعلم أنها لم تقصد أن تتكلّم بلؤم، لكن وقع كلماتها عليّ كان شديد القسوة. فاحتمال أن أعود إلى زوجة أبي بكلّ خزيٍ كافٍ لوحده ليؤجّج نيران الخوف في داخلي. لكن جلّ ما رغبتُ في معرفته هو هل كان أورينا يعبث مع خادمات أخريات.

"لا أظنّ ذلك،" قال تشيدينما. "تعلمين أنني عشتُ هناك لوقتٍ طويل."

شعرت بالراحة، وخمدت غيرتي وشكّي، لكن قلبي ظلّ يتألم ألمًا يشبه ألم الأسنان الذي أصابني حين كنتُ في قريتي ولم يتوقف حتى سقط سني. كان يأتي في نوباتٍ حادّة، ثم يهبط جاثمًا على صدري.

"أعلم أنك لن تحبي سماع ذلك. الحقيقة مؤلمة مثل الأشواك." قالت وقد بدت أكثر حكمةً من عمرها. "لكن أنت وأورينا عليكما أن تتوقّفا." شعرتُ وهي تقول ذلك كما لو أنها تسحب قطعة زجاج من كعب قدمي؛ فرغم أنها مؤلمة لكنها عمليّةٌ ضرورية.

بكيت لساعاتٍ طويلةٍ في منتصف الليل، متنهّدةً بهدوء في فراشي حتى لا يسمعني أحد. لعلّ ذلك أفضل بالفعل كما قالت تشيدينما. لعلّ ذلك أفضل، ردّدت في نفسي. لكن الأوان قد فات، ولم أكن حينها أعي ذلك.

الفصل الخامس

استدعاني السيد إلى غرفة الجلوس في أحد أيام السبت. فانتابني هلعٌ شديد؛ إذ كان ذلك اليوم يوم سبت وكنت قد نظفت ومسحت وفركت كلّ شيء، حتى أنني نجحت في جعل إيكينا يأخذ قيلولة، وتلك مهمةٌ تزداد صعوبة يومًا بعد يوم. كل شيء كان على أحسن وجه، وإيكينا يلعب التشو - اللعبة التي علمته إياها - بينما أحضّر العشاء.

"كيف كانت امتحاناتك؟" أراد السيد أن يعرف. كان يشرب الماء من الكأس الذي أعطيته إيّاه للتو، والسيدة تجلس بجانبه. ابتسمت لي، وبدا أنهما يجلسان في سلام في تلك اللحظة.

"كانت جيدة يا سيدي." قلت له وأنا أتساءل ما الخطب.

"هل تعتقدين أنك ستنجحين؟"

"نعم يا سيدي."

كنّا ننتظر أنا وتشيدينما نتائج اختبارات الشهادة الابتدائية، وكنت واثقة من أنني سأنجح، أما تشيدينما فكانت واثقة من أنها سترسب. وسواء نجحنا أم رسبنا، فإن صدور النتائج يعني اتخاذ الخطوة القادمة على طريق مستقبلنا.

"هذا جيد. سنرسلك إلى المدرسة التجارية في جادّة داميجا. أخبرنا السيد هياسينث أن يبلغ أمك."

"شكرًا جزيلًا لك يا سيدي." رغم أن ذلك كان رجائي منذ البداية، لكن أحدًا لم يأتِ على ذكره على نحوٍ مؤكّدٍ بهذا الشكل قبل اليوم.

"نحن مسرورون بعملك هنا. استمري على نفس المنوال، هل تسمعين؟"

"نعم يا سيدي."

بدا السيد مسرورًا، ومرحًا على غير العادة. ولم يكن من المفاجئ أن تكون السيدة سعيدةً أيضًا. تركت إحسانهما يغمرني، وشعرت بالارتياح مع أن نتائج الامتحانات لم تصدر بعد.

علمت حينذاك ما الذي سأفعله بالتأكيد: في العام 1978 سأتعلم الطباعة والكتابة بالاختزال، وأتحضّر لأصبح سكرتيرة.

وتشيدينما ستفرح لي. أخبرتها ونحن نسير إلى الكنيسة في اليوم التالي.

كان ثمّة شيءٌ واحدٌ ما زلت في انتظاره، أورينا. كنت ما زلت في انتظار أن يقول نعم أم لا، سنمضي قدمًا أم نتراجع. لقد خيّمت الرّيبة على علاقتنا بعد اكتشاف السيد زوم لأمرنا. انسكبت كلماته مثل ماءٍ باردٍ على حبّ أورينا لي، وكان أثرها على ذلك الحب أشبه بأثر الماء على حساء الفلفل الحار؛ يُذهب الطّعم والحرارة. لم يبذل جهدًا ليراني كما اعتاد أن يفعل من قبل. وعندما نلتقي كان يسارع إلى لمس جسدي، أما الأحاديث العميقة، وتلامُس القلوب الذي كان يبهجني ويجعلني سعيدة أكثر من تلامس الأجساد، فقد ذهب أدراج الرياح. وحين كنت أريده أن يتمهّل، كان يقول إنّي أبالغ في قلقي، ثم إنني ما دمت لم أعد في المدرسة الآن فإن لقاءاتنا المعتادة باتت مجازفة كبيرة، وأنه يحرص على ألّا أواجه أي متاعب، لهذا لم يعد يأتي في النهار، وتوقّف عن إهدائي الكتب والحديث عن أدائي في المدرسة.

استشعرتُ خداعًا لم أعهده فيه من قبل. أعتقد أنّ ما أرقني أكثر من أيّ شيءٍ آخر هو رفضه المتعنّت للاعتراف بأن هناك خطبًا ما، وإصراره على عدم قول الحقيقة كاملة. بيد أنني مع ذلك ظللت متشبّثةً به، توّاقة لأي رسائل قد تصلني منه على ندرتها في تلك الأيام. أخبرتني تشيدينما عن فتاةٍ من الجامعة

تأتي لزيارته على بتكرار، وكادت الغيرة تنهش روحي. أهذا ما جعله يبتعد عنّي؟

ربما يجدر بي إيلاء انتباهي للتّغيرات التي بدأت تطرأ على جسدي وفرضت نفسها عليّ بقوة رغم جميع محاولاتي لدفعها بعيدًا عن وعيي. لم تظهر عليّ أي أعراض سوى إدراكي بأن شيئًا ما بات مختلفًا. لم أكن أراقب دورتي الشهرية، لكنني عرفت أنها فاتتني لمرّةٍ على الأقل، وعرفت أنّي وقعت في ورطة.

كتمت معرفتي تلك في سرّي ما استطعت، فقد علمت أنها ستصبح حقيقة حالما أنطقها. لكنني لم أشأ أن تصبح حقيقة، فحينذاك ستحدث أمورٌ فظيعة. وهكذا خبّأتها في داخلي، كما تُحشر الثياب في حقيبةٍ ضيّقة، إلى أن لم تعد تجد لها متّسعًا. وذات يوم جاءت تشيدينما إلى البيت، فأخذتها إلى غرفتي وأخبرتها. مكتبة سُر مَن قرأ

"تشيدينما، أعتقد أنني حامل." قلتُ وعيناي تملأهما الدموع.

كانت مشدوهةً للحظات. لقد رأيت علامات الصّدمة وعدم التّصديق والغضب تظهر على وجهها.

"بانو![9]، لا، هل أنت متأكدة؟"

الآن وقد قلتها، بتّ أكثر يقينًا بأنها حقيقة. رحت أبكي وهي تحتضنني. قالت وهي على وشك البكاء: "علمتُ أن ذلك سيسبب المشاكل، علمتُ أنها مجازفة." "اعتقدت أنك قلت إنّه كان حذرًا."

"نعم." قلت لها دون أن أكون قادرة على تذكّر شيء. لم أفعل شيئًا سوى البكاء، وتشيدينما بكت معي.

"ستخبرين أورينا، أليس كذلك؟" قالت أخيرًا.

لم يكن لدى أيّ منا أملٌ فيما سيحدث حين سأخبره، لكن لم يسعنا

(9) (Mbanu) تعني واخجلتاه بلغة الإيبو.

فعل شيء. كتبت له رسالة وأعطيتها لتشيدينما. ولأول مرّة كنت أنا من يطلب اللقاء، حتى إنني حدّدت الزمان والمكان. لعلّه فوجئ بذلك، إذ لم يرد برسالة فارغة أو بالقول إنه مشغول كما اعتاد مؤخرًا أن يفعل حين أرسلُ له رسالة أسأله فيها عن أحواله وأنقل له بعض الأخبار، بل أرسل لي بدلًا من ذلك رسالة يقول فيها إنه سيلتقيني في المكان والزمان المحدّدين.

حين التقينا في ذلك اليوم حضنني وشرع على الفور يداعبني. ورغم أني كنت قلقة وقلبي يرتجف إلا أنني طاوعته. بعد ذلك تمددنا فوق الجرائد التي أحضرها لنضعها على الإسمنت القاسي. أغلق عينيه وصار نفسه منتظمًا، لكنني أعلم أنه ليس نائمًا. لم أجد نفسي إلا وقد تلفظّت بالخبر دون تفكير، وخرج الكلام من فمي على نحوٍ لا يشبه ما تدرّبت على قوله مرارًا بيني وبين نفسي قبل أن أراه.

"أنا حامل."

اتّسعت عيناه، واستطعت أن أرى الصّدمة تعلو وجهه قبل أن يصيبه الكمد. لقد اختفى الرّونق من وجهه ولم يعد بعد ذلك.

"هل أنت متأكدة؟" بدا فزعًا، وهذا ما زاد خوفي.

فكّرت في سؤاله، وسألت السؤال ذاته لنفسي كثيرًا في البداية. لم يقذف داخلي، ولا مرّة دون استثناء.

كان يقول لي إنه يفعل ذلك ليحميني من هذا الموقف ذاته، إلى أن نتزوج، كما تصوّرت بيني وبين نفسي.

"نعم، أظنّ أني متأكدة" قلت له بشيءٍ من الخجل. بدا صوته باردًا، بعيدًا، كما لو أنه جاء من مكانٍ قصيٍّ وليس من على نفس الأرض القاسية والصلبة التي نتمدّد عليها. "انقطعت دورتي منذ شهرين."

لم يكن رده سوى همهمة طويلة، بعد أن وقف ينظر بعيدًا إلى حيث كنت ما أزال ممدّدة شبه عارية.

لم يجرِ الحوار كما تخيلته في عقلي.

"لا تقلقي سآخذك إلى الطبيب." كانت عيناه تحدقان بي، لكني عرفت أنّه لم يكن ينظر إليّ بالفعل، بل كان يفكر.

"طبيب؟" سألته. وأنا بالكاد أتنفس الصعداء، فهو سيأخذني إلى الطبيب ليطمئن عليّ وعلى الطفل.

"لا، لا، لا،" قال متضايقًا وغاضبًا بعض الشيء. "لا، ليس طبيبًا. هِمم، أعرف امرأة استعان بها أصدقائي. ستعطيك شرابًا يزيله بسرعة ولن يعلم أحد." كان ينقر بأصابعه على بطنه وهو يفكر. "لن يعرف أحد."

شعرتُ كما لو أن تيّارًا كهربائيًا يخترق جسدي. هل كان يقصد أنه سيأخذني إلى امرأة لتجهض الطفل؟ طفلنا؟

"لكن..." قلت وأنا أهمّ بالوقوف.

"لكن ماذا؟" سألني متجهمًا.

"ألن أحتفظَ بالطّفل؟"

"تريدين أن تحتفظي بالطفل؟" سألني، وشرع يرتدي ثيابه مستعجلًا وهو ينظر إلى كلّ شيء ما عداي.

"نعم،" قلت له متسائلةً ما إذا بإمكاني الارتياح الآن. لعلّه كان يختبرني، فلا بد أنه يعلم أن فعل ذلك خطأ بالتأكيد، خطأ فادح. ثم إنه طفلنا، طفلنا الذي تكوّن من لحمنا ودمنا. كنتُ أعلم أن الأمر سيكون صعبًا للغاية، أن السيدة والسيد سيطرداني، ووالديّ أورينا لن يكونا راضيين، ولكن لا بدّ أن هناك شيئًا ما يمكننا فعله.

"لا يمكنكِ الاحتفاظ بالطفل. ماذا ستقولين للسيدة أوبيديغو؟" قال بهدوء وصبر، كما لو أنّه يوبّخ طفلًا في الثالثة يريد أن يلعب بالسّكين.

نظرتُ إليه في حيرة.

"ماذا ستقولين لزوجة أبيك؟" قال وعلى وجهه ملامح السّخرية.

لم ينتظر جوابًا، قال لي بفظاظة: "ارتدي ثيابك،" مردفًا:"سأتحدث مع أحدهم هذا المساء، وسأتحرّى عن تلك المرأة. لا بدّ أن تتخلصي من ذلك الشيء بأسرع وقت ممكن."

ندمتُ على حماقتي. بالطبع عليّ أن أجهض الطفل، فما زال أورينا طالبًا، وهو لا يملك المال. أضف إلى ذلك فإن والديه لن يسمحا له، وهو ابنهما الوحيد، أن يتزوج من خادمة. أخبرت تشيدينما لكنها لم تستطع إيجاد حلّ. نصحتني بالحذر، واتفقنا على أنه من الأفضل أن أفعل كما قال لي أورينا. فلو أصررت على الاحتفاظ بالطفل، فسيكشف السيد والسيدة أمري، وسيرسلانني إلى قريتي، حيث ليس لي ما أقدّمه للطفل، ولم أستطع حتى تصوّر العار الذي ستلقيه أم نكيمديليم عليّ.

بكيتُ طوال الليل حتى غفوت. كنت أشعر كما لو أن الموت ذاته كان أهون عليّ من الحياة التي أواجهها. عالمةً ما يجب عليّ فعله.

انتظرت أورينا.

لكنّ أورينا لم يرسلني إلى أيّ أحد، بل بعث لي برسالة بعد أسبوع يقول فيها إنه سيسافر ولن يعود في القريب وأنه يرجو منّي أن أتولى أمر "ذلك الشيء."

رآني إيكينا أبكي في غرفتي، وسألني، "هل أنتِ بخير؟ هل أبكاكِ بابا؟"

جملته هذه جعلت بكائي أشد، لكنني طلبت منه أن يعدني ألا يخبر أمه أنه رآني أبكي، فقد كنت أريد أن أحتفظ بسرّي ذاك وقتًا أطول قليلاً.

كنت حمقاء. تلك المعرفة لم تحثني على فعل شيء؛ بل وجدتني بدلًا من ذلك وقد تخدّر إحساسي. خدّرتني معرفة أن أمري سيكشف عاجلًا أم آجلًا ولن يكون لي أيّ ملجأ. ولم أناقش الأمر حتى مع تشيدينما التي كانت قلقة للغاية بشأني. كان نشيد حزب الشعب النيجيري - أحد الأحزاب السياسية الجديدة - يتردّد في أذني: "حزب الشعب حيث سنوقع التذكارات، حيث الشعب يلتقط الصور، حيث الشعب يلتقط الصور." كانت تلك اللازمة تتردّد في الراديو وفي رأسي دون انقطاع. بدا التّنافس على منصب الحاكم أو الرئيس أسهل بكثير من التعامل مع الموقف الذي وجدت نفسي فيه.

"هل يزداد وزنك؟" سألتني السيدة ذات يوم. ولو لم أكن في قمة الخوف لدمدمتُ كما فعلت حين سألتني تشيدينما السؤال ذاته، أن الجوع يجتاحني على نحوٍ لم أعهده في حياتي وأنني أمضي إلى المطبخ عدّة مرات في اليوم بحثًا عمّا تبقى من الطعام، عن أيّ شيء يؤكل.

صحيح أنني لم أعانِ من وعكات الغثيان والإقياء التي لا تنتهي كما حدث مع أم نكيمديليم عند حملها، وصحيحٌ أن جسدي النحيل استطاع إخفاء سرّه، لكنني كنت أدرك أن ثديي صارا أكبر حجمًا، وأن هناك تحدبًا صغيرا عند بطني لم يكن موجودًا من قبل، وأنني رغم تلقّي حصتي الشهرية من الفوط الصحية من السيدة فلم أستعملها، لأنّ عادتي الشهرية توقّفت عن زيارتي منذ أشهر، ولم أكن متأكدةً منذ متى تحديدًا. رغم ذلك ما زلت لا أُعدّ سمينة، مع أنه كان واضحًا للعين المجردة أنني أصبحت أكبر حجمًا من المعتاد. كانت ثيابي تلتصق بجسدي وهي تبوح عما يمرّ به من تغيرات.

"لا يا سيدتي،" أجبت. رأيت عينيها تمعنان بي، وعرفت أنني سأقع في ورطة عاجلًا أم آجلًا.

مضى شهر آخر تقريبًا قبل أن يقول أحدٌ شيئًا، لكن هذه المرّة حدث الموقف مع السيد. فقد كان واقفًا يراقبني وأنا أنظف غرفة الجلوس. محدّقًا بنظراتٍ مربكة، ولم أرتبك لأنني خشيتُ أنه يبحث عن علّةٍ ما كعادته بل لأنني كنت أخفي شيئًا. لا بدّ أنه قال شيئًا لزوجته، إذ جاءت إليّ بعد بضع دقائق واستدعتني إلى غرفة الطعام.

"هل أنت على ما يرام؟" هكذا بدأت كلامها.

"نعم يا سيدتي." كنت أعاني من صداعٍ مزعج، لكن ذلك لم يكن محسوبًا، إذ علمتُ ما الذي تعنيه بسؤالها.

"أأنتِ متأكدة؟" أصرّت.

"نعم يا سيدتي."

ثم وصلت إلى لبّ الموضوع. "متى كانت آخر مرّة رأيتها؟" كنت أعرف ماذا تقصد بـ"رأيتها"، لكنني لم أردّ بشيء. تذكرت اليوم الأول الذي جئت فيه إلى المنزل كيف جاءت إلى غرفتي مع الفوط الصحية في عبوة زرقاء وكيف لم أكن أعرف ما هي ولكنّي كنت سعيدة لأني أعرفُ ما هو الدم الذي ينزل في نهاية كل شهر.

عجزتُ عن الكلام، ورحت بدلًا من ذلك أجول بنظري في أرجاء الغرفة حتى وقعت عيناي على صورة بالأبيض والأسود لوالدي السيد كانت معلقةً بكلّ فخر وسط الحائط قرب المكان الذي تقف فيه السيدة قبالتي. كان السيدان يجلسان إلى جانب بعضهما بعضًا وينظران إلى المصوّر، المرأة مبتسمة ابتسامة خفيفة، أما الرجل فملامحه جدّية. يرتديان الأزياء الدارجة للشباب في مثل جيلهما، الرجل ببزّةٍ تبدو واسعةً عليه، والمرأة بفستانٍ وجدائل مربوطة بشريطٍ أسود. لا بد أنني رأيت تلك الصورة آلاف المرات وأنا أمسح الغبار وأنظّف

وأخدم الضيوف وآتي لألبي طلبات السيدة، وكذلك وأنا جالسة على الأريكة الحمراء الناعمة متظاهرةً بمشاهدة التلفاز بينما أرشف الماء من كأس زجاجية حين يكون السيدة والسيدة خارج البيت. لا بدّ أن عينيّ وقعتا على هذين الزوجين اللذين ينتميان إلى زمانٍ آخر مرارًا حتى لم أعد ألحظ ذلك، لكنني يومذاك رحت أحدّق بكلّ عجزٍ وقنوطٍ في صورتهما التي تنتمي إلى زمان آخر.

"هل أصابك الصّمم؟" صاحت في وجهي حين وجدتني لم أرد.

"الشّهر الفائت." كذبت.

"الشّهر الفائت؟" سألتني والشّك واضحٌ في وجهها وفي نبرة صوتها.

"نعم يا سيدتي." كانت تلك كذبة ابتدعتها، ولم أكن فعلًا أعرف الحقيقة، لم أعرف منذ متى انقطعت عادتي الشهرية.

"قفي منتصبة. أبعدي الكرسي،" أمرتني.

أبعدت الكرسي الذي كنت أستند عليه لأني كنتُ متعبة (كنت أتعب بسهولة في تلك الأيام)، ولأنني رجوتُ أن أخفي ضيق ملابسي عليّ. كنت أشدّ بطني، خائفة، وعاجزة حتى عن الصلاة.

حدقت السيدة فيّ بعينين جاحظتين حتى وسعهما، ورأيت إدراك الحقيقة فيهما كما تبصر امرأةٌ كفيفةٌ النور للمرّة الأولى.

"إيوو شيامو!"[(10)] صاحت مدهوشة. "نوابولو! نوابولو، هل أنتِ حامل؟"

طأطأتُ رأسي وحدقت في الأرض بين قدمي. لم أكن جاهزةً لسؤالٍ كهذا، ولا للحظةٍ كهذه. لم أملك خطّةً للتعامل معها.

"لا يا سيدتي." خرجت مني الكذبة باردة، عارية.

تقدّمت نحوي وهي تعبر مسرعةً بجانب الكرسيين على جانبي الطاولة،

(10) (Ewu Chi m o) بلغة الايبو وتعني يا إلهي.

الكرسيين اللذين ظلّا فارغين بقرب السيدة والسيدة وهما يتناولان العشاء لأنهما لم يرزقا بطفلٍ آخر منذ إيكينا. لم أدرك ماذا كانت تنوي أن تفعل إلا بعد أن سحبت ردائي بحركة رشيقة.

كان الانحناء الدائري الصغير واضحًا رغم أني ظللت أشدّ بطني إلى الداخل. لقد فضح الحقيقة التي كان فمي ينكرها.

"هاي!" صرخت. "شيناك!(11) من الذي فعل هذا بك، ايه؟ من جعلك حبلى؟ أهكذا تجازيني على التدريب الذي تلقيته هنا؟"

امتلأت عيناي بالدّموع وانسكبت على وجهي.

خرج إيكينا من غرفته، ثم وقد أدرك أن هناك خطبًا ما هرع نحوي ووضع ذراعيه حولي قائلًا، "ماما، هل نوابولو بخير؟"

لم تنتظر إجابتي، وبدلًا من ذلك قالت له: "إيكينا، اذهب إلى غرفتك." مشيرة إلى ذلك الاتجاه. حاول مجادلتها لكن نظرتها كانت كافية لجعله يعود مسرعًا إلى غرفته. ثم انفجرت صائحة، "إيميكا، إيميكا، تعال."

جاء السيد، وحدّق فيّ عندما أخبرته زوجته. لم أره في حياتي يسيطر على أعصابه على ذلك النحو، غير أن نظرته الصّامتة والباردة كانت أقسى عليّ من غضب زوجته الهيستيري.

"من الذي جعلك حاملًا؟" سألني.

"أورينا" أجبت. أدركت بعد حين أن خوفي من الغضب البارد البادي في عينيه هو ما جعلني أبوح بسرّي.

"من أورينا؟"

شرحت له من هو.

(11) (Chineke) بلغة الايبو وتعني يا يسوع.

"ماذا؟" صاحت السيدة. "ذلك الفتى؟" واستطعت أن أتبيّن من ملامحها أنها تذكّرت أنها رأته عند البوابة مرتين.

جعلاني أنتعل خفّيّ وسرنا أنا والسيدة إلى بيت أورينا رقم 16. لم تتذمّر السيدة من الغبار كعادتها، بل بدلًا من ذلك راحت تشتمني وتلومني على تضييع حياتي وأنني بعد كلّ شيءٍ فعلاه لأجلي وبعد كلّ الفرص التي قدماها لي لأحسّن حياتي وحياة أسرتي، هأنذا أحمل في بطني مصيبةً وأسير بها.

حين وصلنا عند البوابة تملّكني الخوف الشّديد حتى كدت أعود أدراجي هاربة، لكن السيدة ضغطت زر الجرس ووقفت تنتظر. رحت أصلّي للربّ ألا يكون أورينا في البيت.

فتحت تشيدينما الباب.

"صباح الخير يا سيدتي،" قالت. ورأيت أنها كانت تحاول ألا تنظر إليّ.

"هل سيدتك في البيت؟" سألتها السيدة.

"نعم يا سيدتي."

اصطحبتنا تشيدينما إلى داخل البيت.

جلسنا في غرفة الجلوس وانتظرنا السيدة أنياغولو. لقد دخلتُ تلك الغرفة مرّاتٍ كثيرة وجلستُ على الأريكة الجلدية وشاهدت التلفاز ذي الأرجل الثلاثيّة مع تشيدينما، لكنني لخوفي الآن شعرت أن كل شيء بات غريبًا عني كأن عينيّ لم تقعا على المكان من قبل.

"صباح الخير." ألقت علينا أم أورينا التحية ورائحة عطرها تفوح في المكان، فشعرت أن معدتي ستفرغ ما في داخلها. "كيف حالك؟" ابتسمت في وجه زائرتها. وقعت عيناها عليّ لبرهةٍ وجيزةٍ ثم وجدتها تبعدهما عنّي على الفور. لقد رأتني من قبل، لكن ذلك كان عندما كنت أمرّ على تشيدينما في

طريقي إلى المدرسة.

"أرجو أن يكون كلّ شيء على ما يرام. تفضلي بالجلوس."

جلست السيدة، أما أنا فظللت واقفة؛ لم يدعُني أحد للجلوس.

"ماذا تفضلين أن نقدّم لك؟" كان الفضول باديًا عليها. لم تكن علاقتها بالسيدة تتعدى كونهما يقطنان الحي ذاته، لم تعتادا زيارة بعضهما بعضًا؛ فعلى حدّ تعبير السيدة كانت السيدة أنياغولو تعدّ نفسها أهمّ شأنًا لأنّ لها مهنةً رفيعة المستوى ولأنّ زوجها يدير مصنعًا للجعة، أما أم أورينا فقد كانت تعتقد أن السيدة ليست ودودة، حسبما أبلغتني تشيدينما.

"لا شيء. شكرًا. ما زال الوقت مبكرًا. جئتُ أناقش مشكلة."

"مشكلة؟" قطّبت أم أورينا وجهها.

قالت السيدة وهي تشير إليّ: "نعم، كما ترين، لدينا هذه الفتاة." ثم أردفت: "إنها تعمل لدينا منذ أربع سنوات ولم نواجه من قبل أيّ متاعب، لكننا اكتشفنا اليوم أنها حامل."

"هممم." دمدمت أم أورينا وهي ما تزال مقطّبة.

"همم." بدأت السيدة الكلام متردّدة، "تقول إن ابنك هو المسؤول. لم أدرك ما عساي فعله، لهذا جئت إلى هنا لأكلمك بالأمر."

"محال!" اعترى الضّيق ملامح السيدة. "ابني يدرس في الجامعة ويستطيع لقاء الكثير من الفتيات الجميلات هناك. لا أعلم لماذا تريد فتاتك." ونظرت إليّ نظرة اشمئزاز.. "أن تلقي بلاءها عليه."

"همم." كان ذلك جلّ ما قالته السيدة لبرهة.

"أورينا ليس في البيت." أشارت أمه، وشعرتُ كما لو أن ساقيةً من الارتياح انسكبت فوق صدري، فلم أكن أقوى على أن تراه عيناي في مثل تلك الظروف.

"سأتكلّم معه حين يعود." وكان في نبرتها حسمٌ وعلت وجهها نظرةٌ أدركنا فيها أن النقاش انتهى عند هذا الحد. حتى الآن.

لم تكد السيدة تقف على قدميها حتى فُتح الباب وظهر أورينا. كان يرتدي ثياب الجري ويتصبّب عرقًا، وبدا في عينيّ وسيمًا بقدر ما وجدته وسيمًا حين رأيتهُ أوّل مرة وهو في زيّه الإفريقي.

"صباح الخير يا أمي." ألقى التحية على أمه، ثم قال للسيدة: "صباح الخير يا سيدتي،". أما أنا فلم ينظر إليّ، واكتست ملامح الجدّية وجهه.

ردت السيدة: "صباح الخير.." وكانت قد وقفت لكنها لم تتحرك، فهي لا تريد أن تعود إلى البيت صفر اليدين. نظرت أم أورينا إليها.

"هل تعرفُ هذه الفتاة؟" أشارت أمّه إلي.

قال وهو يفكر: "هممم." ثم تابع: "تبدو مألوفة لي." أنا، مألوفة؟ صحتُ في داخلي وأنا أتذكر البناء القديم والأرضيّة القاسية. "أوه، الآن تذكرت." كم بدا تلقائيًّا وواثقًا! "أظنّ أنها تأتي لتصطحب تشيدينما."

أيعقل أن تتورّط تشيدينما في ذلك؟

"إنها تدّعي أنها حامل وأنّك أنت المسؤول عن ذلك." قالت أم أورينا، ونبرتها تنضح بعدم التّصديق.

"ماذا؟" وكتم ضحكة، "الخادمة؟ أماه! لا أصدّق أنك تسألينني مثل هذا السؤال." وبدا كما لو أنّه لم يرَني في حياته. سألني غاضبًا: "لا بدّ أن هناك خطأ ما. أهي مجنونة، الخادمة؟ هل تعرفينني؟".

لم يجد لساني في مقابل إنكاره الشديد سبيلًا لنطق أيّ شيء. لم يكن ذاك أورينا، لم يكن ذلك الفتى الذي كان يهديني الكتب، الذي قال إن اسمي جميل. كان ذلك شيطانًا في لباس الجري وقد طمس الغضب والكراهية

والأكاذيب مظهره الجميل.

"هلّا أخبرتِهم ما قلتِ لنا؟" قالت السيدة.

وقفت هناك، صامتة، وقد خدّرني الخوف والاشمئزاز. كانوا جميعهم ضدّي، حتى السيدة.

بعد دقائق قالت أم أورينا: "يمكن لهاته الفتيات أن يكنَّ خبيثات أحيانًا، أقترح عليكِ أن تعيديها إلى المنزل وتحاولي استجوابها أكثر. من المحتمل أن يكون أحد الخدم الآخرين هو من جعلها حاملًا." كانت تصرِفنا من منزلها بهذه الكلمات وقد اختفت منها أيّ محاولة للتصرّف بودّ.

بعد أن عدنا من بيت أورينا - وقد تركنا وراءنا إنكاره، وإصراره على أن ينظر إلى أيّ شيء، حتى إلى غضب السيدة وثورتها، إلى أي شيء في العالم ما عداي - جلستُ في حمامي، في حمام الخادمة خلف البيت، ورحت أنتحب. قالت لي السيدة إنها لن تبقيني في البيت وأني سأعود إلى زوجة أبي في اليوم التالي، ولم أكن أنتظر غير ذلك، لكنني شعرت مع هذا أن قلبي ينفطر ألمًا.

شعرت بوقع خطوات إيكينا وقد أتى يبحث عنّي في الخارج وسمعته ينادي عليّ لكنني لم أرد، فانتظر قليلًا ثم غادر. كانت الدموع تنسكب من عينيّ بغزارة حتى كدتُ أذرف دمًا.

بعد حين ذهبت إلى المطبخ لأجد شيئًا أملأ به بطني الذي يطلب الطعام باستمرار، وبينما كنت خارجة سمعت السيدة تتحدث مع السيد في غرفة الجلوس.

"هأنذا أحاول كل ما في وسعي لكي أنجب أخًا أو أختًا لإيكينا، أما نوابولو فتفتح فخذيها مرّة، ثم تراها تحمل طفلًا. وذلك الفتى ينكر الأمر، أعلم أنّه هو من فعلها."

"نحن أمام كلمته في مقابل كلمتها، وأنا لن أدخل في خصامٍ مع جيراني من أجل فتاة لا تفقهُ شيئًا." كان في صوته نبرةٌ قطعيّة، كما لو أنه كان قد أقفل الباب عليّ منذ حين، وكما لو أنني صرت عند أم نكيمديليم في نوكينتا وكان يجري مقابلة مع فتاة أخرى، "هل تستحمين كل يوم؟ هل تغسلين يديك عندما تستخدمين الحمام؟"

"حمقاء." وافقته زوجته. ثم أردفت: "ومع هذا انظر إلينا، نفكّر في مستقبلها." سمعتها تتذمّر لكنني أعتقد أنها كانت تتكلم وهي تشعر كما لو أنها تتكلم عن إيكينا وهو يسبّب لنفسه أذى ما أو يطلب أن يكون لديه أخ؛ كان في كلامها حزن.

هرعت نحو غرفتي وقد امتلأت عيناي بالدموع. لم أطِق سماع المزيد.

حاولت في تلك الليلة، وأنا أحزم حقيبتي استعدادًا للرحيل، أن أكبت المرارة التي سكنت في حلقي والخوف الذي جعل قلبي ينبض من شدة الوجل والندم على التفريط بفرصة الحصول على التعليم، على المستقبل. لم أستطع حتى أن أودّع تشيدينما، على الرغم من أن أعيننا التقت حين كنّا أنا والسيدة نغادر منزلهم. كانت الدموع تملأ عينيها رغم أنني لم أقدر أن أتبين ذلك آنذاك.

مسحت عن عينيّ الدمع الذي ظلّ ينسكب منهما دون انقطاع. وضعت في حقيبةٍ ثيابي والكتب القليلة التي أملكها؛ لم يكن هناك حاجة لأن أقرأ عناوينها، فأنا أحفظها عن ظهر قلب، (الأشياء تتداعى)، نسخة مبسطة من (أوليفر تويست)، وأخرى لـ(رحلات غليفر، و(الجريمة النائمة) لأغاثا كريستي.

انتهيت من حزم أمتعتي، وبات للخوف الحرية في السيطرة عليّ. كنت على يقين أن أم نكيمديليم ستقتلني وتقتل طفلي، لكنني حاولت أن أتوقف عن

التفكير أبعد من ذلك. طفل. لم أكن قبل ذلك قد فكرت مليًّا في الطفل الذي ينمو في أحشائي، أما الآن وقد أصبح أمري مكشوفًا فقد تحوّلت تلك الفكرة إلى شيءٍ ملموس. كيف سأربي طفلًا؟ في بيت أم نكيمديليم؟

سمعت صوتًا ناعمًا قرب الباب. كان إيكينا، صديقي الصغير الذي علّمني القراءة. ضمّني بقوةٍ والدّموع تنهمر على خدّيه. شددته إلى صدري طويلًا إلى أن سمعت أمّه تناديه.

كان في يده كتاب، جاء يهديني إياه للذكرى: كان كتابًا لمجموعة من الحكايات الخرافيّة.

الفصل السادس

أتى السيّد هياسينث إلى المنزل لاصطحابي في اليوم التالي.

قال السيّد: "لقد خاب أملنا للغاية." وأردف: "ظننّا أنَّنا سنرسلها إلى المدرسة التجاريّة."

وافقه السيّد هياسينث: "هذا مؤسفٌ للغاية".

قالت السيّدة وهي تحاول جاهدةً أن تضبط نفسها: "دعها تخبرك من هو الأب، وكيف حاولت إلقاء اللّوم على ابن جيراننا."

بينما سِرتُ مع السيّد هياسينث، هرع إيكينا خارجًا إليّ وأمسك بي قائلًا: "نوابولو، لا تذهبي، أرجوكِ!" ضممته والدموع قد أغشَتْ عينَيّ. خرجت السيّدة وأمسكت بيده وأعادته إلى المنزل. تبعني عويله، لكنّني لم أقوَ على النّظر للوراء.

بكيت طوال الطريق حتّى السوق الجديد، المكان المُغبرّ الذي استقللنا منه حافلةً إلى القرية. كان السيّد هياسينث رجلًا صغير الحجم ذا بشرةٍ داكنة، يظهر شخصيّةً قويّةً أو ليّنةً وفق ما يقتضيه الموقف، وقد أظهر القليل من التعاطف بينما صعدنا على متن الحافلة الصغيرة عائدَين إلى نوكينتا.

"زوجة أبيك لن تكون مسرورة." هذا كلّ ما قاله. كان ذلك استخفافًا بتوصيفِ الموقف بكلّ ما تعنيه الكلمة.

عندما وصلنا إلى القرية، انتحبت أمّ نكيمديليم بصوتٍ تعمّدت أن يصل إلى مسامع جميع الجيران. أخبرته أن هذا لم يكن ما توقّعته عندما وافقت على عرضه لإرسالي للعيش مع السيّد وزوجته. ذكّرته أنّه قد قال إنّهم

أناسٌ صالحون، ومع ذلك فقد رموني على عاتقها في هذا الظّرف دون أيّ تردّد، بعد خمس سنواتٍ طوال.

أرادت أن تعرف من فعل هذا بي، وتساءلت ما إذا كان بالإمكان إجباره على الزواج بي. كان السيّد هياسينث يحاول استرضاءَها. لم ينظر إليّ، لكنني سمعت اللّوم في صوته عندما قال إنّه لم يتعرض لمثل هذا الموقف من قبل، وإنّه سيتقصّى عن الأمر ويعلمها بما سيصل إليه. عاد في نهاية الأسبوع التالي وقال إنّه قد تحدّث مع السيّد ومع والدَي أورينا. قال إنّ أورينا أنكر مسؤوليّته إنكارًا شديد اللهجة. حذّر أمّ نكيمديليم من أنّ هؤلاء أُناسٌ أثرياء، وأنه من وجهة نظره، ليس بإمكاننا فعل شيء، فوالداه قالا إنّهما يُصدّقانه، ونحن ال نملك المال وليس بوسعنا اللّجوء إلى الشرطة أو مقاضاتهم في المحكمة. وحتّى لو كان بوسعنا ذلك، فلا طريقةٌ لإثبات صحّة ما قلتُه. من الأفضل أن ننسى الأمر ونتعايش مع الواقع كما هو.

وهكذا، عدت لأراضي القرية الحمراء الغبراء. أصبحت جميع أسطح القرية تقريبًا مُتَعَرِّجة الآن، عوضًا عن أسطح القش للأكواخ التي تركتها ورائي. الناس الذين ما زالوا يعيشون في بيوتٍ طينيّة وضعوا سطوحًا عصريَّةً فوق الطين، كالقبّعات الواسعة المُلوّنة التي ارتدتها السيّدة وأصدقاؤها إلى كنيسة جميع القدّيسين. مع ذلك، نوكينتا لم تَكُن إنوغو، فقد امتدّت فجوةُ التطوّر واسعةً بينهما.

كان بطني البارز - الذي بدا وكأنه انبثق بين ليلةٍ وضحاها كما لو أنه كان ينتظر أن يُفتَضَحَ أمري - إهانةً شخصيَّةً لأمّ نكيمديليم. نعتتني بأسماء كثيرة وأخبرتني أنني فعلت ما لا يُغتَفَر: طاردتُ الرجال. لهذا السّبب أُعدت من لاغوس. والآن بعد أن ذهبت وتسبّبت لنفسي بانتفاخ بطني فقد أُعِدت من

إنوغو أيضًا. أرادت أن تعرف من صديقتها أمّ أودينكيما أين يمكن أن ترسلني حيث سأبقى عاقلة؟ إلى القمر مثلًا؟

قالت إنّها عَلِمَت أنني لا أصلح لشيء، لكنّها كانت تأمل - تخبر الجميع كم كانت تأمل بشدّة - أنّني سأثبت أنّها مُخطِئَة. ومع ذلك، ها أنا قد جلبت العار على نفسي، وقضيت على أيّ أملٍ لي بالحصول على مُستقبلٍ مُشرق (ألم يُرسلني أولئك الناس للمدرسة؟) وأذللتها في نظر العالم بأسره. كنت مجرّد فمٍ إضافيٍّ عليها أن تطعمه، وعلى وشك أن أجلب مخلوقًا آخر ستظلّ يده ممدودةً دومًا في استجداء وتوسّل. حتّى إنها كانت مبتهجة لأنها على حقّ، ولم تُضِع أيّ فرصةٍ لتذكيري أو إخبار أيّ شخصٍ له أُذُنَان بذلك.

لم أَلُمها. بعد أن عشتُ في منزل السيّد والسيّدة الناصع ذو المرحاض الذي يتدفّق فيه الماء، مع احتماليّة أنني كنت لأعيش هناك فترةً أطول بينما أرتاد المدرسة، وبعد أن حلمت أنني سأحصل على عملٍ بمنصب سكرتيرة وأعيش في منزلي الخاص في المدينة، لم يَكُن بمقدور أيِّ شيءٍ قد تقوله أم نكيمديليم أن يعادل مقدار تعذيبي لنفسي جرّاء شعوري بالذّنب. لم أقض على مُستقبلي فحسب، بل خسرت أورينا أيضًا. هل كان لي حقًّا؟ بتّ أراه الآن بالصورة التي كان عليها في ذلك اليوم الأخير، لعلّه كان كذلك بالفعل، بالصورة التي كنت لأراه عليها لو لم يكن الحب يعميني.

علمت أن لا شيء سيطمس تلك الذكرى من ذهني، لا الوقت، ولا المغفرة. لا شيء سيمحو الطريقة التي أنكر فيها علاقته بي أمام والدَيه، وكيف تجنّب النظر إليّ وكأنني غير جديرةٍ بانتباهه. وقفتُ أمام والديه اللذَين نعتاني بالكاذبة ولم أستطع مغالطتهما في دفاعهما عن ابنهما، وأمام ربيّ عملي، اللذين لم أستطع مجابهة غضبهما. في تلك اللحظة، استحضرتُ في ذهني كيف لمسني

أوّل مرّة، ومدَّدني برفق على الأرض الخشنة في الظلام. تذكّرتُ كيف رفع تنورَتي وأخبرني أنّه سيكون رقيقًا معي وكيف شاهدته يتلمّس خَلّة ملابسه، كم كنت خائفةً ومليئةً بالحبّ حينها. أعاد على مسمعي مرارًا وتكرارًا أنّه لن يؤذيني. صدّقته وسلّمت نفسي له بالكامل. لم يؤلمني الأمر بالقدر الذي كنت أخشاه في تلك المرّة الأولى - بالقدر الذي فعلته قسوة أبو إيما - لكنّه لم يُشعرني بمتعةٍ كبيرة؛ فقد انتهى بسرعة كبيرة. إلّا أنني كنت مستميتةً برغبتي لإمتاعه في تلك المرّة والمرّات الأخرى التي تلتها. وقد جلب ذلك لي الخزي والعار الآن، لأنّني تذكّرت نظره المُشاح عنّي ورفضه القاطع بإلقاء أيّ نظرةٍ خاطفة على وجهي في ذلك اليوم.

"الخادمة؟" قال تلك الكلمة باحتقارٍ لم أكن أتخيّل أنّه يمتلكه قَطّ. "لم أفعل أيَّ شيءٍ مع الخادمة."

الخادمة. لقد نسي اسمي، نوابولو، الاسم الذي قال إنّه جميل.

أحيانًا، أفكّر أنّه أراد ببساطة أن يحفظ ماء وجهه أمام والِدَيه، وأمام السيّد والسيّدة. فقد كان ما يزال يعيش في كنف والدَيه في نهاية المطاف. كان ابنًا وحيدًا مُحمَّلًا بالتوقعات الكبيرة، توقّعاتٌ أكبر بالتأكيد من مجرّد عبثٍ مع خادمة. على الأرجح أنّه تأذّى من فضحي له بذلك الأسلوب المُحرج للغاية، مع نظرات وكلمات التهديد والوعيد من السيّدة. لكن ماذا عنّي؟ هل فكّر بي وبما كنت أعانيه، وبما سأعانيه، في هذه الحالة؟

لقد فعلت أسوأ ما يمكن لفتاةٍ غير متزوّجة أن تفعله في نوكينتا - لقد فتحت ساقَيّ لرجل وأعلنت ذلك بجُرأةٍ وحماقة بحملي وبطني الكبير. "إيمنكابوكي!"[12] لقد أعلنت للعالم بأسره أنّ هناك شيئًا أساسيًّا مفقودًا في

(12) (IME NKPUKE) الفتاة التي تنجب طفلًا خارج إطار الزواج بلغة الإيبو.

تنشئتي وأنّني أفتقر إلى العفّة. لن أكون قادرةً الآن على الزواج من شابٍّ من أسرةٍ جيّدة، فأيُّ أسرة ذات تفكيرٍ سليم قد ترغب بفتاةٍ مثلي؟ أيُّ أسرةٍ ستستقبل فتاةً لن يكون لديها ملاءاتٌ مُلَطَّخةٌ بالدماء لتُظهِرَها بعد زفافها؟

سوف أُنجِبُ إلى العالم طفلًا غير شرعيّ سيتعرّض للسخرية من أقرانه. إن كان فتىً، لن يكون لديه إرثٌ تلقائيٌّ من الأراضي. سيتعيّن عليه الاعتماد على صدقات جدّه أو أخواله ليحصل على قطعة أرضٍ صغيرة ليبني فوقها منزله. من الأفضل لو كانت فتاةً، إذ يمكنها أن تتزوّج وتأمل أنّ الناس سينسون يومًا ما كيف أتت إلى العالم. لكن حتّى ذلك يعتمد على وجود عاشقٍ شجاع يمكنه إقناع عائلته أنّها - ابنة امرأة فاسقة وبلا قيمة - لن تكون مثل والدتها، لأنّ هذه الأمور - كما قد يقول أهالي نوكينتا - تسري في الدماء عادةً.

أفضل فرصةٍ لامرأةٍ في وضعي الحالي هي الزواج من رجلٍ مُسنّ لتكون زوجته الثانية أو الثالثة. قد يكون رجلًا لم يُنجِب أبناءً ويأمل في أني أحمل في بطني صبيًّا. ربّما يكون أرملًا توفّيت زوجته تاركةً وراءها أطفالًا صغارًا باتوا بحاجةٍ إلى أمٍّ ترعاهم. أو ربّما يكون رجلًا مُسِنًّا أراد ببساطة الزواج من فتاةٍ شابّة - الأمر الذي يصعب تحقيقه بطُرُقٍ أخرى - ولا يمانع وجود طفلٍ إضافيّ. بتلك الطريقة، سيكون للطّفل اسمٌ وبعضُ الحماية من عار كونه غير شرعيّ. ما كان لامرأةٍ في مثل حالتي أن ترفضَ عرضًا كهذا. كانت عائلتها لتقبل شاكرةً وبارتياحٍ نيابةً عنها قبل أن يُنهي الرجل المُسنّ التفوّه بطلبه حتّى. الأمر أشبه ببيع الطماطم العَفِنة مع اقتراب المساء في السوق؛ حيث يقبل المرء بسرعة ودون الكثير من المساومة عرض أحد المُشترين المشرّدين الباقين القلائل، قد يكون أحدهم انتظر مُتربّصًا ومنتظرًا نهاية السوق اليوميّ.

لقد بعت جَمالي مقابل كوبو واحد[13]، كما ذكّرتني أمّ نكيمديليم، وهو أبخس قيمةٍ ممكنة. كانت أوّل مرّة تعترف فيها بجمالي. والآن، كما أخبرتني، عليّ أن أصلّي لمريم العذراء للحصول على فرصةٍ مماثلة، بيد أنّها لم تستطع التفكير على الفور برجلٍ مُسنّ يبحث حاليًّا عن امرأةٍ شابّةٍ في مثل حالتي الراهنة.

لم يكن هذا نابعًا من حقد أمّ نكيمديليم فقط. لم يكن مثل هذا الزواج سيمنح ابني أو ابنتي بعض الحماية فحسب، بل سيخفّف العبء الذي كانت ملزمةً به لتأمين مسكنٍ لي ولطفلي، مع كل ما يترتبّ على ذلك. لقد عملت بجدٍّ كبيرٍ في المزرعة لتعتني ببعض المحاصيل وتحصدها من أجل بيعها في السوق، ولديها عددٌ قليلٌ فقط من المواعز التي كان يمكنها بيعها عندما تتأزّم الأحوال، كما كان يحصل عادةً. هي، على عكس الكثير من النساء في نوكينتا، رفضت عروض الزواج من عائلة أبي. لم تُرِد أن تكون تحت غطاء حمايتهم وفقًا لما سمحت به الأعراف. وقد قالت سرًّا إنّها لا تريد أن يخنقها أحد. كانت تقدّر استقلاليّتها، وأرادت أن تُبقيَ على أراضي زوجها الراحل، التي كانت ستعود تلقائيًّا لأي رجل سيمنحها "غطاءه"، حتّى يكبر ابنها الصغير نانا على الأقل. كان أنسباء والدي غاضبين للغاية من إظهارها لاستقلاليّتها، ومنزعجين للغاية لدرجة أنّهم تخلّوا عنها وتركوها وحيدةً لتعتني بنفسها وبأطفالها. والآن، هأنذا أمامها، كما كانت تتذمّر، لأضيف عبئًا هائلاً إلى عبئها الذي يقصم الظهر.

جعلتني أعمل بأقصى جهدٍ ممكن. عُدتُ إلى مهامي القديمة وتولّيت بعض المهام الجديدة أيضًا: إحضار الماء من الجدول، وجلب الطعام للمواعز، وأداء الأعمالِ الزراعيّة، وتنظيف المنزل، وتقشير الإيغوسي[14] إلى أن ينتشر

(13) كوبو (kobo) عملة نيجيريا المعدنية.
(14) إيغوسي: نباتٌ شبيه بالبطّيخ واليقطين.

الألم والخدر في أصابعي. أخبرتني أن أصلّي ليرغب فيّ رجلٌ ما، رجلٌ يناسب عاهرةً رديئةً عادت لتوّها من إنوغو.

لم أصلِّ لأحظى برجلٍ مُسنّ كما أخبرتني أمّ نكيمديليم أن أفعل، بل عشت حياتي يومًا بيوم، مُتقبّلةً على مضض ما يجلبه كلّ يوم، دون أيّ تفكيرٍ في المستقبل، ودون ابتهاجٍ بفكرة الطفل القادم. لم أدعُ له ليكون صبيًّا أو فتاة، بل لم أفكّر في جنسه على الإطلاق. علمتُ فقط أنّه سيكون هنا يومٌ ما، تذكيرٌ دائمٌ بالعار الذي جلبته على نفسي. رُبّما، لو عرفت ما سيأتي، لقضيت بعض الوقت أصلّي.

لم أصلِّ لمجيء رجل، لكن مع اقتراب نهاية حملي، عندما كانت قدماي متورّمتَين للغاية حتّى إنني لم أستطع أن أتخيّلهما تعودان يومًا إلى ما كانتا عليه، عندما كنت منتفخةً للغاية لدرجة أنّ الحركة قد باتت بحدّ ذاتها مَهَمَّةً صعبة، أتى عرضٌ لأمّ نكيمديليم. لم أعتقد أنّها ستقبله، فكيف لأيّ أحدٍ أن يأخذ عرضًا مماثلًا على محمل الجدّ؟

أتى هذا العرض لأنّ شابًّا من قريتنا قد توفِّي في حادث. كان يُدعى ناثان، وكان سائق شاحنة، واحدًا من أولئك الذين يقودون شاحناتٍ كبيرة مُحمّلة بالأغذية من الشمال نزولًا إلى الجنوب ذهابًا وإيابًا. شكّل الأمر صدمةً كبيرةً لقريتنا التي خَسِرَت العديد من الشبّان خلال الحرب التي وقعت قبل عشرة أعوامٍ ولم تبدأ بالتعافي من تبعات الأمر إلّا مؤخرًا. دارت العديد من التكهّنات حول من يمكن أن يكون قد قتله. قيلَ إنّه قد تشاجر مع مالك الشاحنة ومات بعد أن غادر منزل الرجل مباشرةً على الطريق إلى كانو. وقال أحدٌ إنّه قد أقام علاقةً مع زوجة الأوغا. تكهّن آخرون أنّ أصدقاءً له كانوا يحسدونه على نجاحاته وقد سمّموا مشروبه في الليلة السابقة. إلّا أنّ كبار السنّ اتفقوا بعد

أن خمدت الشائعات الأولى أنّ التفسير الحقيقيّ هو أنّه ربّما قد شرب أكثر من اللازم، فالشباب لم يدركوا حقًّا قيمة الحياة على الإطلاق، وأنّ محبة عائلاتهم لهم أكبر من محبتهم لأنفسهم.

كان الابن الوحيد لوالدَيه. إنّ القول إنّه كان عزيزًا على قلب أمّه في رأي أمّ نكيمديليم أشبه بالقول إن السُّكَّر حلو المذاق، فذلك بديهي. كانت المرأة أرملةً أيضًا؛ إذ خسرت زوجها خلال الحرب. دمّرها موت ابنها، وبدا لأسابيع أنّ القرية تردّد صدى نحيبها وعويلها. كانت النساء، ومن بينهم أمّ نكيمديليم، يزرنها باستمرار، وقد أخذن معهنّ الطعام والصحبة. بعد مدّة، أصبح صوت عويلها مُزعجاً، ثمّ مُقلِقًا، عندما استمرّ يومًا بعد يومٍ دون انقطاع. كانت تصيح، وتنوح، وتنتحب، وقد رفضت أي محاولة لمواساتها. حتّى خلال طقوس الحداد على الموتى - الأكوا - كان عويلها مدوّيًا، جاعلاً المُعَزّين الذين أتوا من جميع أطراف القرية على مدى الأيام الأربعة يتململون ويتهامسون ويتمتمون بين بعضهم البعض بعدم ارتياح. البعض قال إنّها قد فقدت عقلها، وأنّ الأسى قد سلبها حواسها للأبد.

بعد حوالي ستّة أسابيع، توقّف العويل ولم أعد أفكر في الأمر، لكنّها أتت إلى منزلنا في أحد الأيام. كان الوقت بعد ظهرٍ حارّ وأنا لوحدي في المنزل. وقد خلعت قميصي ولم أرتدِ سوى قماشةٍ لففتها حول جسدي، الذي بدا ضخمًا للغاية بالنسبة لي. كنت أجلس خارجًا، مستخدمةً مروحة أمّ نكيمديليم اليدويّة وأدعو أن تضلّ نسمة هواء طريقها وتمرَّ بمنزلنا لتُخفّف عني حرّ الشمس الحارقة وصديقتها الرطوبة.

كانت أمّ ناثان فيما سبق امرأة ذات وزنٍ زائد، وقد صُدِمتُ لرؤيتها خسرت معظمه جرّاء حزنها، وأصبح جسدها نحيلًا كما كان جسدي تقريبًا

قبل الحمل. أما جمالها الذي كان حديث البلدة في شبابها فقد تلاشى، وعَلَت وجهها الآن ملامح مرارةٍ بدت أنّها نُقشت فوقه بصورةٍ دائمة. حفر العمر أخاديدَ على جانبَي وجنتيها والتفَّ فمها للأسفل - تخيّلت أن ذلك ازدراءٌ للموت والحياة. أمّا شعرها الذي لم تتكبّد عناء ربطه بوشاح، فقد نما كثيرًا منذ موت ابنها وغلب عليه الشيب. لكنّ عينَيها كانتا تتألّقان بشراسةٍ جعلتني أشعر بعدم ارتياح، بريقٌ بدا وكأنّه ينطق بجنونها. أخذت تحدّق إلى بطني.

حيَّيتها قائلة: "طاب نهارك سيّدتي."

رفعت نظرها إلى وجهي وأجابت: "طاب يومك، عزيزتي، أيمكنني الدخول؟"

قدتها إلى الباحة الخلفيّة، حيث نستقبل الزوّار عادةً. جَلَسَتْ على كرسيٍّ منخفض ونظرت إلى الكومة الصغيرة من الإيغوسي التي كنت أقشّرها منذ الصباح.

"أمّ نكيمديليم في السوق الآن، وستعود في المساء."

لم تُبدِ أيّ ردّة فعلٍ على كلامي، عوضًا عن ذلك سألتني: "هل قمت بتقشير كل ذلك الإيغوسي؟" مشيرةً بيدها إلى الكومة الصغيرة. أجبتها: نعم. أومأت برأسها، إيماءة رضا على ما يبدو، ثمّ قالت "إنّك على وشك أن تلِدي"، أجبتها بنعم. بدا وكأنّه لا حرج حيال حملي، من جانبها على الأقل. فالقرية بأكملها على علمٍ بما اقترفته.

جلسَتْ صامتةً طويلًا، يداها تسندان ذقنها، وتحدّق فيّ. جعلني ذلك أشعر بعدم الارتياح. ربّما كان الناس الذين قالوا إنّ الأسى قد أفقدها عقلها مُحقّين. هل كانت تنوي البقاء والانتظار حتّى عودة أم نكيمديليم في آخر المساء؟

وَقَفَتْ بعد حين وقالت: "إنّني ذاهبة، أخبري أمّ نكيمديليم أنني أتيت."

هممت بقول "سأفعل ذلك"، لكنّها كانت قد خَطت مبتعدة.

ذلك المساء، عندما أخبرت أمّ نكيمديليم أنّ أم ناثان قد أتت لكنّها لم تقل ماذا تريد، هزّت أم نكيمديليم رأسها وقالت "يا للمرأة المسكينة!" وتابعت تكسير السمك الجاف الذي ستعدّ به الحساء. وبهذا، نُسيت تلك الحادثة؛ حتّى الأسبوع التالي. هذه المرّة أتت أمّ ناثان في أواخر المساء عندما كانت تعلم أنّ أمّ نكيمديليم ستكون في المنزل. ارتدت قميصًا أصفر ولفافةً بُنيّة، عوضًا عن القطن الأسود الذي ارتدته حين أتت أوّل مرّة. جعلها ذلك تبدو مختلفة، أكثر مرحًا وأقلّ كآبة. تساءلت دون اكتراثٍ حقيقيّ ما إن كانت قد أنهت حِدادها.

جلسَت معنا خلف المنزل حيث كنّا نطبخ كلّ مساء، منتظرين حلول الليل الذي يجلب معه العشاء والنوم. كان نانا، أخي غير الشقيق، يركل علبةً معدنيّةً قديمةً كانت أمّ نكيمديليم قد رمتها بعد أن سقط قعرها احتجاجًا على سنواتٍ طويلة من الاستعمال. كنت أدقّ حبوب الأوغبونو[15] من أجل الحساء. تحرّك الجنين، وكأنّه يتساءل عن سبب اهتزاز جسدي مع كلّ ضربة. أختي، نكيمديليم، كانت تهرس الفلفل بحجر في الهاون الصغير، محاولةً تحويله إلى معجونٍ ناعم، بينما أمّ نكيمديليم تنتف أوراق الأوغو[16] للحساء. بدت ليلةً عاديّة، حيث الجميع يؤدون أعمالهم، لكنّ سرعان ما ستُغيّر أمّ ناثان الأجواء بكلماتها.

"دي نوي أونو!"[17] حيَّت نانا، سيّد المنزل، "دالو!"[18]. رفع ناظريه لفترة

(15) أوغبونو: المانجا الأفريقيّة.

(16) أوغو: يقطين بلغة الإيبو.

(17) (Di nwe uno) تعني مساء الخير يا سيدي بلغة الإيبو.

(18) (Dalu o) تعني شكرًا لك على استقبالي بلغة الإيبو.

وجيزة عن علبة القصدير التي كان يُحوّلها لكرة قدم، لكنّه عاد إليها سريعًا.

أومأت أمّ نكيمديليم برأسها بقوّة؛ بدا لها من الصواب أنّ أمّ ناثان اختارت أن تشير إلى ابنها على أنّه سيد المنزل.

"شكرًا." تابعت شاكرة. هذه المرّة، توجّهت بكلامها لأمّ نكيمديليم. "لقد أحسنتِ صنعًا يا أمّ نكيمديليم." ابتسمت أم نكيمديليم، إذ لم تكن من عادتها رفض المديح. تابعت أمّ ناثان قائلة: "لا يمكن للعديد من النساء فعل ما تفعلينه. أصبحتِ أرملةً في وقت كانت فيه النساء الأخريات ما زِلنَ يستمتعنَ باحتضان أزواجهنّ وحمايتهم وعملهم الجادّ. أنا أيضًا أصبحت أرملةً مثلك. عندما كان زوجي حيًّا، ظلّ يضربني حتّى هدّده أهلي أن يضربوه. ومع ذلك، علمت عندما مات أنّ الحياة أصعب على الأرملة من المرأة المتزوّجة، حتّى لو كان زوج الأخيرة يضربها على الدوام." توقّفَتْ لبرهة.

لم نقل شيئًا، وانتظرنا. تساءَلتُ كيف أمكنها أن تتحدّث بالحُسنى عن رجلٍ كان يضربها، حتّى لو كان ميتًا.

"لا، لا تستطيع جميع النساء أن يربّين أطفالًا لوحدهنّ كما فعلتِ أنت، دون مساعدة رجل. وحتّى الآن في هذه الأوقات العصيبة،" توقّفَتْ ونَظَرَت إليّ ثمّ تابعت "لم تتخلّي عن واجبك رغم أنّ إكونسو قد جلب لك محنًا عصيبة لتحتمليها."

كنت أنا المحنة العصيبة التي جلبها الشيطان لأمّ نكيمديليم. طأطأت رأسي وتابعت الدقّ قليلًا، وشعرت بالطفل يسحب نفسه بكسلٍ من جانب إلى آخر داخل بطني، محاولًا إيجاد وضعيّةٍ مريحةٍ أكثر.

تنهّدت أمّ نكيمديليم بطريقةٍ استعراضيةٍ وقالت: "وحده الربّ يعلم." وأشارت إلى السماء، ثم أردفت: "وحده الربّ يعلم ما الذي أمرّ به. وقد نجوت

من ازدراء النساء الأخريات بفضل قوّته."

جلست لأرتاح، وبدأت ألوّح بيدي كمروحةٍ أمامي، وأتصرّف وكأنني لست موجودة.

بدأت أمّ ناثان تتحدّث عن ابنها. "الحياة"، تنهّدت قائلة، "الحياة هي أصعب أمرٍ على الإطلاق. لو أن الربّ قد سأل الناس إذا ما كانوا يرغبون بالمجيء إلى هذه الحياة، وأخبرنا ما الذي سنواجهه، وطلب منّا أن نختار سواء أردنا المجيء أم لا، كان ذلك ليكون أفضل من رمينا هنا وجعلنا نسبح في أنهار الحياة سواء كنّا قد تعلّمنا السباحة أم لا."

"أتعلمين؟ في عطلة الأسبوع التي سبقت الحادثة، أحضر ابني ناثان الغونغورو[19]، وهي الشاحنة التي كان يقودها، وطلب منّي أن أصعد فيها، ثمّ قادها حول القرية، وهو يلقي النكات ويضحك معي طوال الطريق. تعلمين أنّه كان يحبّ الضحك..." عند ذلك، غرقت المرأة بالتفكير وارتجف صوتها، لكنّها لم تذرف أيّ دمعة. كان صوتها ما يزال مرتعشًا، لكن قويًّا عندما وقفت وطلبت من أمّ نكيمديليم أن ترافقها. قادَتها بعيدًا عن مكان جلوسنا، إلى الطريق المؤدّي إلى حفرة المرحاض. تساءّلت ما الذي أرادتا أن تناقشاه سرًّا.

عندما عادت أمّ نكيمديليم كانت لوحدها. أخذتْ ترمقني بنظراتٍ تأمليّةٍ بين الحين والآخر بينما جلستُ أقشّر بذور الإيغوسي. كنت منهكةً ولم أتساءل ما الذي كان يجول في خاطرها، فقد كنت أتوق لنومٍ عميق. لكن كان بوسعي معرفة أنّني موضوع أفكارها من الطريقة التي رمقتني بها..

في أحد الأيّام - بعد الزيارة الثانية لأمّ ناثان بوقتٍ قصير - وضعتُ يدي في حقيبتي لإخراج مرآةٍ صغيرةٍ كنت قد أخذتها من سلّة القمامة عندما

(19) غونغورو: شاحنة بلغة الإيبو.

كنت أعيش مع السيّد والسيّدة. لم أُعِر أيّ انتباهٍ لمظهري منذ أن عدتُ إلى القرية قبل ذلك بشهرَين. عَلِمتُ أنّ جسدي قد أصبح ثقيلًا، وأنّ الجلوس أو الاستلقاء أو النهوض من كلا الوضعيَّتَين مؤلمٌ للغاية ويتطلّبُ جهدًا كبيرًا. دون النظر إلى مرآة، رأيت أن ساقَيَّ متورّمتَين وأنّ أوردتي برزت من تجاويفها في يديّ حيث كانت تختبئ طوال هذه السنوات دون شكّ. وبطني المسطّح فيما مضى أصبح الآن كبيرًا ومنتفخًا وكأنّ هناك قدر طبخ صغيرة في داخله. لكن أمكنني أن أرى في تلك المرآة الصغيرة وجهي متورّمًا ومستديرًا أيضًا، بدا مُنهَكًا دون أمل، وشبابي تلاشى تقريبًا.

ضحكتُ بصوتٍ عالٍ من فكرة أنّ رجلًا مُسنًّا يريد الزواج بي في حالتي هذه.

أعدتُ المرآة إلى مكانها، وبينما فعلت ذلك، استشعرت يدي شيئًا آخر. كان الملمس المألوف لكتاب؛ كتاب الحكايات الخرافية الذي أعطاني إيّاه إيكينا في الليلة السابقة لمغادرتي إنوغو. أخرجته، وتدفقَّتْ الدموع التي كبحتها طوال الشهرَين ونصف الشهر الماضيَين بحرقة. بكيتُ لأنني اشتقت للفتى الصغير، وبكيتُ لأجل كلّ ما خسرته. بكيتُ لأنني لم أكن أملك أملًا في المستقبل.

كان هذا الحدث الذي جعلني أعاود القراءة من جديد، وراجعت القصص التي قرأتها مع إيكينا. لم يكن إيجاد الوقت لفعل هذا سهلًا، لكنّني قرأت واحدةً من القصص الأربع والعشرين كلّما أُتيحَتْ لي الفرصة.

في بعد ظهر أحد الأيّام، كنتُ أقرأ الكتاب تحت شجرة البرتقال خلف المنزل عندما عادت أمّ نكيمديليم فجأة. سارعتُ للنهوض عندما رأيت ظلّها يظهر أمامي. لم يكن ذلك سهلًا على الإطلاق في حالتي. انتظرتني حتّى نهضت دون أن تساعدني، ولكنّها لم تقل شيئًا لحسن الحظّ عن إضاعتي للوقت بينما

كان عليّ أن أقشّر الإيغوسي وأدقّ الأوغبونو.

"طاب يومك، سيّدتي." قلت لها.

أجابتني "طاب يومك"، ثمّ: "لا بدّ أنّك أكثر فتاةٍ محظوظةٍ في العالم للحصول على فرصةٍ أخرى بعد ما فعلتِه."

شعرتُ بالبرد يتسلّل إلى قلبي وسمعت صوت الهزيمة داخل رأسي. لقد طلب أحدهم يدي للزواج، وكنتُ سأصير زوجة رجلٍ مُسنّ. تساءلت في نفسي من قد يكون.

قالت لي: "أتذكرين أم ناثان؟"، أومأت برأسي، دون أن أفهم ما علاقة هذا بأيّ شيء.

"حسنًا" تمهّلت قليلًا وهي تنتقي كلماتها على غير عادتها، "إنّها تريدك أن تكوني جزءًا من عائلتها."

شعرتُ بالحيرة. هل كان هناك رجلٌ مُسنٌّ لا أعرفه في تلك العائلة؟

نظرت أمّ نكيمديليم نحوي دون أن تنظر إليّ مباشرةً وقالت: "تريد أن تزوّجك لابنها ناثان."

شعرت بجبيني ينعقدُ كما يفعل عادةً عندما أشعر بالحيرة والارتباك. كما حصل عندما رأيت السيّدة تصنع السلطةَ في الأسبوع الأول من إقامتي معهم. تساءلت فيما إذا كانوا سيأكلون ذلك. أوراقٌ خضراء وحمراء وبرتقاليّة، وأشياء أخرى؟ دون سلقها أوّلاً؟ ابتسمت عندما تذكّرت ذلك الآن، لقد كنت "فتاةً بدائيّةً" حقًّا.

"عَلِمت أنّك سترين الجانب الجيّد من هذا العرض." قالت أم نكيمديليم، عند رؤيتها الابتسامة التي عَلَتْ وجهي. "أخبرتها أنك فتاةٌ ذكيّة رغم الخطأ الشّنيع الذي ارتكبتِه. عليكِ أن تشكريني حقًّا على فتح الباب لفرصةٍ مماثلةٍ

للقدوم إليكِ."

لا بدّ أنني كنتُ أحلم حلمًا سيّئًا، ما الذي تقوله؟ إنّها تعتقدني وافقت على الزواج برجلٍ ميت؟ هل سأتزوّج ناثان أم سأتزوّج أمّه؟ لا شيء من هذا بدا منطقيًّا لي. "لا يمكنني أن أتزوّج رجلًا ميتًا يا سيّدتي!" تمكّنت من التفوه بهذه الكلمات أخيرًا. "لا أحد يتزوّج شخصًا ميتًا."

"اسمعي.." قالت بصبر، وهي خصلةٌ لم أعهدها في هذه المرأة من قبل: "أنت ما زلتِ طفلة، ولا تفقهين أعرافنا. لا تدرين أنّه يمكن بموجب العرف أن يختار الأم أو الأب عروسًا لابنهم الميت، خاصّة عندما يكون هذا الابن قد مات شابًّا - مثل ناثان - وبالتالي لم يزرع بذرته لضمان استمراريّة نسل العائلة. ويكون هذا هو الحال خصوصًا عندما يكون الابن وحيدًا. فاسم العائلة ونسلها بحاجة للاستمرار، كما ترَين. هناك بعض الناس ممّن يفعلون هذا أيضًا عندما لا يكون هناك ابنٌ على الإطلاق في العائلة. يمكنهم أن يقنعوا إحدى بناتهم أن تبقى ضمن العائلة، وبالتالي لا تتزوّج، لتتمكّن من إنجاب أطفالٍ سيحملون اسم والدها. أو قد تختار الابنة الصالحة القيام بهذا لإنقاذ نسل عائلتها والفوز بالامتنان الأبديّ من والدها. أو يمكن للعائلة أن تتزوّج امرأةً لتقوم فيما بعد بإنجاب ابنٍ للإبقاء على اسم العائلة حيًّا."

كان كلّ هذا جيّدًا - قلت لنفسي - هذا الدّرس في الأعراف ومعرفة أولئك الذين تنطبق عليهم، لكنّه لم يكن يعنيني في شيء.

"سوف أذكر هذا للأومونّا[20] وأعلم أنّهم سيوافقونني. بالفعل، سيكونون سعداء للغاية. سيكون لطفلك اسم عائلة، وأراضٍ حتّى، إن كان صبيًّا، سيكون فردًا متكاملًا من أفراد نوكينتنا." قالت لي مع ابتسامة.

(20) أومونّا: قبيلة العائلة.

"حتّى لو لم يَكُن صبيًّا هذه المرّة، يمكنك إنجاب صبيٍّ لاحقًا."

أنجبُ طفلاً آخر؟ ممّن؟ نظرتُ إلى وجهها وتساءَلت، ما الذي فعلته لهذه المرأة لأستحقّ كلّ هذه الكراهية التي تُظهِرُها نحوي؟ والآن هذا! لم يكن بوسع ابتساماتها الماكرة إخفاء الحقيقة، أي إنّها أرادت طردي من هذا المنزل الذي بناه والدي ووالدتي.

"لن أتزوّج ناثان أو والدته أو عائلته." قلت ذلك بصرامة. لا يجب أن أدعَ مجالًا للشكّ. لقد كنت مطيعةً للغاية، ألبّي طلباتها كأنّني خادمة، لكن الأمر زاد عن حدّه الآن.

حدّقت بي لبرهة. ثمّ، وبحركةٍ خاطفة، أمسكت بكتاب القصص الخياليّة خاصّتي وألقت به في الطين، راميةً إيّاه أبعد ما تستطيع عن مكان وقوفنا.

"إيّاك أن تظنّي لمجرّد حصولك على بعض التّحضّر في إنوغو، ولمجرّد أنك تستطيعين القراءة، أنّك توقّفت عن كونك حمقاء كالماعز." صرَخَت بي. "إن كنت تظنّين أنني سأُطعمُك وأطعِمُ طفلك غير الشرعيّ الذي تدفعينه في الأرجاء كعربةٍ ذي عجلات، فإنك أغبى حتّى من الماعز."

"لن أتزوّج ناثان ولا والدته." كرّرت قولي.

تراجعت أمّ نكيمديليم خطوةً للخلف، وكأنّها فعلت ذلك لتتفادى مرض الحماقة الذي عشّش في رأسي الآن في حال كان مُعديًا. "لكننا سنرى." وبصقت وهي تسير مبتعدة.

لغرابة الأمر، لم أكُن خائفة. كان العرض خارج حدود العقل والمنطق بالكامل. لن أتزوّج رجلًا ميتًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع

لبعض الوقت، بدا أنّ الأمر قد صار طيّ النسيان. لم يكن حجمي يزداد كثيرًا، لكنّني شعرت بنفسي أصبحت أثقل وأبطأ حركة. عندما تنافس ووبودو وَأونوه على منصب حاكم ولايتنا في عام 1978، فكّرت كم سيكون جميلًا لو أنني الآن أقدّم المشروبات في غرفة جلوس السيّد وأسمع أصدقاءَه يناقشون مزايا كلّ مرشّح أثناء شربهم الويسكي والنبيذ. كانوا سيتكلمون بأعلى أصواتهم عن المرشّح الأفضل لخدمة قضيّة الإيبو، ومَن قد اختبأ خلال الحرب البيافريّة وقد أتى الآن ليحصد أصواتًا لم يزرعها. أمكنني أن أرى في ذهني السيّد وهو يطلب كأسًا جديدًا من حينٍ لآخر عندما يشعر - كما كنتُ أظنّ غالبًا - أن لعاب صديقه قد هرب من فمه بطريقةٍ ما وحطّ في كأس السيّد.

ثمّ أتى ثلاثة رجالٍ من أومونّا - قبيلة عائلتنا - إلى منزلنا ذات صباح. كان اثنان منهما يرتديان الخلاخل والقبّعات الحمراء التي تشير إلى أنّهما كانا رجلين ذَوَي ألقاب، "دي أوزو". تذكّرت آخر مرّةٍ حصلت فيها زيارةٌ مشابهة كانت بعد وفاة عمّي نابوزو بوقتٍ قصير، وبعد عودتي من لاغوس، عندما أتوا ليُقنعوا أمّ نكيمديليم أن تختار زوجًا - حاميًا على حدّ تعبيرهم - من رجال أومونّا. عندما أخبرتهم أنّها تنوي أن تربّي ابنها ليكبر ويحلّ محلّ والده، تركوها لمصيرها، ولتربيتنا بنفسها، بما أنَّها لم تكن بحاجة رجل. كانت تدعوهم سرًّا بالجشعين المتوحّشين - فهم يجدون مذاق لحم البشر أشهى من لحم البقر، على حد تعبيرها. كانوا يتوقون ليضعوا أيديهم على أراضٍ لم تكن ملكهم. كانوا يذهبون إلى الكنيسة - تقول ذلك ساخرة - بعضهم على الأقل، لكنّهم استمروا

بالانخراط في ممارساتٍ وثنيّة وحشيّة.

استدعوا أمّ نكيمديليم، التي استقبلتهم وقدّمت لهم جوز الكولا. من المكان الذي جلست فيه أغسل ملابسي في الخلف، لم أسمع سوى الصعود والهبوط المتناغمَين لأصواتهم. لم يَطُل الأمر حتّى خرجت أمّ نكيمديليم إليّ وأخبرتني أنني مطلوبةٌ في غرفة الجلوس. مسحت يدَيّ، ووقفت بصعوبة، وذهبت معها، متسائلةً عمّا يريدون. لم أستطع أن أستشفّ شيئًا من وجه أمّ نكيمديليم، عالمةً أنّي لا أستطيع سؤالها. لكنّها لم تبدُ مستاءةً من الوفد كما بدت في زيارتهم الماضية.

حيّيتهم قائلة "إنديونو"[21]، وجلست قبالتهم في أحد جوانب الغرفة.

كنت أعرف أنّ هؤلاء الرجال من أومونّا أولياء شرف العائلة وفق العرف. فهم من يستقبلون طالبي الزواج المُحتمَلين وعائلاتهم، مُقدّمين لهم قوائم بالأشياء التي يجب تقديمها للعائلة مقابل تزويج بناتها لهم. كانوا يحلّون الخلافات ويُقدّمون - أو وجب عليهم أن يقدّموا على الأقل - الدعم لأفراد العائلة ممّن وجدوا أنفسهم في ورطة، حتّى لو كانوا خارج القرية. تذكّرت كيف كان أبي يقول في طفولتي إنّ قدوم الدين المسيحيّ قد أضعف الكثير من الأشياء، ومفهوم وحدة المجتمع والأسرة - فكرة الفرد للجميع والجميع للفرد - أكثر من أيّ شيءٍ آخر. لم أكن واثقة ممّا عناه حينها، لكنّني شهدت منذ موت أبي وعمّي كم كانت المساعدة التي قدّمها لنا رجال أومونّا ضئيلة. عندما يأتون بالفعل، فذلك ليأكلوا، ويُصدِروا الأوامر حول أيّ أجزاءٍ مُختارةٍ من المواعز - التي ذُبِحَت عند الدَّفن - ستُعطى إلى أومونّا. والآن، ها قد أتوا هذا الصباح، لكن لماذا؟

(21) (Ndewo nu) تعني مرحباً بلغة الإيبو.

وقفت أمّ نكيمديليم بجوارهم حيث كانوا يجلسون في الغرفة. شعرتُ كما لو أنني أواجه حكمًا ما، لكن من أجل ماذا؟ فلم يعد حملي آنذاك سرًّا. لم يكن لهم علاقةٌ بي إلّا إن كنتُ سأتزوّج. تجمّد تفكيري عند تلك الفكرة. الزواج؟

تحدّث الزعيم أوكيكي أوّلًا. كان رجلًا طويلًا، هزيلًا، ذا بشرةٍ فاتحة، ومعروفًا بحبّه للنساء. عند الإحصاء الأخير، كان لديه أربع زوجات والعديد من الأطفال، بعضهم بالغين بما يكفي لينجبوا أطفالًا، وبعضهم الآخر صغار بما يكفي ليرضعوا الحليب من أثداء أمّهاتهم. كان يذهب إلى الكنيسة لكنّه لم يكن يتناول القربان. لديه رأيٌ راسخٌ أنّه لا يجوز لدينٍ ما أن يأتي ويحلّ محلّ دينٍ آخر موجود ويقول إنّه لن يشارك مساحة المعيشة. لذا كان يعبد أسلافه والآلهة الذين قال إنّهم رعوا قريتنا منذ الأزل. لكنه في الوقت ذاته يذهب إلى الكنيسة أيضًا وحرص على تعميد كلّ طفلٍ من أطفاله الكثر.

"إهن ني!"[22] قال ردّاً على تحيّتي، "كيدو؟"[23]

"أودينما[24]"رددت قائلة. لم أكن بخير حقًّا، لكن الإجابة على سؤال "كيف حالك" تكون "بخير" في كل مكان.

تنحنح قائلًا: "نحن - إخوتي وأنا - قد سمعنا عن وضعك."

وقد جئتم بعد ثلاثة أشهر، تعجّبت في سرّي.

تابع "لقد أصابتنا الحيرة، أجل، لقد تساءَلنا كيف أمكن لفتاةٍ ذات تنشئةٍ جيّدة من فتياتنا أن تضع نفسها في موقفٍ من هذا النوع."

(22) (Ehen, nne) تعني "أهلاً، يا ابنتي"بلغة الإيبو.

(23) (Kedu) تعني "كيف حالك"بلغة الإيبو.

(24) (O DI NMA) تعني "بخير"بلغة الإيبو.

"صحيح، إنك تقول الحقيقة ، الأمر كما قلت تمامًا، لقد أحسنت القول." قال أحدهم وهو الزعيم أنيابوزو.

تابع الزعيم أوكيكي قائلًا: "لقد أبلت أمك حسنًا." ابتسمت أمّ نكيمديليم. "لكنها تملك أطفالًا أصغر سنًّا؛ لا يمكن لمعاناتها أن تستمرّ. لقد تساءَلنا جميعًا عمّا يمكننا فعله. لكنّ لإلهنا عينٌ ساهرةٌ لا تنام، هذه هي الحقيقة." توقّف لبرهة، وانتظرتُه ليكمل. "بينما كنّا نتساءل عمّا سنفعل، ظهر حلّ. أحضر الربّ بنفسه حلًّا. يريد أحدٌ ما الزواج منك."

بدأ قلبي يخفق بسرعة عند سماع كلماته هذه، وصلت المعاني الضمنيّة لرسالته إليّ من خلال نبرته الموزونة ووتيرته المتمهّلة. حدّق بي بينما يتحدّث، وهو يلوّح بذراعيه اللتَين قد بدأ اللحم الزائد يتدلّى منهما. كانت أظافره سوداء، رأيتها، وتساءلت لنفسي متى كانت المرّة الأخيرة التي غسل يديه فيها.

"أعلم أنّ أمك قد تحدّثت إليك. لذا فإن الأمر لن يكون مفاجأةً لك." أمعن النظر في وجهي، وبعدما رأى الهلع في ملامحي تابع. "رُبّما." قال بعد برهة قصيرة، عاقدًا حاجِبَيه: "لم يَكُن هذا عرضًا ستأخذينه بعين الاعتبار في ظروفٍ أُخرى. كما كان شعب الإيبو ليقولوا، إن كنت غير قادر على تحقيق المتوقّع فعليك تبنّي الممكن. هذا هو العرض الأفضل، بل العرض الوحيد في الحقيقة، الذي قد تتلقّينه في حالتك الراهنة. من الضروري أن يحصل طفلك على اسم عائلة. سيجنّبه هذا - ذكرًا كان أم أنثى - الكثير من الإحراج في المستقبل."

"أنتِ طفلة، وعلى الأرجح أنّك لم تكوني تعرفين هذه الأشياء،" أكمل قائلًا. أومأ الرجلان الآخران بشدّة عند قوله هذا. توقّف لبرهةٍ مُجدّدًا، ثمّ أكمل "أمّك قد فعلت كل ما في وسعها. لا يمكنك أن تتوقّعي منها أن تحمل المزيد على عاتقها المُنهَك أساسًا."

حَدَجَني الرجال الثلاثة وأم نكيمديليم بنظراتهم، محاولين تحديد فيما إن كنتُ فتاةً حمقاء سترفض حكمة الناس الذين يسبقونها سنًّا وخبرة، أو إن كنتُ سأصحّح خُطايَ من الآن فصاعدًا.

عندما لم أقُل شيئًا، تابع الزعيم أوكيكي قائلاً: "من أجل مصلحتك، وحتى يكون الأمر مناسبًا لك، فقد قبلنا العرض. لقد أخبرنا عائلة أوكوي أن يأتوا ويشرعوا بطقوس الزواج خلال عطلة نهاية الأسبوع المقبلة. أنا واثق، أجل، وأعلم جيّدًا أن أمّ ناثان ستحرص على ألّا ينقصك شيء. سيعاملونك جيّدًا. نحن هنا، وسنحرص على حدوث ذلك. ليس هناك ما يقلقنا. إنّنا نعرف أنهم سيعتنون بك جيّدًا وأن طفلك سيحصلُ على اسم عائلة."

بحلول هذا الوقت، كانت ابتسامة أمّ نكيمديليم عريضةً بعرض نهر النيجر.

"لن أتزوج ناثان ولا أمّه ولا عائلته." قلت بهدوءٍ عندما عثرتُ على صوتي. علمت أنّ إهانة رجال أومونّا كان فعلًا أحمق للغاية، لكن عليهم أن يدركوا استحالة ما اقترحوه.

"ستفعلين." قال الزعيم أنيابوزو. كان جامعًا لنبيذ النخيل، معروفًا بكونه صارمًا ولكن منصفًا في الآن ذاته. "لا خيار لديك. هذا الطفل في حاجة منزل، وإن كان شخصٌ ما قد تقدّم لتأمين هذا المنزل، فعليكِ أن تتزوّجي من تلك العائلة."

"أجل." قال الزعيم أوكيكي. كانوا أربعتهم يومِئون برؤوسهم كالسّحالي: للأعلى، للأسفل، للأعلى، للأسفل.

وفي تلك اللحظة استسلمت للبكاء، وكنت أشعر كما لو أن رمالًا متحرِّكةً تُهدّد بابتلاعي. أين كان عمّي عندما احتجتُه؟ أين والدي؟ لقد أطاحت بي

جرّافةٌ أرضًا قبل أن أقف لأقاتل حتّى، واندفعت فوقي تمامًا.

أشاح الرجال الثلاثة أنظارهم عند رؤيتهم لدموعي. نظر الزعيم أنيابوزو للأسفل، بينما سحق الزعيم أوكيكي ذُبابةً خياليّة على ساقه. نظرتُ إلى كلٍّ منهم، وانتظرت. تنحنح الرجل الثالث، الذي لم يتحدّث بعد.

كان يُدعى أبا أوغونّا، الذي بقي بجانب زوجته التي لم تنجب أطفالًا لسنواتٍ بينما تعجّب أهل القرية كلّهم من تقبّله الرّصين للأمر وبدؤوا في النهاية يثرثرون حول احتماليّة أنّ رجولته كانت مُعابة. ثُمّ وُلِدَ أوغونّا، ابنهم، بعد سنواتٍ عديدة من الزواج. ربّما كان لديه شيء ليقوله من شأنه أن يُغيّر رأي الآخرين، كما أملت.

"لا تبكي."، قال برفق، ناظرًا بعينين صادقتين. "هذا الأفضل لمصلحتك."

يُقال إنّك إن لم تشأ أن تعرف أمّ أوغونّا عن أمرٍ ما، فعليك ألّا تحكيه لأبي أوغونّا. تساءَلت ما إذا كان قد أخبر زوجته أنّ مهمّته ذلك الصباح كانت أن يُجبرني على الزواج من رجلٍ ميت.

بعد أن رحلوا، تجوّلت أمّ نكيمديليم في أرجاء المنزل وهي تغنّي، مُبتهجة، كسجينٍ على وشك أن يُطلَقَ سراحه. سيُطلق سراحها عن طريق أسري أنا، فكّرت لنفسي بمرارة. في تلك الليلة، عزمت على الهرب. لم أكن أعرف تمامًا إلى أين سأذهب، خاصّةً وأنّ الطفل على وشك أن يولَد. لكنّني كنت واثقةً تمامًا أنني لا أستطيع، ولن أقوم على الإطلاق، بالزّواج من رجلٍ ميت.

في النهاية، لم يكن لديَّ مكانٌ لأهرب إليه. هذه لم تكن قصّةً خياليّة؛ لم يكن هناك من سينقذني في نهاية القصّة. في الصباح، ذهبت للكنيسة، المكان الوحيد الذي ظننتُ أنّه سيمنحني مهلةً ما. قابلت المرشد الديني، وهو رجلٌ من قريتنا، أخبرني أنّ الأب قد سافر في عطلةٍ خارج البلاد إلى إنكلترا

ولن يعود قبل مرور شهر. سيكون الأوان قد فات حينها، شرحتُ له. أخبرني أن ذلك العرف بربري فعلًا لكن لم يكن في وسعه أن يفعل شيء. ليس بإمكانه إيوائي، كما ليس بمقدوره أن يأمر أمّ نكيمديليم - إحدى رعايا الكنيسة - أن توقف التحضيرات المُبهِجة التي صارت تُعدّها لتسليمي لعائلة الرجل الميت في عطلة الأسبوع تلك.

عندما غادرت المرشد ذلك اليوم، خلّفت ورائي إيماني بالكنيسة، وبمريم العذراء، وبالربّ. عدت إلى المنزل خاويةً من كلّ أملٍ في خير البشر والربّ، واستسلمتُ لقدري.

في يوم السبت ذاك، كنت فاقدة الإحساس طوال إجراءات الزفاف، وبالكاد أدركت ما يجري. عندما حان وقت خطاب العريس، وقف رجلٌ من عائلتهم وقال إنّه هنا فقط ممثّلًا عن ناثان. يعرف أنّ ناثان كان ليريد أن يكون هناك بنفسه، وأن يصطحب عروسته الجميلة إلى المنزل بنفسه. عند هذا، ألقى نظرةً على جسدي المنتفخ، مكسوًّا بملابس صنعتها أمّ نكيمديليم على عجل ذلك الأسبوع. جميعهم بدوا مجانين بالنسبة لي، ولكن عندما حان الوقت، ذهبت معهم، ساقاي الخدرتان تتحرّكان بتيبّسٍ للأمام وكأنّ لديهما عقلاً يخصهما.

الفصل الثامن

ذهبت لأعيش مع أم ناثان في بيتها الذي فيه غرفتا نوم وتحيطه أشجار المانغو والبرتقال وسعف النخيل. كان ناثان قد وضع ألواحًا من الألمنيوم ليسقف بها البيت قبل موته بفترة وجيزة. وكانت النوافذ قد وضعت استعدادًا لاستقبال "زوجتنا الجديدة" على حدّ تعبير أم ناثان. لم يقوَ قلبي على الشعور بأي شيء، ولا حتى على بغضها أو لعن القدر، بل وجدتني لجأت للخدر كعادتي حين أواجه ظرفًا قاهرًا.

فعلتُ كل ما في وسعها لجعلي مرتاحة. لم أكن في حاجة لأرفع إصبعًا، إلا حين أبتلع كرات البطاطس الحلوة الطرية التي صنعتها من أجلي. وكانت تطهو حساء طازجًا كل يوم، الأورا المتبلة مع الحلزون يومًا، والأونوبو الحاد المطهو بالبخار مع لحم الضأن يومًا آخر. لم أكن أكنس أو أطبخ أو أحضر الماء من النبع أو أطعم الماعز، بل واجبي الوحيد هو أن آكل الطعام وأتمشى قليلًا حول البيت وأنجب الطفل الذي أحمله في بطني بأمان. شعرتُبالراحة لأنني لم أكن مضطرة لأداء كل الأعمال التي كانت أم نكيمديليم تجبرني على فعلها. لكن تناول الطعام كان عملًا شاقًا في تلك الأيام؛ فقد كنت أشعر بالامتلاء بسرعة ثم أعاني من الحرقة فور الانتهاء من كل وجبة. كانت أم ناثان تقول إن ذلك يعني أن الطفل صبي، وكانت شديدة الثقة بأنّه صبي، لكنها قالت أيضًا إنها ستقبل حتى بنتًا؛ أيًّا يكن ما سيهبه الربّ لها، فهي ستقبله.

ولو كان لي طاقة لأقوى على شيء، لكنتُ ضحكت على إيمانها الراسخ في هذا الإله الذي أخذ ابنها وهو في مقتبل العمر، هذا الإله الذي لم يستطع أن

يليّن قلب خادمه المرشد الديني ليأويني حين كنت في أمس الحاجة للمساعدة، هذا الإله الذي سيهبها طفلًا بطريقةٍ لا يمكن سوى لأشدّ الأعراف شناعة أن تسمح بها.

لم أطق صبرًا في انتظار قدوم الطفل، على الرغم من أنّ ذاك الانتظار كان خاليًا من أيّ حماسةٍ أو توقٍ كالذي كنت أشعر به يملأ داخل أم ناثان. لم أفكر في اختيار اسم له، ولم يتملكني الفضول لأعرف جنسه رغم أنني اعتقدت أنه من المبهج لأم ناثان أن يكون الطفل صبيًّا. بيد أنني مع اقتراب موعد الولادة بتّ أتوق لخروجه، فالتّعب لم يعد يُحتمل، حتى النوم كان شبه مستحيل، بدءًا من إيجاد طريقة أقل ألمًا لأحني جسدي نزولًا إلى الفراش الناعم الذي هيأته أم ناثان لي، إلى التقلّب من جانب إلى آخر، إلى النهوض مرات كثيرة لأتبوّل في الوعاء الصغير الذي وضعته أم ناثان في الردهة ليلًا حتى لا نضطر أن نستخدم المرحاض الخارجي.

وذات يوم، بعد أن مرّ ثلاثة أسابيع على انتقالي للعيش مع أم ناثان، قرّر الطفل أن يريحني من عذاب وجوده في داخلي ويجد له طريقًا إلى العالم. بيد أنه اختار أكثر الطرق إيلامًا لذلك، فقد بدأت الآلام منذ أن استيقظت صبيحة ذلك اليوم. كانت أم ناثان قابلة، وقد ولّدت الكثير من الأطفال في القرية باستخدام الطرق التّقليدية. قالت لي مرارًا حين انتقلت للعيش معها ألا أقلق بهذا الشأن وألا أخاف، وأن الألم الذي سأختبره ليس سوى محاولة الجسد دفع الطفل إلى الخارج. جعلني كلامها ذاك أبتسم؛ إذ لم يشغلني الألم ولم أفكر فيه أصلًا، فالتفكير فيه يعني بالنسبة لي التفكير بالطفل القادم وبكل ما سيأتي بعد ذلك.

لكن الألم في ذلك الصباح استولى عليّ. لم أشعر بالخدر كما اعتدت من

قبل، بل على العكس، كانت أعصابي لأول مرّة في حياتي بكامل حساسيتها، وتصبّ عليّ العذاب صبًّا. أعانتني أم ناثان على السير حول البيت، وجاءت امرأتان أخريان لمساعدتها، ورحن يتآنسن معًا بينما كنت أذوق عذابًا لا أظن أن إنسانًا تحمّله من قبل. كنّ يسمعن آهاتي ويثنين عليّ، وقلن إنني أبلي حسنًا. وكنّ بين بعضهن يعترفن أن الطفل الأول غالبًا ما يأخذ وقته، وسألن أم ناثان ما إذا كانت قد أطعمتني لحم جرذ القصب، وهو ما نفته نفيًا قاطعًا، قائلة إنها تمتلك من الخبرة ما يكفي لتجنّب فعل ذلك إلا لو أرادت أن تجعلني أعاني المخاض لساعات وساعات. نصحنني ألّا أصرخ وإلا فسأعتاد على الصراخ كلّما أنجبت طفلًا. فأجبتهنّ أني لن أفعل هذا مجدّدًا، وأنا أصرخ مؤكدة، فضحكن، لكن دون استهزاء. كل النساء يعتقدن ذلك، إلى أن يرين جزاء ألمهنّ - قالت أم ناثان - حينذاك لن يكون لفرحهنّ حدود وسينسين الألم كلّه كما لو أنه لم يكن. أما أنا فتجاهلت كلّ ما كان يقال: لقد كنت أعلم في نفسي أنّ تلك هي آخر مرّة سأفعل فيها ذلك.

وعندما حان الموعد أخذنني إلى الغرفة حيث تقدمت كل منهن بالتناوب لتشجيعي، وإقناعي، والتوسل إليّ، وأمري أن أدفع الطفل خارجًا. وحين شعرت أن الألم كان كلّ ما هو موجود في هذا العالم، شعرت أن شيئًا ما يخرج من بين فخذي. حينئذ أعتق الألم جسدي، وفي اللحظة التالية سمعتُ بكاء طفل. ورغم إنهاكي مددتُ يديّ نحوه. وضعن الطفل على صدري، فرحتُ ألمسه برفق، وحاولت الجلوس باعتدال لأراه على نحو أفضل.

كان أجمل شيءٍ رأيته في حياتي، ذلك الطفل المجعد والدّبق والملوث بالدم الذي يئن ويتحرك بين يديّ. أحببته منذ تلك اللحظة، وكان الحب يفيض ويبتلع كلّ خدرٍ عرفته من قبل، وكلّ مرارةٍ عشتها في حياتي. شعرتُ أنني ولدتُ

من جديد، وصار لحياتي هدفٌ من جديد: أن أحبّ ذلك الطفل.

لم أتخيل ما هو أجمل من ذلك الطفل المطمئن الذي كان ينمو في أحشائي. كان ينام الليل بطوله منذ الأسبوع الأول تقريبًا، وهو أمرٌ أشبه بالمعجزة حسب ما قالت لي أم ناثان. كان هادئًا، لا يبكي سوى نادرًا، ترتسم على وجهه في الأسابيع الأولى ابتسامات تلقائية تجعل قلبي يقفز فرحًا، دون أن آبه أنه لقصرها لا أتبين ما إذا كان هو يناغشني أم أنني أنا من يتخيّلها.

منذ اليوم الأول كنا أنا وأم ناثان نتنافس في حب الطفل، حول من منّا ستسمّيه، ومن منّا ستغيّر له، ومن منّا ستحمله حين يبكي. كنت أمّه لكن أم ناثان كانت تؤثِر تناسي ذلك. أرادت أن تسمّيه ناثان - على اسم ابنها - لكنني لم أستطع أن أوافق على أن أسميه على اسم رجلٍ لا صلةَ له به. اتفقنا أخيرًا على اسم إزينوا: اسمٌ مناسبٌ لطفلٍ جميلٍ وصالح.

ولأنه ينام طوال الليل، أرادت أم ناثان أن تجعله ينام عندها في فراشها. رفضتُ ذلك بالطبع لكنها كانت تتسلل إلى الغرفة محاولة أخذه، حتى فقدت كل تهذّب ولباقة تعلّمتها أثناء سنوات لم أعرف فيها معنى أن يحبني أحد، ولم أعهد فيها سوى التعامل معي بقسوة وإهمال، خلال سنواتٍ من ملاطفة أطفال الآخرين حين كنت أنا نفسي ما زلت طفلة. وهكذا وجدت نفسي قد صرت مثل قطط أم نكيمديليم بعد أن تلد، شديدة الاحتراز والتّربص. لم أرغب في أن أدع أم ناثان تنام إلى جانب صغيري. أردت أن أرضع طفلي بنفسي، وأن أحمله بنفسي كلما بكى، وأن أغير له القماش حين يتسبب بتلك الفوضى من السوائل ذات الرائحة الحلوة العجيبة. أردت أن أغنّي له لينام. لم أرد أن أتشاركه مع أحد، لا سيما أم ناثان.

صرنا نتجادل حول كل شيء. هي تريد أن تعمّده، أما أنا فلم أكن أريد

ذلك؛ فالإله الذي وقف مكتوف اليدين وهو ينظر إلى أمي تموت وهي تلدني، والذي أخذ أبي مني، ثم لم يمنحني سبيلًا للهرب حين كنت في أمس الحاجة، لا يستحقّ إيماننا به أو عبادتنا له. غير أنني استسلمت لها ورضيت أن نعمّد إزينوا في الكنيسة، حيث كان المرشد يقفُ مبتسمًا وينحني بتزلّف للأب الذي كان قد عاد آنذاك من عطلته.

أرادت أم ناثان أن أطعم الصبي الثريد وعمره لم يتجاوز ثلاثة أسابيع، لكنني رفضت. تذكّرت قول السيدة إنه من الأفضل للأطفال أن يتغذّوا على الحليب وحده حتى عمر أربعة أشهر. كنت حازمة، فربحتُ تلك الجولة. كنا أنا وأم ناثان نظل يقظتين حتى نسمعه يبكي، عندها نهرع بجنونٍ إلى الغرفة لحمله. وحين أصل إليه أولًا، تتحلق حولي منتظرةً أن يفرغ من الرضاعة حتى يتسنى لها أن تحمله وتجشّئه ثم تغني له أغنيات فارغة. وجدتها عدّة مرات تناديه "ناثان".

ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى ذهبت كل الرأفة التي أظهرتها لي في تلك الأسابيع الأخيرة من الحمل. لقد جاءت بي إلى العائلة لأجل طفلي، وكان رفضي لأن تنفرد برعايته لا يناسبها، فبدأت ترسلني لأؤدي مهامًا خارج البيت كجلب الماء من النبع. كنت أذهب، لكنني كنت آخذ معي إزينوا مربوطًا إلى ظهري معظم الأوقات.

راحت أم ناثان تشتكي لصديقاتها أنّي لستُ أمًا صالحة، وأني أفسد الطفل لكثرة حمله، فهو هكذا لن يتعلّم المشي. كانت تقول إنه ابن البيت، غير أني أدرّبه على ألا يفارقني وتذمّرت من أنني أمضي الكثير من الوقت وأنا أقرأ له كتبًا لن يفهمها ولن تجعل منه رجلًا بأيّ حال من الأحوال.

لم تتوقّف عن التّذمر. معبّرةً عن عدم رضاها عن طبخي، وعن انزعاجها

من طريقة أدائي السريعة والمهملة لواجباتي المنزلية، وعن غيظها من مشاويري خارج البيت وإيزينوا معي. وعندما كان تذمرها يعجز عن جعلي أبكي، كانت تقاطعني نهائيًا.

ومع مرور الوقت باتت حياتي مع أم ناثان أكثر صعوبة. فقد كان واجبي أن أنجب الأبناء وحتى الأحفاد. نبّهتني أم نكيمديليم مرّةً إلى حقيقة أن أم ناثان كانت حماتي، وأنها تسدي لي معروفًا إذ تأويني عندها وتظلّلني تحت سقف بيتها، وأن الطفل لها، أن إزينوا ينتمي إلى الناس الذين دفعوا لأجله مهر العروس، إلى الناس الذين منحوه اسمًا. رفضتُ تلك الفكرة بشدة، لكنني مع ذلك أعلم أن ليس لدي مكان آخر ألجأ إليه.

إلى أن جاء اليوم الذي طردتني فيه.

في ذلك المساء عُدت في وقت متأخر من السوق، حيث ذهبت لأشتري لنا الطعام. وكنت قد أخذت إزينوا معي مربوطًا على ظهري، وقد صار عمره وقتذاك أربعة أشهر. نساء كثيرات تحلّقن حولي لينظرن إليه كالعادة كلّما ذهبت إلى السوق. كنّ يتعجبن لجماله، وهو يضحك حين تناغشه إحداهن، وكانت ضحكته تلك بالنسبة لي أعذبَ صوتٍ في الكون، وبدا أن النساء توافقنني. كنّ يضحكن وهن يستطبن بهجته. توسّلت إحداهن أن تحمله فمنحتها ذلك. لا شيء كان يجعلني أسعد من أن أرى الناس تُعجب بابني. فكّرت أنه هو السبب الذي جعل الناس يقبلونني بينهم في القرية، متحاشيةً بحذرٍ التفكير في زواجي من عائلة أم ناثان.

حين دخلت البيت، وجدت أم ناثان في ذروة غضبها، ولم يكن ذلك غريبًا عنها في تلك الأيام، لذا تجاهلتها. أنزلت إزينوا عن ظهري، فقد كنتُ أحمله طوال النهار، فجذبته مني واتجهت نحو الجيران.

مضت عدّة ساعات قبل أن تعود إلى البيت. وحين عادت، كانت خاوية اليدين قائلة إنها لا تريدني في بيتها بعد الآن. في بادئ الأمر، اعتقدت أن تركها إزينوا في بيت الجيران كان نوعًا جديدًا من العقاب لي كلّما تشاجرنا، أو تأديبًا خاصاً للكنّة - أو لعلّها الزوجة - الضّالة؟ لم أعرف يومًا أيًّا منهما كنت. بكل الأحوال سارعت لأؤكد لها أنها لا تستطيع استخدام مثل هذه الحيل معي، لأنني حينها سألصق ابني بجسدي بالغراء إذا ما استدعت الحاجة. لكن كان عليّ أولًا أن أعرف عند أيّة جارةٍ تركته. راحت تتجاهل مطالباتي الهادئة والساخطة في آنٍ بابني إزينوا الذي لا بدّ أنه بدأ يشعر بالجوع فقد كان ثدياي منتفخين بالحليب الذي كنت ما أزال أرضعه إيّاه رغم أنني كنت أطعمه أيضًا بعض الأطعمة الصلبة. رحت أدوس أعتاب جميع بيوت الحي غير أني لم أجده في أيٍّ منها.

بدأت حينها أشعر بالهلع. عدتُ أدراجي ورحتُ أطالب بابني.

قالت إن إزينوا ليس ابني، بل ابن ناثان. ورغم أن صوتها كان هادئًا، إلا أنها بدت كما لو أنها جنّت. لعلّها قد جنّت بالفعل. فأن أفقد ابني، كما فقدته هي، فذلك ما سيجعلني أجنّ. الآن فهمت.

نفد صبري، وبدأت أصرخ وأخبط قدميّ، وعلا الغبار الأحمر مثل غمامة من الحيرة والكدر. ناديت على جيراني وأنا أصيح بأسمائهم: أم جوزفين، إينينيبي، أبا ميشيل. خرجوا جميعًا من بيوتهم، وأذكر أنهم جاؤوا مسرعين بأعين جائعة تطارد فضول آذانهم التي تناهى إليها أن عرضًا دراميًّا لا يفوّت يحدث في مكان ما. بعضهم سأل أم ناثان عن مكان الصبي، وقد أجابتهم بأنّي ساحرة جئتها في أحلامها أهددها بالقتل مرارًا. اتهمتني بالسرقة، وراحت تولول قائلة إن وجودي رفاهيةٌ لم تعد قادرة على تحمل تكاليفها، وأنها باتت عاجزة عن تحمّل

العيش معي ليوم آخر. ظلت تقول إنني ساحرة. ثم أخيرًا اعترفت أنها أخذت الصبي إلى مكانٍ آمنٍ ريثما ينتهي الأمر بيننا.

لم أستطع لا أنا ولا الجيران فهم ما كانت تقوله أو استيعاب ما يجري. ربما أكون ساحرة، حاولت أم جوزفين التدخل، لكن ذلك لا يبرّر لها إخفاء طفل عن أمه.

بدأ الظلام يحلّ، ومع هذا لم تتحرّك أم ناثان لإحضار إزينوا. كانت دموعي حينها قد وجدت لها طريقًا بعد كل ذاك التوتر، فرحت أنحب، فأمسكت بيدي امرأةٌ تدعى أم تشوكوما وصارت تواسيني. حاول بعضهم أن يتوسل لأم ناثان، وآخرون راحوا يكيلون لها الشتائم. لكنها كانت متعنّتة: لن تدعني أنام في بيتها تلك الليلة، واندفعت إلى الداخل وأحضرت بعضًا من أغراضي التي كانت قد وضبتها في كيس. من الواضح أن قرارها ذاك لم يكن وليد اللحظة، بل هيّأت له كما يهيئ الرّحم الجنين للحياة.

في تلك الأثناء استُدعي كبير العائلة، إيشي أوشيغو. وعندما شرحوا له الوضع، أمرَ أم ناثان بإحضار الطفل، لكنها لم تتزحزح من مكانها. قالت إني ساحرة بجسد إنسان وأنني أخطّط لأكل ابنها.

الآن وقد بات الأمر في يديّ إيشي أوشيغو، عاد الجيران إلى بيوتهم حين بدأ أطفالهم البكاء وطلب الطعام. ظلّت أم ناثان مصرة على ألا أنام في بيتها تلك الليلة، ونصحتني أم تشوكوما أن أذهب إلى بيتي. كنت أظنّ أن ذلك البيت هو بيتي! وإذ لم يكن لدي أيّ مكان أذهب إليه، فقد اتجهت إلى بيت أم نكيميدليم. بقيت مستيقظة طوال الليل، أنتحبُ لفكرة أن ابني لم يذق الغذاء بعد.

في اليوم التالي دعت الأومونا لاجتماعٍ عقد في بيت إيشي أوشيغو. لم

أستطع أن أتبيّن تلك المرّة كيف كانت أم نكيمديليم ترى ما جرى، لكنها لم تكن قاسية معي. لقد بقيت معي بينما كنا ننتظر رأي الأومونا. استدعيت إلى الداخل بعد ساعتين، ودخلت وكلّي رجاء، ودخلت معي أم نكيمديليم.

كانت أم ناثان حاضرةً في الاجتماع، لكن إزينوا لم يكن معها، فاغرورقت عيناي بالدّموع. طلب مني إيشي أوشيغو أن أجلس وبدأ يتكلم بنبرةٍ لطيفةٍ كتلك النبرة التي يستخدمها المرء حين يتكلم مع طفلٍ لديه ملاريا. قالت أم ناثان إننا لم نكن على وفاق، فأردتُ أن أحتج، لكنه رفع يده وأمرني أن أبقى هادئة. لم تعد أم ناثان تريد أن تعيش معي، وتلك لم تكن مشكلةً بالنسبة لي، أكّدت له ذلك، فيمكنني أنا وابني أن نعود إلى بيت أبي.

عمّ الصمت.

أطرقت أم ناثان رأسها وراحت تحدق في الأرض بينما الرجال ينظرون إليّ واستطعت أن أتبين في نظراتهم الكثير من الشفقة.

لا يمكن لإيزينوا أن يأتي معي، قال إيشي أوشيغو. فكما هو الحال، فقد طلبت أم ناثان وعائلتها أن نعيد مهر العروس، فلم تعد تريدني زوجةً لناثان. أما الطفل فقد صار لهم الآن؛ لأنّهم زوجوني لناثان من قبل. ففي ثقافتنا، شرح لي بصبر كما لو أنه يشرح لطفل الصغير، أنّ الطفل ينتمي إلى عائلة الأب، لا الأم. إزينوا ينتمي إلى عائلة والده، وهو واثق أن أم ناثان ستسمحُ لي أن أرى إزينوا عندما أزورها في بيتها. كان إيشي أوشيغو يحاول استرضائي، فأنا في النهاية أمّ الصّبي، على حد قوله.

لكن أم ناثان رفضت. كانت هادئةً وحازمة. لم أكن بنظرها أمًّا صالحة. كنتُ أخنقه بتعلقي به، وأرفض إطعامه الأطعمة الصلبة؛ فالنقص في نمو الطفل ظاهرٌ للعيان.

حاول إيشي أوشيغو أن يحاججها قائلًا إن الصبي ما يزال صغيرًا على أن يُفصل عن أمّه. لكن أم ناثان رمت نفسها على الأرض وانتحبت بمرارة، فطلب منا الشيوخ أن نغادر الغرفة. وحين استدعونا ثانية، كانوا قد توصلوا إلى قرار مؤقت: سيبقى إزينوا مع أم ناثان أما أنا فيمكنني أن أراه متى شئت. قالوا إنهم سيجتمعون مجدّدًا بعد أسبوعين لمراجعة المسألة.

أطلقت عويلًا حادًّا. كان واضحًا أن الأومونا لن يعينوني في شيء. جاءت أم نكيمديليم وأمسكت بي. بكيتُ بحرقةٍ غير آبهة بهم وهم ينظرون إليّ.

استثارت قصتي بعد حين بعض الشفقة، لكن أحدًا لم يتدخل. الكل كان يعرف أنه - حتى بعد أن جاء القانون الإنكليزي مع أسياد الاستعمار - وجاءت المسيحية مع المبشّرين، فإن تلك المؤسسات لم تتدخل في الأعراف التقليدية الراسخة. ففي أذهان جميع رجال ونساء نوكينتا - كما في جميع أنحاء أرض الإيبو - لم يكن أحدٌ يجادل في أن الطفل ينتمي إلى أبيه. لا يهم ما أصل ذلك العرف، ولا يهم ما إذا كانت المرأة زانيةً أم لا، فما دام مهرها قد دُفِع، فالطّفل لزوجها. لا يهمّ ما إذا كان زوجها عنيفًا وقد هربت من ضربه المبرح أم لا؛ قد تأتي عائلتها لإعادتها إليهم، لكنهم يعلمون أن الأطفال ينتمون لزوجها. وإذا كانت عائلتها واسعة النفوذ أو تقدميّةً وأخذوا الأطفال أيضًا، فسيظل الجميع يذكّرهم أن الأطفال ينتمون لأبيهم، وأنهم يومًا ما سيعودون إليه.

ذهبتُ لأرى ابني في اليوم الذي تلا الاجتماع. اقتربت منه فضحك مغرغرًا. لشدّة اشتياقي إليه خشيت أن يحجم عنّي كما يفعل مع الغرباء، فتمسكت به ولم أشأ إفلاته حين حان موعد مغادرتي، حتى كان على أم ناثان أن تجذبه منّي عنوةً أمام أعين جيرانها.

تلك الليلة شعرت أن قلبي ينزف وعيناي تذرفان دمًا. في زيارتي الثانية

حاولت أن أهرب به حين كان نائمًا بين ذراعي، لكن أم ناثان وامرأة من قبيلتها - كانت قد أشركتها معها لأجل هذا الغرض بالذات - اعترضتا طريقي وسحبتاه بقوة من بين يديّ، وكانت تلك آخر مرة أرى فيها ابني. حين ذهبت في الصباح التالي قيل لي إن أم ناثان قد ذهبت إلى إنوغو لزيارة صديقة لها، ومنذ ذلك اليوم رحل طفلي معها ولم يعد.

الفصل التاسع

عشتُ وفي قلبي أسى لا يطاق. عالمةً أنني سأموت وما زال في قلبي ذاك الأسى، أو لعلّي بسببه سأموت. لم أدرِ سوى أنه كان ينمو ويمتدّ في داخلي مثل ورم خبيث، وما كان في مقدوري حتى أن أبوح به؛ فقد كانت أم نكيمديليم تمنع الحديث عن الأمر قائلة "إن تلك هي مشيئة الرب، أوشي شوكو." لعلّي سأحظى بالزواج من آخر حين أنسى كل ما جرى، قالت لي. بيد أنني لم أشأ أن أذكّرها أنّي لم أتزوج قطّ.

كان كل نفسٍ أتنفسه من دون ابني عذابًا لي، كلّ صحوةٍ من نومٍ هي تذكير لي بأن حياتي الباقية لن تكون سوى انتظار طويل لإيزينوا. لم تكن لي طاقةٌ على شيء سوى التّمدد في السرير دون فعل شيء. لكن ذلك لم يكن ممكنًا في بيت أم نكيمديليم، فكنتُ وأنا أؤدي الأشغال التي تنتظرني لأعود من إقامتي القصيرة عند أم ناثان واقعةً تحت رحمة الألم ذاك، منازعةً الرغبة في التمدّد ميتة أسفل النبع أو وسط المزرعة.

وكما لو أنني لم أكن أعلم ذلك، صحوت ذات صباح لأعلم أن ابني لن يرجع إليّ، أنّ أم ناثان لم تعد. لم يظهر قومها أيّ ضيقٍ من جراء غيابها، وتابع قومي حياتهم كما لو أن ابني لم يكن موجودًا من قبل.

لم أعد قادرةً على إبصار الأمل، وكأنه أخفى نفسه عنّي، لكنّي عقدت العزم على البحث عنه أينما يكن. توجّب عليّ مغادرة القرية.

عندما ذهبت أم نكيمديليم مع أولادها إلى السوق، تاركةً لي كومة من الملابس لغسلها، وأوعيةً فارغة لأملأها بالماء، ومهمة تحضير العشاء، جمعتُ

بضع قطع الثياب التي أملكها إلى جانب كتب الحكايات الخرافية وحزمتها في كيس، ودسست في صدريتي بعض المال الذي سرقته من مخبأ أم نكيمديليم اليوم الفائت. لم تكن لديّ خطة واضحة، ما أعرفه هو أنني لم أعد أستطيع البقاء؛ لو أنني هربت وأنا حامل، لكان ابني بين ذراعيّ الآن. قرّرت أن أعود إلى إنوغو - لا لأجل أن أرى أورينا - إذ أعلمُ أنه ما يزال ضعيفًا، أنه ما يزال فتى في مقتبل عمره ولا يمكنه مساعدتي، لكن تشيدينما قد تستطيع ذلك، فلديها أقارب في إنوغو، ولربما يكونون في حاجةٍ لأحد ما.

مضيتُ ذلك الصباح. كانت خفة وزن الكيس الذي أحمله في يدي تذكّرني بأني لا أملك شيئًا في هذا العالم، وأني أضعت أثمن ما كنت أملك، وأن حياتي اليوم باتت خفيفةً بخفّة ثيابي البالية. كانت الشمس حارقة، وقلبي ينبض بقوة، لكنّي سرت بحزم، عازمة على الهروب جريًا لو حاول أحدهم إيقافي. لكن لم يكن هناك داعٍ للقلق، فقد كانت المسافة إلى الطريق الرئيس قصيرة ولم أرَ في طريقي أحدًا؛ فجميعهم كانوا قد ذهبوا إلى السوق، أو إلى النبع، أو إلى المزرعة، أو إلى أي مكانٍ تقودهم بطونهم الجائعة إليه. انتظرت لفترةٍ خِلت أنها دهرٌ قبل أن تأتي الحافلة، وعندها عقدت العزم على ألا أستسلم لشيء. موقنةً أنّي سأركل وأصرخ وألكم لو أن أحدًا وقف في وجهي أو حاول منعي من الهروب.

قفزت إلى الحافلة، وكان قلبي ونحن نعبر الأشجار والبيوت المألوفة بأسقفها المصنوعة من الصفيح ورمل القرية الأحمر ما يزال يخفق بقوة. أصابعي تقبض بإحكام شديد على الكيس حتى ظننت أنها ستتيبّس ملتصقةً به إلى أن نصل إلى إنوغو. وإنوغو تلك، مدينة المصابيح الكهربائية ومقصد الكثيرين من نوكينتا، ليست بالبعيدة من القرية.

سارت الحافلة ببطء، وفي مؤخرتها يُسمع صليل عالٍ ويوقفها راكبًا يوقفها

كل بضع دقائق. جهدت ألّا أفكر في كل ما قد أواجهه. لا أحد هناك مدينٌ لي بشيء، لا بسقفٍ يأويني ولا بطعام يكفيني. لم أعوّل على شيءٍ سوى على صداقتي مع تشيدينما، وهي نفسها خادمةٌ تعتمد على الآخرين لمنحها الطعام والمأوى وبعض التعليم.

وصلنا إلى السوق في أوغبيتي بعد الظهر، وكانت تلك المحطة الأخيرة للحافلة حيث نزل ما تبقّى من ركاب. نزلت من الحافلة واستنشقت عبق المكان المألوف: رائحة الطعام، والأجساد، والبضائع، وأصوات الناس يشترون ويبيعون، وغبار إنوغو الأحمر. وقفت برهةً تحت الشمس أذوق طعم ارتياحي.

لم يدم ذلك الشعور طويلًا؛ فقد مرّت امرأةٌ ووقفت أمامي، وكانت تحمل طفلها على ظهرها، وتمدّ يدها إلى الخلف لتثبتها تحت عجيزته لكي تؤمن له المزيد من الحماية. حركتها تلك مألوفة لي للغاية، فلطالما فعلت الشّيء ذاته منذ أن أصبح عمر إزينوا ثلاثة أشهر. وجدت نفسي آنذاك وقد أحرقني الألم، كقطع البصل وقد سُكبت في قدر من الزيت الحارّ، فرُحت إثر ذلك أحاول أن أتنفس بعمق، أشهق ثم أزفر، أشهق ثم أزفر.

ثم اجتاحتني رغبةٌ عارمةٌ في أن أرى وجه الصّبي. وحين تقدمت لألقي نظرة على وجهه، بدأت أمّه السير بخطى قصيرة وسريعة، فتبعتها. عليّ أن أرى وجهه. امرأة شابة بمثل سني تقريبًا، تحمل صينيّةً من الفستق فوق رأسها، جاءت بيننا. صاحت، "فستق للبيع"، وحجبت عني المرأة وطفلها. أردت صفعها، لكنني بدلًا من ذلك نحّيتها جانبًا في الوقت المناسب لأرى المرأة تدفع نفسها هي والصبي داخل حافلة. "طريق آغباني"، صاح الجابي. وتحرّكت الحافلة دون أن أرى وجه الطفل. ماذا لو كان إزينوا؟

ظللت بعض الوقت قبل أن أتمالك نفسي. فليس هذا ما جئت من أجله

إلى إنوغو. لم أكن أعرف أين أخذت أم ناثان ابني، إلى إنوغو، أو أونيتشا، أو كافانشان. لكن التعقّل لم ينفع في تسكين ألمي. حاولت أن أهدأ وأركّز على خطتي التي كانت في أحسن أحوالها ضعيفة وناقصة، غير أنني لم أملك أي خيار سواها.

بدأت رحلتي الطويلة إلى حي الاستقلال. وحين أصبحت قريبة بدأت أصلي لئلا أرى أورينا، أو ابن أرباب عملي السابقين، أو أيّ أحدٍ آخر. مشيت مطأطأة الرأس في الشوارع والمداخل التي لطالما سرت فيها من قبل. لدهشتي لم أرَ أن شيئاً تغيّر. لقد انقلبت حياتي رأساً على عقب من فرط التغييرات التي مررت بها في السنة الفائتة، لذا توقعت أن شيئًا ما لا بدّ تغيّر في المنطقة التي كنت أسكن فيها.

كانت الساعة قد صارت حوالي الخامسة حين وصلت أخيرًا إلى وجهتي. كنت تعبة، والعرق يتصبّب منّي، لكنّي وقفت قرب الشجرة الكبيرة التي لطالما كنّا أنا وصديقتي نثرثر في ظلها، وحاولت أن أسترق النظر من بعيد بحثًا عنها. هل ستكون هناك؟ أم إنها في بيت الخياطة السيدة أوكونكو؟ هل أرسلها والدا أورينا لتتعلّم الخياطة كما كانت ترجو؟ أم لعلّهم طردوها؟ إذا لم تكن في بيت السيدة أوكونكو، هل أستطيع أن أدخل شارعنا؟ هل ستفتحُ الباب خادمةٌ أخرى لو طرقته الآن؟

وبينما كنتُ واقفةً لا أدري ما أفعل، لمحتُ هيئتها القصيرة والبدينة. فتاتان أخريان خرجتا من المنزل معها. كانت تحمل حقيبةً صغيرةً وضعتها تحت إبطها وهي تغلق باب السيدة أوكونكو خلفها. كدتُ أبكي فرحًا لرؤيتها. ناديت عليها، فنظرت حولها ولم تستطع أن تراني على الفور، ثم رأيت عينيها تتسعان دهشةً في البداية، ثم خوفًا. ابتعدت عن صديقاتها واتّجهت نحوي.

ورغم أنني استطعت أن أرى القلق في عينيها إلا أنها عانقتني، وكان عناقًا حارًّا، فتركت نفسي بين ذراعيها؛ لقد مرّ وقت طويل منذ أن شعرت بأيّ عاطفة.

أخبرتني ما جرى في الحي في العام الفائت. كان والدا أورينا مستاءين من تشيدينما. قالوا إنها من جلبني إلى بيتهم. أورينا ما يزال في الجامعة، أردتُ أن أسأل عن أحواله لكني تمالكت نفسي. لم أرد أن تعتقد أنني ما زلت متعلقة به. فالحياة لم تتوقّف بعده رغم أنّه كان لي الشمس التي تعلن قدوم يوم جديد كل صباح. كنت أتوق لأعرف كيف حال إيكينا أيضًا، وهل استعانوا بخادمةٍ جديدة؟ هل تُعامل إيكينا معاملة حسنة؟ سألتها الآن، وقالت نعم جاؤوا بخادمة جديدة للعيش معهم، ربما كانت الفتاة رقم عشرة منذ أن غادرت، فهم يبدلون الخادمات كلّ شهر تقريبًا. لم تكن تعلم كيف حال إيكينا، فهي والخادمة الجديدة لا تربطهما أيّ صداقة.

تابعت تشيدينما أنه بعد أن رحلت أصبحت معظم سيدات الحيّ أكثر صرامة، فكان عليها أن تعود إلى البيت قبل السادسة. وقالت لي إنها سعيدةٌ في مدرسة الخياطة، ورأيت البريق يلمع في عينيها، لكنها بعد ذلك، وقد تذكّرت أحلامي المتناثرة، أخفضت رأسها ونظرت في الأرض. أردتُ أن أطمئنها، أن أقول لها إنه ليس في قلبي أيّ حسدٍ أو غيرة، أنّي لا أشعر سوى بالشّفقة على نفسي وعلى قدري المشؤوم.

"تبدين بصحّةٍ جيدة." قلتُ لها.

فبالفعل، كانت بشرتها بنّيةً وناعمة، تنضحُ بالحيوية والشباب. لم تردّ الثّناء، وعلمت أني أبدو في حال أسوأ مما كنت عليه حين كنت أعيش مع السيدة وأسرتها، فالأسى والأعمال التي لا تنتهي وندرة الطعام كانت كفيلة جميعها بأن تخلّف أثرها على وجهي وهيئتي. علمت أني لم أعد "الحسناء السمراء".

حين سألتني عن الطفل، جهدت ألا أبكي وقلت لها، "الطفل مات."

هذا ما عزمت على أن أقوله للناس، فهو أسهل من القصّة الحقيقية. لم أستطع أن أخبرها عن جمال ابني، وأنه بدأ يبتسم حين سلبوه مني. لم أستطع أن أخبرها عن الحب الذي يجتاح روحك، عن الحب الذي تشعرين أنك لا تقوين عليه، لكنه مع ذلك يغمرك ببهجة لا تستطيعين تحملها. لم أستطع أن أخبرها أني اختبرت موت تلك البهجة وأني عرفت ماذا يعني أن يفقد المرء أغلى ما لديه.

اغرورقت عيناها بالدموع. "هل أنت بخير؟"

"نعم، أنا بخير." أجبتها بكلّ ما تمالكت من قوة.

ساد الصّمت للحظات وهي تحاول أن تجد شيئًا تقوله. "هل كان الطفل صبيًّا أم بنتًا؟" سألتني بلطف، كما لو أنها تحاول أن تتفادى إثارة جراحي.

سكتت قليلًا حين أجبتها أنّه كان صبيًا، وتصوّرت أنها تخيلت كيف كانت تبدو ملامحه.

"لكن ماذا تفعلين هنا؟" سألتني أخيرًا السؤال العالق في حلقها منذ أن رأتني. "هل حصلت على عملٍ في مكانٍ قريبٍ من هنا؟"

"لا،" أجبتها، لكن ذلك كان فاتحةَ كلامي فحسب. كنت أدرك أن عليّ انتقاء كلماتي بعناية. "أم نكيمديليم ..." بدأت، "تعلمين أن الحياة في كنفها شاقّة للغاية."

أومأت؛ كانت تشيدينما تعرف ذلك تمام المعرفة.

"تشيدينما،" تابعت، "ليس لديّ أي مكان أذهب إليه، أرجوك..." توسّلت إليها أن أبقى في بيت أختها التي استقرّت وافتتحت ورشة خياطة حين انتهت من خدمة سيدتها.

"آدانيم؟" قالت متجهّمة.

"نعم، أختك أوزواماكا. هل أستطيع أن أذهب وأبقى عندها ريثما أعثر على عمل؟"

حدقت تشيدينما فيّ. هل كانت تتساءل كيف أن نوابولو، الخادمة الذكية التي حلمت بأن تصبح سكرتيرة وتعمل في الوزارة، تطلب المساعدة؟

تنهّدت. "آدانيم رزقت بطفل منذ فترةٍ وجيزة فحسب. لا أعتقد أن زوجها سيرغب في استقبالك، فشقّتهم في آباكبا صغيرة."

نال مني الإحباط ورحتُ أذرف الدموع، لكن تشيدينما اقتربت مني وأخذتني في حضنها.

"لا يمكنني العودة إلى نوكينتا، إلى أم نكيمديليم." قلت وأنا أنشج بالبكاء. إذا لم أستطع الذهاب إلى أخت تشيدينما فسأتوه. ليس لي أحدٌ في إنوغو.

"تستطيعين الذهاب إلى بيت أختي." قالت تشيدينما بعد أن هدأت قليلًا، "قد تساعدك في الحصول على عمل. سأعطيكِ عنوانها." مزقت ورقة من كتابها ودوّنت عليها العنوان، ثم عانقتني من جديد.

قالت لي إن عليها أن تذهب، فشكرتها، وكنتُ أشعر بالعجلة والقلق في عناقها لي.

عزمتُ على أن أقصد أخت تشيدينما، وأن أركع على ركبتيّ وأتوسل لها. كنتُ مستعدّة لفعل أيّ شيء، أي شيء يتيح لي البقاء في إنوغو.

لوّحت لي تشيدينما لآخر مرّة، ثم هرعت مسرعة. لقد عادت إلى الحيّ الذي كنّا نعيش فيه ذات يوم سويًا.

وحين كان المساء على وشك أن يتّصل بالليل، شرعت أصلّي للرب - الرب الذي سمح أن يُسلب ابني مني، الرب الذي لم أعد أؤمن به - أن تساعدني أوزواماكا، أخت تشيدينما التي سمعت عنها كثيرًا لكنّني لم أقابلها قطّ.

الجزء الثاني

جولي

الفصل العاشر

1973

لمَس عِقدَ الذهب بين ثديَيّ، رفعه قليلًا بأصابعه الطويلة، وتحسّس القرط، كانت لمسته مألوفة، تملّكية كالعادة، أومأ إيماءة استحسان، "أورياكو"، صرخ، "يا مستنزفة ثروتي"، مازحني، ورضاه منّي ومن الحياة بائنٌ من فمه العريض. بلعتُ انزعاجي وأجبته بابتسامة "أوريميلي"، ناديته بلقبه، بمناداته تلك، نهر لا نهاية له، ثروة لا حصر لها، شعرت أنّ الانزعاج تبدّد، كان لدى يوجين صفات لا تعجبني، وكنّا نتخاصم بسببها، غير أنّ كرم روحه - الذي عكسته الهدايا الكثيرة - لم يكن منها، بعد قليل، اتّجهنا نحو الباب، كان يتحسّرُ، بينما أنا راضية.

لم يرني أحدٌ وأنا أراقب خفيةً يوجين يخرج من شقّتي في تلك الليلة التي تجعلها الرطوبة الشديدة دبقة، أرادني أن أنزل معه، لكنّني رفضت، كان حديث الجيران المسبق بذلك الشأن يكفيني ويزيد - كيف لفتاةٍ عزباء أن تُسعد رجلًا في منزلها ليلًا، رجلًا يصل متفاخرًا بسيارة بيجو 404 جديدة، وكأنَّ ذلك حقّه الطبيعي؟

عدت إلى الأريكة التي نهضنا عنها قبل لحظات، أخذت الحقيبة السوداء الصغيرة من على طرف الطاولة المغطاة بالفورميكا، مجوهرات، تعليقة قلادة على شكل إبريق شاي في سلسلة طويلة، كانت جميلةً، تتميّز عن القلادة التي تحمل إصبع سبابة، التي أُعجب بها يوجين قبل قليل بتفاصيلها الدقيقة، كنت أتوق لهدية أوبياجيلي، فأنا من عرّفت يوجين على تاجر المجوهرات في

شارع أساتا، وهو من أحضر قطعة المجوهرات الجميلة هذه التي سأضيفها إلى مجموعة الذهب لديّ التي تكبر شيئًا فشيئًا.

غير أنّي لم أكن راضية تمامًا، حقيقة حتى إنّي لم أشعر بتلك الإثارة القصيرة التي تشعر بها الفتاة لفترة وجيزة حين تقتني شيئًا مادّيًا - خاصّة حين لا تدفع ثمنه - ابتسمتُ شاكرةً له، وضعت يدي الحرّة على يده، مسّدت ذراعه بين المرفق واليد لأنقل له شكري وامتناني بالأصابع والعينين، سخر منّي قلبي الفارغ بصمتٍ؛ إذ إنّه يعرف أنّ ما كان في يدي اليمنى أقلّ شأنًا ممّا كنتُ أرغب فيه، ربّما كانت بدايتي خطأ، وبّخت نفسي، لقد أعطيتُ الكثير بسرعة.

نهضت واتّجهت صوب غرفة نومي، ما من مهربٍ من رائحة عطر يوجين القويّة، وقفت أمام مرآتي، لم تكن بطولي، ومع ذلك كنت أرى فيها قوامي الكامل، نهدَيّ الكبيرين، وذراعَيّ اللتين كان ينبغي أن تكونا أنحف - خاصّة أنّه لم يكن لديَّ حينها أطفال - تنهّدتُ فارتفع صدري ثم انخفض مستسلمًا، خلعت عقد السّبابة، ووضعت عقد إبريق الشاي، تفحّصته على بشرتي، رقبتي الممتلئة، والسلسلة الطويلة التي تنتهي بين نهدَيَّ، آملةً ببعض الراحة، غير أنّي لم أحظَ بها، ظلّ الشعور المزعج يرافقني، صرت في حاجةٍ إلى شيء يشتّت انتباهي عن ذلك الهمّ الذي تمكّن منّي، بحثتُ عن حقيبتي، وأخرجت منها كتابي وبدأت أحضّر دروسي، كان العمل جلّ ما أحتاجُ وقتها.

خربشت، لكن عقلي ظلّ شاردًا، "لا تشمّي ما لا تنوين أكله." كانت أمي تقول لي ذلك عندما كنت أصغر وأجذب الخطّابين كما يجذب العسل النحل، لكن ماذا بشأن الأكل؟ ماذا إن رفعته إلى أنفك وشممته؟ وأكلتِ بعض لقيمات منه؟ وظلّ لغيرك؟ تخلّيت عن التظاهر بالعمل، قمت وذهبت إلى المطبخ، وتفحصّته بتركيز شديد، إنّه صغير، خطر لي، ليست أوّل مرّة يخطر لي

هذا الأمر، ومع ذلك، كان أكبر من اللازم لشخصٍ واحد، هذا ما قالته أمّي حين زارتني أوّل مرّة.

هل كانت شديدة الانتقاد؟ أم أنني حسّاسة للغاية؟

أعرف أنّها لم تكن راضية عن حالتي، فتاة عزباء تسكن وحدها، "لستُ طفلة"، أُذَكِّرها.

"أنتِ طفلة أحدهم حتى تصيري زوجةَ رجلٍ ما" كانت تردّد. تخشى أن يخيف ذلك الأمر الرجال، فتاةٌ عزباء تسكن وحدها، تابعتُ معها سلسلة أفكارها، وتحدّثت مع نفسي: "فتاة عزباء تسكن وحدها وتكسب المال، مستقلّة، تخيف الرجال، وممتلئة الجسم، ومع ذلك لم تؤثّر تلك الأفكار على تصميمي في العيش بمفردي، أثناء سنة من العيش مع معلّمةٍ زميلة، جعلني إهمالها وثرثرتها أشعر بالإحباط، وحرمتني من كلّ خيال، بل إنّي غامرت واشتريتُ سيارةً قبل بضعة أشهر عن طريق قرض السيارة للمعلّمين، منحتني شقّتي وسيارتي قدرًا من الهدوء للتعامل مع هذا العالم.

سكبتُ حساء أورا ولحمًا في صحن، وذهبت إلى غرفة الجلوس للأكل، كانت أوّل ملعقة تفي بالغرض؛ إذ كان الفلفل الأحمر لاذعًا، والأوجيلي في الكوكويام أسمك، ولذعت أوراق الأورا حليماتي الذوقية، تعدّل مزاجي، ولكن لبضع دقائق فقط، فكّرت بأمّي وأبي، كان أبي يقول إنني آدا إيجي أيجمبا[25] حين أريه كتبي وعليها عبارات الثناء لي من قبيل "ممتاز" و"جيّد جدًّا"، وفعلًا انطلقتُ لتحقيق المزيد، كنت الأولى في كثيرٍ من الصفوف، منذ المرحلة الابتدائية، وبعد أن حقّقت المركز الأوّل في امتحانات القبول، حصلت على منحةٍ حكوميّة، وانتقلت إلى مدرسة أبا الثانوية المرموقة للبنات، ابتسمتُ

(25) (Ada eji eje mba) تعني سأبلغ مكانة مرموقة بلغة الايبو.

بأدب، وخفضت رأسي تواضعًا حين قال الناس إنّي فتاة لامعة، أوّل فتاةٍ في قريتنا تذهب إلى الجامعة.

كانت أمّي قلقة بشأن فرص زواجي، "من سيرغب في الزواج من فتاة درست في الجامعة؟" سألتْ أبي الذي ردّ عليها وهو يلوّح بيده، كأنّه يحاول إبعاد بعوضةٍ مزعجةٍ عن أذنه: "ما زلتِ تعيشين في أيّام أمّك"، كان ينظر إلى مقدمة قميصه الأبيض الأنيق المكوي وسرواله الخاكي المكوي جيّدًا، ويومئ إيماءةً تشي أنّه يفهم أكثر ممّن حوله.

ربّما ما تزال أمّي تعيش في الماضي، كان رأيها أن أترك المدرسة الداخلية، وأؤدّي جميع الأعمال المنزلية التي هي من اختصاص النساء، ومع ذلك، أخبرتني أمّي أنّ النساء كنّ قويات في أيّام جدّتي، إذ بينما كان مطلوبًا من كلّ امرأة أن تطيع زوجها، كانت قلوب الرجال ترتجف حين يرين النساء في جماعة، حين يربطن أُزُرهنّ على خصورهنّ، وتتدلّى نهودهنّ العارية، ويواجهن أمرًا ما، ما كان رجلٌ يجرؤ على مواجهتهن. قمعت قوّة مجموعة النساء كلّ مكيدة قد يحيكها الرجال ولا ترضى عنها النساء.

كانت أمّي تقطب جبينها الجميل، متمنّيةً العودة إلى تلك الأيام، فمهمّة النساء على أيامها هي أداء الأعمال المنزلية، ولم تكن لها السلطة التي تمكّنها من منع زوجها من إفساد فرص زواج ابنته، "إنّها أيام الستينيّات"، ذكّرها أبي ليعيد تذكيرنا، ليس فقط باستعلائه الذكوري، بل أيضا بثقافته.

"ثمّة طلبٌ كبيرٌ على الممرضات والمعلمات ليكنّ زوجات، فضلًا عن ذلك، ألم تربِّها لتعرف مكانها وواجباتها، بصرف النظر عن مستوى تعليمها؟ لا أعرف عنك، لكنّي أعرف أنّي بذلت كلّ ما بوسعي، أليس كذلك؟ كان يستدير ليسألني، "الأمر كذلك، يا بابا." أجيبُ بصوتٍ خافت.

كانت أمّي التي لم يسبق لها أن ردّت على زوجها بوقاحة، تنسلّ وراء المنزل لتكمل الأعمال المنزلية التي لن يؤدّيها أحد سواها طالما أنَّ ابنتها تقضي أيّامها من مدرسة إلى أخرى تحت مسمّى التعليم. يجب أن تعرف المرأة مكانها، كما يجب عليها أيضًا أن تتمتّع مثل الرجل بالنزاهة، ذكر أبي أنّ النزاهة أهمّ ما ينبغي أن يتحلّى به المرء، ألّا يكذب، وألّا يغشّ، إذ كانت تلك سمات الشيطان، ألّا يخدع أو يسرق الآخرين، وأن يسعى دومًا نحو الخير، وأنّه ربّى كلّ واحد منّا على تلك الخصال من دون تكبّر، وأنّه عاش حياته كذلك، فكّرت في الدرجة التي سيعطيني إيّاها لو رآني اليوم على هذه الحال.

جلستُ بلا حراك، الوضعيّة التي تعلّمناها في أيّام المدرسة الثانوية، كنت أفضّل ألّا أغشّ أحدًا، فأبي يقول إنّ الكاذبين يُفتضح أمرهم دومًا، لكن لا شيء من تصرّفات يوجين - لا الطريقة غير المبالية التي يبتلع فيها كرات الغاري المكوّرة بشكلٍ فوضوي، ولا في الطريقة التي نزل فيها اللحم في حنجرته، ولا في بروز تفاحة آدم لديه - أشار إلى أنّه يفكّر بجدّية في شراء البقرة التي تذوّق حليبها توًّا، ارتجفتُ قليلًا، كان الليل يمضي وتزداد معه البرودة والوحدة، قبل وقتٍ قصير، قدّمتُ الطعام وتناولتُه مع رجل، وتعالت ضحكاتنا جاعلةً للمساء طعمًا، ثمّ خلعتُ ملابسي وشاهدتُ كيف سيطرت الرّغبة عليه، لكن يوجين عاد إلى البيت، كان عليه أن يعود.

حملت وعائي دون أن أُنهي الحساء الذي فيه، ثم تركته دون تنظيفٍ في حوض غسيل الأطباق الذي لطالما بدا أكبر من اللازم قياسًا بضيق المطبخ. تذكّرت المقولات المأثورة عن أنّ الوقت والفرص لا تنتظر أحدًا والتي تعلّمتها في حصص التعبير في مدرسة أبا المرموقة للبنات، أجبرت نفسي على الجلوس في مكتبي في غرفتي للتحضير للدّروس، قبل معرفة يوجين، كانت لي حياة، لم

أتُق لرجل، برغم الأوقات التي تمرّ والتي أتوق فيها ليدين تفركان نهدَيّ أو حتى ترفعانهما - برغم ثقلهما - بإعجاب، كان ذلك يحدث فقط في الليل، في الصباح، أنهض وأمضي في الحياة مثل الرجال، أُعلّم، أشتري قطعة أرض، أقدّم طلبات لأكون من بين أولئك الذين يرسلونهم في منحةٍ دراسيّةٍ مدفوعةٍ وبدوامٍ كاملٍ إلى لندن.

"ربّما قدر جولي أن تظلّ عزباء." هذا ما سمعت أمّي تهمس به لصديقتها قبل أسبوعين حين ظنّتا أنّي لا أسمعهما، كان ثمة حزنٌ وشيءٌ من الاستكانة في صوتها. "اغسلي فمك بالماء والصابون." ردّت صديقتها، أم ندوكا، وهي أمّ لثمانية أولاد، "ستتزوّج"، رجوت أن يكون كلام أم ندوكا صحيحًا.

كان أخي سكرانًا، رائحة الخمر والسجائر والقيء، وملابس الأمس والعرق، كلّها امتزجت وزكمت الأنوف، ذاك هو مستلقٍ، وفمه مفتوحٌ يسيل منه لعابه على أريكة والدتي، وصوت شخيره مثل صوت محرّك سيارة قديمة.

كنتُ قد جئت لزيارة أمّي من إنوغو - كما كانت عادتي في العطل - أثناء دخولي، مررت ببعض الحطب المكدّس على الأرض الحمراء بجانب سياج النخل بانتظار يدين أقوى من يدَي والدتي العجوز لتنقلاه إلى المطبخ للتقطيع، كانت تلك القوّة لدى أخي أفام، غير أنّه كان كسولًا وخائر القوى، وقد هجره الكون، في لحظةٍ عابرة، أردت أن أحتضن رأسه وأضعه بين ذراعَيّ كما كنت أفعل حين كنّا يافعين ونحبّ بعضنا، لكنّ شيئًا ما انفجر بداخلي، فاتّجهت صوبه مسرعة وضربته على ظهره، كان ظهره كثير اللحم، ومع ذلك قاسيًا، صرخت "انهض! غيرك من الرّجال في العمل"، ربما ليس في يوم السبت، لكن لم يكن ذلك يُشكّل فرقًا في حالته، إذ كان ثملًا في أيّام الأسبوع أيضًا.

اكتفى أفام بالتأفّف وأدار رأسه إلى الجهة الأخرى، ضربت ظهره بكلتا

يدَيّ، سأتذكر هذه اللحظة لاحقًا بأنها اللحظة التي شعرت فيها أنَّ إحدى الصوامل في دماغي قد انحلت، أو ربما لطالما كانت رخوة لكنّها الآن قد أفلتت منه أخيرًا سامحة للمفصّلات داخله بالتهاوي.

"لن أدعك تقتلُ أمّي، أتسمعني؟ لن أدعك." صرخت مثل امرأةٍ مجنونة.

من دون سابق إنذار، ضربني بيده اليسرى وبقوّة على وجهي، كانت الصفعة مؤلمة وصعقتني بضع ثوانٍ، حتى عندما كنّا صغارًا، كان أفام يتفادى ضربي، مع أنّه كان دومًا أقوى منّي، والآن انتقمت منه بضربه ضربات أقوى، على كلّ جسده، وحيثما وصلت قبضتاي، كانت يداي على جسده مثل قارب صغير في البحر، هائم لا حول له ولا قوة في عاصفة، كان عاجزًا عن مواجهة شربه، ومصمّمًا على تدمير ذاته.

حين لم يعد قادرًا على التحمّل، ردّ على الإزعاج الذي حرمه النوم، وقف وبدأ يلكمني بقبضتيه مثل ملاكم، على بطني وأيسر صدري، توقّف حين صرخت، من دون أن ينظر إليّ أو إلى أمّي التي دخلت في تلك الأثناء الغرفة، وصارت تصرخ بصوتها الأجشّ، وتأمرنا أن نتوقّف عن تلك المهزلة، ترنّح، صرت أتنفّس بصعوبة، لم تكن مقاتلة رجلٍ أمرًا سهلًا، خاصّة حين تعلم من البداية أنّك ستخسر.

"لماذا تصيرين ماعزًا، تصيرين مومو[26]، في كلّ مرّة ترين فيها أخاك؟ أين تذهب حواسّك حين تنظرين إليه؟" سألتني أمّي غاضبةً وموجّهة سبّابتها نحوي.

"هل سيوقفه ضربك عن الشرب والسُكر هذا المساء؟ إن ضربك وأرسلك للمشفى، مَن تلومين؟"

خفضت رأسي، وضغطت على بطني في المكان الذي ضربني فيه، كانت على

(26) (mumu) تعني حمقاء بلغة الايبو.

حقّ، لقد جعلت غضبي وإحباطي ينالان منّي، عالمةً أنّ أخي لا يطيق الحماقة، النساء الحمقاوات لا يعشن طويلًا في عالم الرجال، كانت أمّي تقول.

ذهبت أمي لتحضر بعضًا من مرهم علامة روب التجارية. "خذي، فلتضعي بعضًا منه على البقع التي تؤلمك. سأحضر لك بعض أقراص البنادول."كنت أعرف أفضل منها أنّي لست في حاجة لكلّ ذلك، جلست على الأريكة الأخرى، ووضعت ذراعها على مسندها الخشبي الأدكن، وانتظرتني حتى أتناول الأقراص، منذ طفولتي وأنا أكره تناول الأدوية، لكنّها لم تلحّ عليّ، ظلّت تنتظر وحسب، عرفتُ من هدوئها أنّ هنالك محاضرةً قادمة، غير أنّي لم أعرف هل ستكون طويلة أم قصيرة! وضعت إصبعي في زجاجة روب، وأنزلت تنورتي قليلًا، ودهنت على بطني، جفلت، ظلّت أمّي تنتظر، كانت حركتها الوحيدة حين أعادت ربط وشاحها. منذ أن توفّي والدي، قصّت شعرها الطويل والكثيف، كأنّه لم يعد يستحق الرعاية والاهتمام.

"جوليانا"، نادتني باسمي الكامل حين انتهيت من التدليك، لأنّ ما كانت ستقوله كان مهمًّا، أستطيع أن أتذكّر كلّ المرّات التي نادتني فيها باسمي "جوليانا"، حين كنت أهمّ بالذهاب إلى المدرسة الداخلية في مدرسة أبا المرموقة للبنات، وحين جاء أميتشي ليطلب يدي للزواج ورفضته، لأنّ أبي كان يعتقد أني أستحقّ أفضل منه، وعندما توفي والدي لم يستطع أحدٌ أن يواسيني.

"إنّك تحبّين أخاك"، قالت أمّي، كانت حقيقة، لا جيّدة ولا سيئة، "لكنّه لم يعد ولدًا صغيرًا، صار رجلًا..." توقّفت هنا قليلًا، وتفحّصتني بعينين ثاقبتين، كرّرت: "وأنتِ امرأة"، توقّفت وتفحّصت ملامحي لترى إن كانت الرسالة وصلت، "يجب أن تحبّ المرأة نفسها، يجب أن تحبّي نفسك أيضًا، يجب أن تهتمّي بنفسك الآن." توقّفت بانتظار أن أفهم ذلك الأمر ربّما.

ثمّ تابعت لتوضّح: "أخوك سكّير." لوت شفتيها ازدراءً حين جفلت، نفاقًا، من وصفها، في تلك اللحظة، راودتني ذكريات من طفولتنا، ونحن نلعب خارج البيت في أموليري حيث كان أبي يعلّم هناك، حين كنّا نبني أكواخًا صغيرة من الرمل، ثم ندوسها، وحين كنّا ندرس من أجل امتحانات القبول على ضوء المصباح العلوي الخافت، والحفلة الصغيرة التي أقمناها عشية ذهابه إلى مدرسة CKC، حين كنّا نعيش قرب سانت جيمس، أفام راكع أمام والدي، بينما أنا صرت أقمع الحسد وتلك الأفكار الشيطانية السخيفة التي أخذت تذكّرني بأنهم لم يقيموا لي حفلة مثلها ولم يفكّروا حتى بإقامتها حين حصلت على منحة للدراسة في مدرسة أبا المرموقة للبنات، وكنت حينها البنت الوحيدة التي تحصل على ذلك في أموليري عام 1951، هلّل كلّ جيراننا وملأوا بطونهم بالبطاطس الحلوة وحساء أوجوسي احتفالًا بالشابّ الذي حصل على مقعد في مدرسة CKC المرموقة التي كان يدخلها الأولاد الكاثوليك الأذكياء، بعد أن وضع أبي يدَيه على رأس أخي فخرًا وليدعو له، وقف أفام وخاطب الحشد الصغير الذي تجمّع في بيتنا في ذلك المساء، طويلًا، مفعمًا بالحيوية والنشاط، سعيدًا، ومتطلّعًا للغد.

صار ذلك الغد الآن أمسًا، واليوم أطلقت أمّي على ابنها - أمل الأمس اللامع - لقب السكّير. "سيتزوّج يومًا ما"، تابعت أمّي التي كان الجميع يناديها أمّ أفام، "نعم ستتزوّج إحداهنّ أخوك السكّير، لأجل الحبّ، لأجل المال، برغم أنّ الربّ وحده يعلم كيف سيحقّق أيًّا منهما؛ لطوله أو لحماقته أو لأجل الأولاد، لماذا؟ لأنّه رجل، ولديه قضيبٌ بين رجليه، لكنّك امرأة، لها رحمٌ يأتي معه تاريخ انتهاء للصّلاحية.

أليس للقضيب تاريخ انتهاء صلاحية؟ سألني شيطان ضالّ، "المجيء هنا لضربه أو الصراخ عليه أو تفريغ الغضب فيه لن يفيدك أو يفيده بشيء، لن يحلّ

أيّ شيء، اذهبي وعيشي حياتك، جدي رجلًا، أيَّ رجل، تزوّجي وأنجبي أولادًا. أنجبي أولادًا، هذا أهمّ شيء، وهكذا تكونين سعيدة وتحقّقين غاية حياتك."

أردت أن أسألها إن شعرت أنّها - كونها أنجبت سكّيرًا - حقّقت غاية حياتها، لكنّي لم أمتلك القوّة لأكون وقحةً مع أمّي، تأكّدت من ذلك منذ وقت طويل.

"أترين هذا المخمور الذي تنادينه أخي؟"، كنت ما أزال جافلة من كلماتها ونبرة صوتها، "سيتزوّج يومًا من فتاةٍ صغيرةٍ تمشي على عصوين تدعوهما ساقين، وتأمرك ألّا تقطفي برتقالةً زرعتُها أنا أمّك، أو إجاصةً زرعتها أنتِ بنفسك، وماذا بوسعك أن تفعلي حينها؟ لا شيء.

سيصيرُ هذا بيتها في النهاية، بالكاد ستسمح لك بالدخول إليه، إن كان لك بيت فسيمكنك أن تأتي للزيارة، ثم تعودي لبيتك حيث يمكنك قطف برتقالك أو إجّاصك وأكله كيفما تشاءين، والأهمّ من ذلك، تربّين أولادك.

"الأولاد فرحة حياة المرأة، لا الرجال، ولا الزواج، ولا المال، الأولاد فقط، وأشارت بسبابتها تأكيدًا، هل كان أبي سيئًا معها؟ سألني ذلك الشيطان من جديد، "حتى لو كان بائسًا مثل أخيك - وأدعو لك ألّا يكون كذلك، لأنّها ستكون تجربة مؤلمة - سيكون لديك شخصٌ مثلما أنت لي، سيحبّك ويعتني بك في شيخوختك، وستفخرين به، تلك هي فرحة حياة المرأة." توقّفت هنا، وجلسنا بصمت برهة، كانت كلماتها تدخل رأسي رغمًا عنّي، لتتأكّد أنّها ستظلّ هناك، ويتردّد صداها في الأوقات التي لا أرغب أن أفكّر بها فيها على وجه التحديد.

أصلّي للربّ ألّا يفوتك ذلك، فأنتِ هبة الربّ لي، أصلّي لك أن تجدي رجلًا عمّا قريب، وأن يبذر الربّ في رحمك فورًا كما فعل معي حين تزوّجت أباك، وكما

فعل مع أخواتك الأصغر منك حين تزوجن." لقد سمعت تلك العظة، أو بعض العظات المشابهة لها، منذ وفاة بابا، لكنها لم تلغ الإصرار الذي رافق نقلها، ولا الخوف بداخلي من أنّها كانت تنطق الحقيقة، إنّها كانت فرحة قد لا أجدها، لم أقل ما كنت سأقوله قبل سنتين - أنّ المرء يمكن أن ينجب ولدًا من دون زواج - إذ ستقول لي أن أدع تلك الترّهات، وأنّ ذلك لن يحدث بتلك الطريقة، بدأت أشعر بالخوف. خوف من أنني اوكبوكو ناجان![27] البقايا الفائضة عن الحاجة. خوفٌ من أنني عديمة الفائدة كامرأة، غير قادرة على جلب النفع لأيٍّ كان، حتى لنفسي، والآن، بعد كلام أمّي، صرت أخاف ألّا أحقّق ما تعتقد أنّه أفضل شيء قد تأمل المرأة أن تمتلكه؛ الأمومة.

وقفتْ وذهبتْ إلى المطبخ خلف المنزل، عادت ومعها بعض الأوكبا، من أطيب ما أحبّ للأكل، بينما كانت تراقب، قطّعتها بعناية بالسكين التي أعطتني إياها، ووضعتُ قطعةً صغيرةً حمراء رطبة في فمي من باب الالتزام أكثر من الجوع، لكنّها كانت طريّةً وشهية، ولذا لم أعد مجاملة، كنتُ أحيانًا أشتري الأوكبا في إينوغو، أمام مكتبي تمامًا، إلّا أنّ أمّي صنعت هذه بنفسها كالعادة، ولم تكن فقط بالمقادير المناسبة وممزوجة بالطريقة الصحيحة، بل أيضًا فيها لمسة العائلة والحبّ.

وأنا آكل، بدأ التوتّر يتبدّد، خرج من الغرفة، وبدأ يبحث عن بيوتٍ جديدةٍ ليسبّب المشاكل فيها، بدأنا نتحدّث عن أمور معتادة، ظلّ أفام في عقلي وعقل أمي، لكنّنا لم نتحدّث عنه من جديد، لم يكن ثمّة شيءٌ آخر لنقوله بشأنه، تحدّثنا عن غريس، آخر ابنة لأمّ مايك، التي كانت ستذهب إلى المدرسة الثانوية، جاءت أمّها لتطلب مشورة أمّي إن كان عليهم أن يخطبوها لأحدٍ قبل

(27) (okpokwu nna ja-anu) تعني الفتاة التي يزوّجها والدها بلغة الايبو.

ذهابها، قالت لها أمّي إنّ أيّام خطوبة الفتيات في سنّ صغيرة قد ولّت منذ زمن، وإنّها ستجد زوجًا حين تنهي المرحلة الثانوية، أكّدت أمّ أفام لأمّ مايك أنّ فرص الفتيات المتعلّمات في الزواج أكبر هذه الأيّام، فكّرت بذلك الكلام بصمت في محاولة للتوفيق بين آراء أمّي المتضاربة.

ثمّ تحدّثنا عن إبنيزر، وهو ابن عم بعيد، مات ابنه وسيدفن في الأسبوع القادم، كان أخوه الأصغر يحضّر مدفنًا للعائلة على قطعة أرض لأبيه ليدفنوه بطريقة لائقة، كان أبوه رجلًا سخيفًا مبذّرًا، تزوّج وأنجب من زوجته ثلاثة أولاد، وانتقل للعيش في لاغوس، ورفض العودة للبيت أو إرسال ما هو أهمّ من حضوره؛ المال، فتنته امرأة من مدينة كالابار، وما من قدرةٍ غير القدرة الإلهية تستطيع فصله عنها، مات ابنه ولم يأتِ الأب السّفيه بعد.

بعد مرور بعض الوقت، وصل إكويوزو، شقيق والدتي، وانضمّ للنقاش، نهضتُ لأحضر الحطب، وضعته في الخلف، وبدأت أقطّعه بالفأس، ثم كدّسته بشكلٍ أنيقٍ في زاوية من مطبخ أمّي الصغير، صببت ماءً من وعاء الفخار المخصّص للماء بكأس ألمنيوم نتركها دومًا فوقه، كان باردًا ومنعشًا لي، لم أشرب مثله في المدينة، دخلت أمّي المطبخ، وأخذت، وهي تتمتم عبارات الشّكر، سمكة من فوق الشِباك التي على الموقد الذي تشوي عليه عادة السمك واللحم، كانت تلك عادتها منذ الطفولة بالشكر والرضا واللطف، أكلتُ قطعة من السمكة، ووجدتها شهية كالعادة.

لاحقًا، رأتني أمّي أخرج، لم تكن من أولئك الذين يوزّعون العواطف بالمجّان، لذا عانقتها بسرعة وركبت في السيارة، كان أفام نائمًا طوال الوقت، ولم يستيقظ إلّا حين أدرتُ محرّك السيارة، كان يضع إحدى يديه على رأسه، عرفت أنّه يعاني من صداع، لوّح لي متكاسلًا بالوداع من الشّرفة، يبدو أنّ عراكنا صار

نسيًا منسيًّا، "قودي بحذر." قالت أمّي، كما تقول كلّ مرّة أزورهم فيها، كانت ما تزال قلقةً من قيادتي، قلقة من أنّ السيارة تبعد الرجال وتفزعهم، أخبرتها أنّي لن أبذّر نقودي على سيارات الأجرة، في حين أنّي أستطيع شراء سيارة، جعلها عنادي تهزّ رأسها، وتطلب من مريم العذراء أن تساعدني لأعود إلى رشدي، واضح أنّ مريم العذراء لم توافقها الرأي، لأنّي اشتريت سيارة فولكس واجن حمراء، كنت فخورة جدًّا بها، وحسرتي الوحيدة أنّ أبي مات قبل أن يراها.

"لا تنسي ما قلته"، أضافت بعد توقّف.

"سيكون الأمر على ما يرام، هل تسمعين؟ "نعم، ماما" قلتُ لها مع ابتسامة، وضعت محاضرتها عن الأمور المهمّة التي يجب على النساء تحقيقها جانبًا لأحلّلها وحدي في الليالي الهادئة في إنوغو.

الفصل الحادي عشر

كلّما زرتُ المكان، نبض قلبي بسرعة في صدري مثل قرع طبول أكوكون. كانت الرائحة الغريبة القذرة التي تزكم أنفي تذكّرني بأنّي أريد أن أكون في أيّ مكان عدا هذا المكان، ذي الرائحة التي لم تتغيّر منذ وفاة بابا. أفزعني ذلك، فالمشفى يعني الموت، واليوم كان أفام مستلقيًا على جنبه عندما دخلت الغرفة. والدتي نائمةٌ على كرسيٍّ في الزاوية، سبعة أيّام وهي تنام على تلك الوضعية، مذ جاء أفام، أي حين يغلب جسدها إرادتها وتنتصر احتجاجاته على رغبتها في أن تظلّ ترقب ابنها، لم تستحمّ منذ أيام، ورفضت كلّ توسلاتي لها أن تأتي إلى شقّتي لتستريح.

لم يتغيّر كلام الأطبّاء طيلة الأيام السّبعة، إنّه في غيبوبة، ما من شيءٍ يمكن فعله غير الانتظار والصلاة. وقفت أحدّق بأفام، راجيةً أن يستيقظ، فكّرت بدموعه حين مات بابا. قال لي وقتئذ: "لقد خذلته." بقيت صامتة، إذ كان ذلك صحيحًا، دوّى صوته الجهير في غرفة جلوسنا الصغيرة "عندما مات شيما، عرفت أنّ الحرب انتهت".

كان شيما أعزّ صديقٍ لأفام، شابّ بسيط بصوتٍ رخيم مثل صوت أخي غير أنّ صوته وأفعاله كانا أكبر منه، خدم تحت إمرة الكولونيل أكوزي، ولكثرة مناقبه وقدرته على إلهام الرجال، قال كثرٌ إنّ أوجوكو سيجعل منه جنرالًا قبل انتهاء الحرب، لكنّه مات في جبهة أمواهيا. "جولي، أتمنّى لو أنّي متّ في الحرب مثل شيما" أسرّ لي أفام ذات مرّة.

على عكس الكثيرين ممّن عرفناهم، عاد أخي من الحرب، عاد أنحف،

نعم - عظما الترقوة وتفاحة آدم بارزة للغاية - لكن من دون إصاباتٍ ظاهرةٍ للعيان، غابت ابتسامته على كلّ حال، يبدو أنّ ثمة شيئًا لا يمكن وصفه أو تحديده قد تحطّم بداخله، اختفى الفرح والشغف اللذين كان يغني فيهما أغاني الحرب حين انضمّ للجيش، وكلّه حيوية عام 1968 وهو ابن أربعة وعشرين عامًا، كان مثل قطعة حطب اشتعلت ثمّ انطفأت، تاركةً جمرًا ينطفئ ببطء.

"لا، لا تقل ذلك." اعترضتُ مباشرة.

لأنّ ذلك هو المطلوب حين يتمنّى الناس الانتحار، تقولُ لهم لا، عندما يرون كلّ ليلة الكوابيس مثله، تبدّد مخاوفهم وتخبرهم أنّ كلّ شيءٍ على ما يرام، كلّما أتذكّر ذلك الحوار مع أفام، أعلم أنّه كان ينبغي عليّ أن أدعه يتكلّم، كانت أوّل مرة يتكلم فيها معي من قلبه - كما كنّا نفعل قبل الحرب - لكنّي أسكتّه، وأبقيتُ أفكاره حبيسة صدره.

بعد الحرب، صار أفام يمشي بلا غاية، هام على وجهه، كأنّه فقد عينيه في الحرب، لو أنّه عاد إلى المدرسة، لشعر أبي بالرضا وظلّ لديه الأمل بالعائلة، بمستقبل ابنه المشرق، لكنّه لم يعد، رفض كذلك حديث أبي عن الزواج، كيف يمكن له أن يتزوج من دون عمل؟ كيف سيطعم العائلة؟ كان يسألُ أبي حين يفتح معه الموضوع.

ذهب إلى لاغوس، لكنّه لم يمكث طويلًا، قال إنّ أيًّا من أصدقائه لم يستطع مساعدته.

سألته: لماذا على أصدقائك أن يساعدوك؟

عاد إلى إنوغو التي عدتُ إليها لأعمل معلّمةً في المدرسة الثانوية، ينام صباحًا ويجعلني أسهر معه ليلًا نتحدّث عن طفولتنا، أو أيّ شيءٍ إلّا عن الحرب وخططه في حياته.

ذكّرته أنّه تحدّثَ عن الذهاب إلى الولايات المتّحدة، إلى جامعة ستانفورد ليكمل دراساته العليا بعد التخرّج في جامعة لاغوس، الفكرة التي أُعجب بها بابا أيّما إعجاب.

ردّ عليّ أنّ ذلك كان قبل الحرب، كأنّ ذلك شرحَ كلّ شيء.

قلتُ له إنّ الحرب انتهت.

حارَ جوابًا؛ كانت ستانفورد ببساطة حلمًا آخر قتلته الحرب.

ترك شقّتي وانتقل للعيش مع أحد معارفه، ثمّ مع صديق، كان مثل قاربٍ تائهٍ في نهر نجيني وما من أحد يقوده.

لكنّه ليس الوحيد الذي خذل بابا؛ فأنا خذلته أيضًا، حتى وهو على فراش موته، أوصاني أن أعتني بأخي، وأن أضمن أن يصير ذا شأن، صلّيتُ أن يستيقظ أفام، أن يُشفى ويصير على ما يرام، لم أستطع تحمّل خذلان بابا الذي ظلّ يرافقني طيلة حياتي.

عندما كنا صغارًا، كرهتُ اللقب الذي يناديني به أفام، كان يناديني "أكبا أكبو"[28] بسبب بدانتي. ضايقني بلا رحمة، كنّا نتقاتل فيما بيننا، لكنّنا نظهر للآخر أنّنا يدٌ واحدة. أحببت ذلك وأحببته، كان أخي أذكى منّي، لكنّ كثيرين من خارج العائلة جهلوا ذلك؛ لأنّني كنت دائمًا الأولى في صفّي نتيجة الانضباط والعزيمة لا أكثر، كان يقع في مشاكل مع أصدقائه - يذهب إلى النهر ويلعب، في حين عليه أن يقطع العشب ويجلبه للبيت ليطعم ماعز أمّي. كان يهرب من المدرسة ويذهب ليسرق الفاكهة من أشجار المانغو والأودالا، وينضمّ إلى الأولاد الذين يلاحقون أرواح النهر، تلك الكائنات الروحيّة التي كان يقول عنها أبي الكاثوليكي المخلص إنّها من الشيطان.

(28) (Akpa Akpu) تعني كيس ثقيل بلغة الايبو.

لم ينفع ضرب أبي المتكرّر بعكازه، ولا محاضرات أمّي أو شدّ أذنه في كبح حماس أفام للمشاكل أو رغبته بالمغامرات، برغم كلّ صرامة والدَيَّ، كان روحًا مرحة، والابتسامة دومًا على وجهه، ويتمتّع بكلّ حماقة الشباب.

كان بابا يناديني إلى غرفة الجلوس، أجده ومسبحته بين يديه يفرك خرزها، يجلس على أحد الكرسيين اللّذين أعطاهما إياه أبٌ مبجّل، وأجلس على الأرضية الترابية أمامه، ينظر إليّ ويقول: "عليك أن تعتني بأخيك، إنّه ذكي، لكنّه أحمق أيضًا، ما زال أمامه الكثير ليتعلّمه، لكنّك جئت إلى هذا العالم شبه مستعدّة".

أحببتُ الطريقة التي وثق فيها أبي بي، وأنّه عهد إليّ بالمسؤولية، جعلني ذلك أشعر أنّي مقرّبة منه، ومع ذلك، برغم أنّي كنت أحبّ أخي كثيرًا، إلّا أنّ العناية به كانت أمرًا استثنائيًّا لأنّي كنت أفعلها من أجل أبي، عالمةً كذلك أنّ الأمر مهمّ لبابا، فبعد أخي أنجبت أمّي ثلاث بنات قبل أن تتوقف عن الإنجاب، وهكذا ظلّ أخي ولدًا وحيدًا عدّة سنوات، يحمل الأولاد فقط اسم العائلة، وهم من يضمنون أنّ اسمها لن يضيع.

كان أبي يقول لأخي: "اسمع، اسمك أفاميفونا، واسمك الآخر أوغونا، من يجلب الشّرف لأبيه، لهما الوزن نفسه، لم أخذل والدَيّ، وأعلم أنّك كذلك لن تخذلني، ولن تخذل اسم عائلتنا الكريمة، وفي الوقت المناسب، أنت وإخوانك - إن شاءت القدرة الإلهية منحنا المزيد من الصّبية - ستحملون إرث عائلتنا العظيم وتنقلونه إلى أولادكم".

أفام، تصغير لأفاميفونا، هو اسم أخي الذي سيحمل اسم العائلة، ويعني: "عسى ألّا يُنسى اسمي أبدًا". حين لم يأتِ صبيان غيره مباشرة، صار للاسم مغزى أكبر، كان سجلّه الأكاديمي وطوله المتزايد يبشّران بالخير بالنسبة للمسؤوليات

التي على عاتقه، أمّا ولعه باللعب والطيش فكانا يشيران عكس ذلك. يجلسُ أبي معه جلسات خاصّة ليشرح له عن تاريخ عائلتنا، حين لم يكن لديَّ عمل في المطبخ لماما، كنتُ أحضر تلك الجلسات، فنجلس على حصيرة أمام المطبخ، وأبي ينظّف أذنه برأس ريشة ديك، وأمي تقشّر بذور البطيخ الأبيض على ضوء مصباح الكاز والقمر اللذين يبدّدان الظلمة، تفسد أضواء الكهرباء الساطعة حميمية المساء، وبمرور الوقت، في أوموما، مهّدت مصابيح الكاز الدرب لمصابيح الكيروسين والأضواء الكهربائية العَرَضية، ومن ثَمّ للمصابيح القابلة للشحن، وبعدها للمولدات المزعجة. كان لدى أبي الكثير من القصص، وصوته الرخيم مليءٌ بالمشاعر الآسرة - تتقلّب بين المرح والحزن والغضب، ولكنّه لا يفقد الأحاسيس أبدًا.

كان الحديث أحيانًا عن مغامراتٍ في بلاد أجنبية، مثل الحرب في بورما، ومرّات عن عائلتنا، كيف كان يعبد أجدادنا الآلهة القديمة، وكيف هرب والدنا - لجدي ولدان فقط - من حفل تخديش الجباه، كان خدش الجباه مؤلمًا ويسبّب خطوطًا على الوجه تتقاطع على الجبهة، ويفعلها في تلك الأيّام أبناء النبلاء، بدءًا من الأكبر لتمييزهم على أنّهم من طبقة نزي وأوزو المخمليّة - مجتمع رجال يدافعون عن الحقيقة - كانت قطعة المعدن الحارّة تكوي الجبهة، بينما يكتفي الشابّ، وفي استعراض للقوّة، بتحمّل الألم مع بعض الهمهمات العرضيّة القصيرة.

انضمّ أبي للكنيسة الكاثوليكية، مخاطرًا بتعريض جدّي للاستياء في قبره. حين أصبحتُ بالغة، خطر لي أنّه لولا عادات العائلة وتقاليدها والخوف على استمرار النسب، ربما لفكّر بالكهانة، لا بدّ أن والد بابا له يدٌ في الكثير من عادات العائلة وكبريائها وتاريخها. كان بابا كاثوليكيًا ملتزمًا، ولكنّه مؤمنٌ

أيضًا أنّ نسب العائلة يجب أن يستمر. عندما كبرنا، صار يقول كلّما سنحت له الفرصة ووجد ولدًا يستمع إليه، إنّه يجب أن نعرف نسب عائلتنا، فيقول: أنا مسيحي، لكن على المرء أن يحمي إرثه، وإلا ستصبح الحياة بلا معنى وفارغة، كما يقول المؤلّف الحكيم لسِفر الجامعة. يتوقّف عن الحديث، وينظر باهتمام إلى أفام - الذي كان ينظر خلفه - كانت عيناي دومًا متسمّرتين على وجه أبي، أنهل من كلماته وقصصه عن عائلتنا.

تابع أبي: "بالانضمام للكنيسة والحصول على التعليم، سلّطت الضوء على عائلتي، واجب كلّ فرد جديد في العائلة أن يضيفَ شيئًا جيّدًا لها، أن يحافظ على استمراريتها." كنت فخورة بالمساهمة التي قدّمها أبي للعائلة، في الوقت الذي صارت فيه الفلاحة والألقاب القديمة من الماضي، برزت عائلتنا في العالم الجديد على أنّ أفرادها أناس محترمون - ملقِنون للدين المسيحي، ومعلمون، ومديرو مدارس، وموظّفون مدنيون، وسياسيون.

"هل تفهم ما أقول لك؟" يبادر أبي بسؤال أفام حين ينتهي من قصصه، يحدّق به تحت ضوء الكاز الخافت.

يجيبُ أخي بنعم، مع أنّه كان يقرصني في الظلام، أو يلعب ولا يأخذ كلام أبي على محمل الجدّ، ويريد منّي أن أفعل مثله.

"هذا هو ولدي." قال أبي وعلامات الحبّ والرضا على وجهه الصارم. يخطر لي أحيانًا أنّي سأكون ابن بيتٍ أفضل منه، إلّا أنّ مسؤوليتي لم تكن حمل اسم العائلة، بل ضمان أنّ من سيحمل الاسم سينجح في مهمّته، لذا، عندما كنّا في سنّ السابعة، والثامنة والتاسعة، كنت آخذ بيد أخي ونمشي إلى المدرسة التي يدرّس فيها أبي في أيّ بلدة كانت، أوكا، نانكا، أويي، أوموليري، وأتدخّل في مشاجراته مع الآخرين، وأتأكّد من كتابته وظائفه.

ومع ذلك، كان أفام طيّبًا، يوفّر وجبته ليتشاركها مع أصدقائه الذين لا يستطيع آباؤهم توفير ثلاث وجبات لهم في اليوم، يقاتل من يتنمّرون على أصدقائه، مستفيدًا من ميزة طوله، لطالما جعلني صبره في شرح الواجبات المدرسية أعتقد أنّه سيكون معلّمًا عظيمًا، أخبرتُ أبي مرّة بذلك، لكنّه قال لي: "لا، لن يكون معلّمًا، سيكون محاميًا، ربما سيصير قاضيًا مثل القاضي لويس مبانيفو، أو قد يصبح سياسيًّا مثل الرائع زيك، أنتِ ربّما تصيرين معلّمة، ويمكنك أيضًا أن تصيري ممرضة، أو حتّى طبيبة، سمعت أنّ ثمة طبيبات في يوروبا". بدا لي أنّنا قادرون على أن نصبح أيّ شيء نرغبه. أنهينا المدرسة الابتدائية، ودخلنا أفضل مدرسة ثانوية، كان أبي يجد مدخلًا ليحكي عن ذلك لكلّ من يزور بيتنا طلبًا للاستشارة أو النصيحة أو حتى لاقتراض المال، ثمّ ذهب كلانا إلى الجامعة، أنا إلى جامعة نيجيريا لدراسة اللغة الإنكليزية، وأفام إلى جامعة لاغوس لدراسة القانون، الأمر الذي جعل والدي ينتفخ كِبرًا، مما دفع أمّي لتحذيره ألّا ينفجر، وتكون نهايته في الجحيم، إذ إنّ الكبر خطيئة، فيردّ أنّ الربّ الذي بدأ بعمل الخير، سيجعله - وهو أكثر شخص يحبّه على الأرض - يرى تحقّق ذلك.

أنجبت أمّي ثلاث بنات بعد أفام، إلّا أنّها وبشكل غير متوقّع، حبلت من جديد وأنجبت ابنها الأخير، سمّى أبي الولد شيلوتام، "لقد تذكّرني الربّ".

ثم اندلعت الحرب، وتغيّر كلّ شيء.

توفّي بابا نتيجة داء السكري عام 1972، بعد عامين من نهاية الحرب، كان سيعيش لولا عناده، عانى من تقرّحٍ بسيطٍ في قدمه لكنه لم يلتئم، ثم بدأ التقرّح يزداد حجمًا. قال الطبيب إنّ قدمه متقيّحة ويجب أن تُبتر، أتذكر أنّي كنتُ واقفة بجانب بابا وسمعته يقول: "أخبري ذلك الطبيب أنّه ما من أحد

يستطيع أن يقطع ساقي، هل تفهمين؟".

"نعم بابا، لكن..." لا تقولي لي لكن يا بنت. لا يمكن أن يصير نوابويزي ندوبويزو كسيحًا، هل تسمعينني؟"

"نعم، بابا".

حدّق بي وقال: "نعم، والآن، أفام، عليكِ أن تعتني به، إنّه ينحرف، كلّما عاد لرشده أسرع، كان أفضل، يجب أن يتزوّج، بأسرع ما يمكن، حين كنتُ في عمره، كنت متزوّجًا، عليك أن تساعديه، وشيلوتام أيضًا، هل تفهمين ما أقوله لك؟"

"نعم، بابا. لكن..."

"ألم أقل لك توًّا لا تقولي لكن؟ أمّك امرأة قوية، لكن يجب أن تكوني إلى جانبها وتساعديها".

"نعم، بابا"، همستُ رغم أنّي أردت أن أقول "لكن" مرّةً أخرى، لكن لماذا تتحدّث بهذه الطريقة؟ لكن هل تريد تركَ ماما؟ لكن ماذا عنّي؟ غير أنّي لم أشأ أن أغضبه، لذا احتفظت بكلّ "لكن" لنفسي، عندما عدتُ إلى المشفى في الصباح لأخفّف عن أمّي، كان أبي قد مات.

كان لديَّ وقت قليل للحزن، أو للتفكير بالفراغ الدائم في قلبي الذي تركته وفاة بابا، لأنّ ذلك تزامن مع بدء أفام بالشّرب، لطالما شكرت الربّ أنّ بابا لم يعش ليرى ذلك، وأنّه رأى عجز ابنه عن الاستقرار فقط، بعد الانحراف مدّة، عاد أفام ليعيش مع ماما في القرية، هناك كان يشربُ في كلّ ثانية يكون فيها غير نائم، كان يسرق من أمّي، ومن الجيران أيضًا، ويبيع ماعزهم ودجاجهم ليموّل عادته الجديدة، لم يظهر أيّ إمارة ندمٍ حين يمسكون به، ولم يهتمّ لبكاء أمّي.

أغضبني سلوكه، لم يكن الوحيد الذي ذهب للحرب، كلّنا أصابتنا ندبات منها، لكنّنا تابعنا حياتنا، وضعنا أفكارنا مثل لفائف مطوية بعناية أسفل صندوق الملابس، وواجهنا شؤون الحياة، ومن صادرت الحكومة بيوتهم وممتلكاتهم في لاغوس وبورت هاركورت بدؤوا يفكّرون كيف يبنون غيرها، أو انتقلوا إلى إنوغو وأونيتشا لبدء حياةٍ جديدة، أمّا أولئك الذين دفنوا أولادهم المصابين بكواشيكور، فقد أنجبوا غيرهم، تخلّصوا من الكوابيس التي راودتهم كلّ صباح، وانطلقوا للعمل ليطعموا أطفالهم، وجد الشباب عملًا في إنوغو، وكذلك وقتًا للشّرب والتدخين أثناء سماع أغاني الفرق الموسيقية الجديدة مثل إيجوجو، لكن أفام كان مصرًّا على هجر حياته.

عندما طلبتُ من والدتي أن تأتي وتعيش معي في إنوغو، طمأنتني أنّ أفام كان سكّيرًا من النوع الهادئ، وأنّه لم يكن يضايقها أو يتصرّف معها بعنف، وأنّه لا يجوز أن نتركه وحده، وأنّه هنالك دومًا أناسًا في القرية يمكن أن يساعدوا في مراقبته، لم تقل ذلك، لكنّي عرفت أنّها تخشى أن يقتلَ نفسه، ليس ببطءٍ عن طريق المشروب الذي كانت تأمل أنّه سيتخلّص منه، بل عن طريق الانتحار.

برغم أنّ أفام لا يتصرّف بعنف حين يكون ثملًا، إلّا أنّ ضربةً من ثملٍ آخر في بؤرة الشّرب في القرية أدخلته في هذه الغيبوبة، قال الأطبّاء إنَّ علينا الانتظار والصلاة، لذا صلّيت من أجله، صلّيت عسى أن أستطيع أن أنفّذ وصية والدي عندما كان يحتضر، جلست في المشفى صامتةً أتنفّس رائحة المطهّرات، وأتوسّل أن يستيقظ أفام، أن يبتسم لي ويناديني أكبا أكبو.

لكن أفام مات، كان في الثلاثين من عمره. دفنّاه، ودخلت أمي مرحلة اكتئاب، ظننّا أنّها لن تنتهي، ظلّت ترفض الطعام والشراب لأسابيع، ولا تغادر

فراشها، ولا تستحم، وتتوهم أنّها تنادي أبي وأخي، فقدتُ أبي وأخي في خمس سنوات. صرت أتساءل إن كنت سأفقد أمّي أيضًا، أخيرًا، ذات صباح وبعد نومٍ عميقٍ دام تقريبًا يومين، استيقظَت وطلبت طعامًا، وفي الصباح التالي، قالت لي: "يجبُ أن تتزوّجي".

كانت نبرتها لا تقبل الجدل، ولا تقبل أيّ أعذار.

الفصل الثاني عشر

جلست في منزل أوبياجيلي، أعزّ صديقة لي، أراقبها وهي تتحرّك بثقلٍ في أرجاء المطبخ، وبطنها المنتفخة بسبب الحمل تسبقها في كلّ خطوة، أصرّت على تقديم الطعام رغم أنّي لم أكن ضيفةً في بيتها، أعلم أنْ لا مهرب من كرمها، لذا انتظرت حتى يصل الأرز وحساء نكانو الشهيان إلى الطاولة أمامي، جعلت رائحة أوراقه العطرة، والسمك المقدّد، وسمك السلور لعابي يسيل.

في الأسابيع التي تلت تعافت أمي. خطرت لي فكرة، فكرةٌ ربّما جاءتني من عالم الأموات؛ لأنّها ما كانت لتخطر لي في السياق الطبيعي للأمور. الآن، وبما أنّي قد خذلت أبي وأخي، يجب ألا أخذل أمّي، أرّقتني تلك الفكرة، ظلّت معي مثل عبءٍ خفيٍّ في رأسي طيلة اليوم، لا يتزحزح كيفما لويت عنقي. كنت في حاجة إلى أن أجد شخصًا أتحدّث معه عن فكرتي، فضلًا عن أمّي - التي لن تستحسنها - رغم أنّ فرص استمرار عزوبيتي كانت تؤرقّها، جئتُ إلى صديقتي لأبوح لها بفكرتي.

"إذن أخبريني.." قالت أوبياجيلي عندما رأتني صرت آكل على مهل.

"أخبرك بماذا؟" سألتها ببطء، إنّها تعرفني جيدًا، خطر لي مع بعض الانفعال.

لم ترد، وظلّت تحدّق بوجهي تنتظر.

"سأتزوّج يوجين." قلت لها.

الآن، وبعد أن خرجت الكلمات من فمي، بدت أكثر واقعيّةً وزادت احتمالات تحقيقها.

"هل جننتِ؟" سألتْ وقد تقطّب وجهها الجميل. لم أنزعج، فقد توقّعت ذلك، الآن، وبما أنّي تجرّأت وقلتُ ذلك، تملّكني تصميمٌ على إتمام ما عزمت عليه، إذ غدت الفكرة مثل صوملة وجدت مكانها على برغي.

"اسمعي جولي، أعرف أنّك قلقة." قالت بنبرةٍ تصالحيّة، كنتُ طفلةً وسط نوبة غضبٍ وفي حاجة إلى أن يهدّئني أحدهم.

"أعلم أنّ السنوات القليلة الماضية كانت صعبة عليك." توقّفتْ وعرفتُ أنّها تفكّر بأفام. برأيها أنّ الكمد قد عكّر تفكيري.

كنّا أنا وأوبياجيلي صديقتين منذ السنة الأولى في مدرسة أبا الثانوية للبنات، كنّا ابنتَي معلّمين، لقد اعتمد تقدمنا الدراسي على ذكائنا، لا على امتلاك أبوينا للمال - فمكافأة المعلمين في الجنّة لا على الأرض - وبسبب كرم المنح الدراسية. اعتنينا ببعضنا بعضًا، واجهنا العالم الجديد من دون أبوين، تحدّينا وتنافسنا. التقينا من جديد في إنوغو بعد الحرب، واستمرّت صداقتنا كما لو أنّها لم تنقطع مدّة الجامعة أو الحرب.

كنّا ننادي بعضنا "نوانيم نواني"[29] وبالفعل كنّا أختين. كانت أقرب لي من أخواتي اللواتي سلكن درب الكثير من النساء - بالتأكيد ليس كما توقّعت لهنّ كونهنّ بنات أبي. تركن المدرسة الثانوية، وتزوجن من موظّفين حكوميين متدنّي الرتب وراضيات في منازلهن، واحدة في إنوغو، والأخريان في لاغوس. كنّ راضيات بشعور الزوجة التي تركّز بسعادةٍ على عائلتها فقط من دون أيّ شيء آخر. عندما كان أفام يسكر حتى الموت، كنّ يعتنين بأزواجهنّ وأولادهنّ فقط، ويعتصرن أيديهنّ بلا حولٍ ولا قوةٍ من دون نيّة المجيء إلى البيت، لكنّهنّ جئن إلى البيت وعيونهنّ حمراء، وأخذن يرتجفن وينحبن عندما دفنّا أخي في

(29) (Nwannem nwanyi) تعني ابنة أمّي بلغة الايبو.

التّربة الحمراء في أوموما.

إذن كانت أوبياجيلي أختي، أختي الحقيقية، الوحيدة التي تعلم بعلاقتي مع يوجين، والوحيدة التي أسررتُ لها فكرتي.

صارت تناديني "نوانيم نواني الجميلة"، صوتها ناعم، وكلّه اتّزان وفهم.

"لا أكره يوجين، تعرفين ذلك، لكنّك تعرفين أيّ صنف من الرجال هو، قد يستيقظ في الغد، بعد أن يتزوّجك، ويبدأ البحث عن امرأةٍ غيرك، الرجال الذين مثل يوجين يستعملون النساء ثم يرمونهن مثل الأغلفة المستعملة." لم تكن بحاجة إلى أنه فعل ذلك مع زوجته - فمن لن يقول إنّه لن يفعل ذلك معي؟

كان القلق باديًا على وجهها، لكنّني ذهبت إليها وأنا مستعدّة، ستحذّرني أنّي ألعب بالنار وقد أحترق بها، لكنّني أعلم أنّي لن أتزحزح، كنت وسط النار أساسًا، لو كانت تعلم.

"ربّما"، قلت، لست غبية، لكن، مع كلّ كلام أمّي، هل لي أن أتدلّل في الاختيار؟ وفي عمر الرّابعة والثلاثين؟ برأي أوبياجيلي فأنا أرتكب خطأً جسيمًا، وأنّ العلاقة من بدايتها كانت خطأً. في الماضي، سألتني إن كنت متأكّدة أنّ تلك العلاقة لم تكن تمنع الرجال غير المتزوّجين من التقدم إليّ، كان سهلًا عليها أن تقول وتخمّن الأسباب المباشرة وغير المباشرة لعزوبيتي، فقد كانت متزوّجة، لقد ضمنت مكانها في بيت زوجها حين أنجبت له ولدين على التّتابع.

أكّدت لها أنّي أعرف ما أفعل.

"وماذا بشأن زوجته؟" سألتني وعيناها تلاحقان عينيَّ.

"سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام" قلت لها.

لم تقتنع، حاولت تجنّب نظرات أوبياجيلي القلقة، وأنا آكل طبق الأرز الشهي.

الأمر بسيط، أردتُ أن أقول لها، كنت أساعد يوجين ليحصل على ما يريد بأن آخذ ما أحتاج.

يوجين أوبيتشينا طويلٌ، ووسيمٌ، وفمه يبدو كبيرًا جدًّا بالنسبة لوجهه، ورأسه سميكٌ بعض الشيء، عندما يكون منتعشًا، تحسب أنّ الربّ أعطاه جمالًا أكثر مما هو عليه. يملك شركة بناء حصل عليها بفضل صداقة كوّنها في ظروف خاصّة مع محافظ الولاية المركزية الشرقية، ونالت الشركة بفضلها عقودًا مربحة في المنطقة الشرقية التي كانت تجتهد في إعادة البناء بعد الحرب.

دائمًا يتصرّف بهيأة من يعرف من هو، وما مكانته في العالم. كان النجاح - الذي هو المال بالنسبة له - شغله الشاغل، ثمّ توريثه واسم عائلته إلى أولاده. كان يقول لي، خاصّة بعد أكل وجبته المفضّلة، حساء الفلفل ولحم الماعز المغسول ببيرة أوديكو الغنية الدكناء، إنّ والده أوكيكي أوبيتشنا - طيّب الربّ ذكره - كان رجلًا عظيمًا، وأوكيكي أوبيتشينا، كما يذكّرني ابنه دومًا، لم يعتنق المسيحيّة قط. كان فلّاحًا عظيمًا أعطاهم كلّ ما يمكن أن يمنحه أبٌ لأبنائه، لكنّه لم يترك لهم أيّ مال، قال إنّ قلب آل أوبيتشينا لن يموت، ضاربًا على صدره تأكيدًا، لن يسمح بحدوث ذلك. بدا الأمر كأنّه وعدٌ مغلّظ، وأنّه هو - يوجين أوبيتشينا - لن يمنح أولاده اسم عائلة أوبيتشينا العظيمة وحسب، أولئك الذين كانوا محاربين وفلّاحين عظماء ورجالًا مهمّين منذ أبد الآبدين، بل المال أيضًا. في الماضي، كانت رؤوس البشر ومخازن البطاطس الحلوة والزوجات الكثيرات والألقاب أمورًا جيدة، لكن اليوم يمكن للمال أن ينوب عن كلّ ذلك، كان يقول: المال هو ما يحتاجه الناس ليبقوا أحياء في القرن العشرين.

كنتُ أبتسم بأدب عندما يدلي بتلك التصريحات العظيمة، التي بدت مثل كلمات نشيد مديح من أوليفر دي كوك لنادي شعوب نيجيريا. كان جليًا أنّه

يأخذ نفسه على محمل الجدّ كثيرًا، لكن بعد وفاة أخي، صرت أتذكّر ذلك النوع من تنظير يوجين وكلامه بشأن الإرث. تذكّرت وفكّرت أنّني ويوجين يمكن أن نساعد بعضنا ليحقّق كلٌّ منّا ما يحتاجه، تعرّضت زوجة يوجين لعدّة حالات إجهاض بعد أن أنجبت ابنتيهما الصغيرة، عمرها أحد عشر عامًا، ولم تحبل طيلة السنوات الثمانية الماضية. لطالما تحدّث يوجين بحسرة عن عدم قدرته أن يصير أبًا لصبي، ناقش معي مرّةً احتمال إنجاب ولدٍ منّي، حتى إن لم أكن راغبةً في الزواج منه. هل أستطيع أن أنجب له ولدًا؟ سأل بجدّية.

بالمقابل، أخبرته عن أبي وأخي، ابن أبي الأوّل والوحيد لمدّةٍ من الزمن، تجرّأت وقلت له إنّ إنجاب ولدٍ لا يحلّ كلّ المشاكل، نظر إليّ بازدراء عندما قلت ذلك، قال إنّي مجرّد امرأة، ولا أفهم. قال إنّ أعمامه غالبًا ما يسألونه إن كانت تنقصه الرجولة لينجب ولدًا. أحسست بالأسى في صوته حين قال ذلك، وعرفت أنّي المستأمن الوحيد على ذلك الكلام، لم تكن زوجته تدري بعمق شعور الإذلال الذي يعانيه لعدم قدرته على إنجاب ولد. توقّفتُ عن مواساته أو تشجيعه أو القول له إنّ كلّ الأولاد، بصرف النظر عن جنسهم، قيّمون، ألم أكن أعلم ما كان يعنيه لأبي وجود ولديه أفام وشيلوتام؟!

أثناء تلك المحادثة، بدا الأمر أكبر منّي - برغم قلقي بشأن عزوبيتي ويأسي من فرص الانتقال إلى عالم المتزوجين - لأفكّر في توسيع علاقتنا إلى زواجٍ متعدّدٍ غير ملائم. ماذا سيكون رأي أبي بي - طيّب الربّ ذكره - وهو الكاثوليكي المتعصّب؟ تساءلت حينها.

إلّا أنّ ذلك كان قبل وفاة أفام، كانت فكرتي بسيطة وعملية، أحبل، ثم أخبر يوجين الذي سيطلب الزواج منّي وأوافق، لن يكون الأمرُ صعبًا. كنت أعلم أنّي لن أكون محور هذا الزواج، بل ابن بيت أوبيتشينا الذي يطمح إليه،

مثل مقامرٍ أراد أن يربح جائزة اليانصيب، لم يكن اصطياد رجل عن طريق الحمل فكرةً جديدة، إنّما أقلّ من عادية، خاصّة حين يكون الرجل المعنيّ سعيدًا بالأمر، برغم ذلك لم يرتح قلبي، في كلّ التخيلات الرّومانسية السّابقة التي مرّت عليّ، أو الأفكار الواقعية في السنوات الأخيرة، لم أفكّر أن أتزوّج لأكون زوجةً ثانية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثالث عشر

بعد أن وضعت خطّتي، بحثتُ عن يوجين الذي سيسعد بمتابعة مداعبتنا، غاب في المدّة التي كنت أعتني فيها بأمّي في شقّتي، يستطيع يوجين أن يأتي إلى البيت الآن، وقد عادت أمّي إلى قريتها لتعيش في بيتها وبين أغراضها، لم يكن لديّ شيء سوى الانتظار، وألّا أفعل شيئًا يمنع حدوث الحمل، على عكس السنوات الثلاثة الماضية. خلال الأسابيع اللاحقة، سمحت ليوجين أن يتذمّر من زوجته، مارستُ الجنس معه كلّما وجد وقتًا يقضيه بعيدًا عنها، جمّلت نفسي قدر ما يسمح وجهي وقوامي الممتلئان.

بعد انتظار ثلاثة أشهر، ومن دون حدوث حمل، قرّرت أنّه الانتظار لم يعد مجديًا، أن أركز على الحمل في اللحظة التي أصير فيها السيّدة أوبيتشينا؟ لقد وعدت أمّي أنّه لن ينقضي العام إلّا وأكون قد جئت إلى البيت برجل، ولذا واصلت خطتي.

طبخت ليوجين حساء أونوغبو المفضّل لديه، وأضفت له بهار أوجيل اللاذع، سمك الرنكة، السمك المقدّد، ولحم الماعز ذا الطعم الحادّ، وأعددت كذلك طبقًا من البطاطس الحلوة المهروسة والطرية. في ذلك المساء، رأيت لعابه يسيل حين دخل شقّتي التي تفوح منها رائحة حساء أونوغبو، أكل بلهفة، وكان يصدر صوتًا وهو يمضغ اللحم، و"يربت" على بطنه التي بدأت تنتفخ فوق حزامه، شعرت ببعض النفور:

لا يمكنك أن تكوني انتقائيّة. رنّ جرس التنبيه في داخلي كأنه ينبّه الرومانسية التي تحتضر بداخلي.

انتظرت حتى صرنا في السرير، رأيته بعدها ينام، كان عاشقًا رائعًا، برغم خيانته، ظلّ وجهه وسيمًا، برغم ظهور بعض النواقص فيه أثناء الاسترخاء، وبرغم أنَّ الدهون والاقتراب من أوسط العمر كانا يسلبانه شيئًا من وسامته. بدأ خط شعره ينحسر، لكنه ترك بقيته تنمو وفق قصة شعر الأفرو التي يفضّلها الرجال هذه الأيام، كانت له جاذبية وابتسامة قلّما تقاومها النساء، خاصّة إن أضفنا لها نجاحه الواضح في الحياة.

شركة البناء الخاصّة به تدرّ عليه أموالًا، ويبذخ عليّ بشراء سلاسل الذهب والقلائد ليثبت ذلك، ما يزال شابًّا، في الثانية والأربعين من عمره، رغم أنّ ابنته الأولى في الثالثة عشرة من عمرها، توقّعت له أن يحقّق المزيد من النجاح.

كان لقاؤنا الأوّل قبل ثلاث سنوات رومانسيًا، حين جاء إلى المدرسة التي كنت أدرّس فيها، وزوجته إلى جانبه، ويريدان نقل ابنتهما الأولى التي تواجه مشكلةً في المدرسة، لم يبدُ عليه أنّه من متتبّعي المدارس، لكن زوجته بدت كذلك، فرأى أن يسايرها في ذلك. لم تخطر لي أيّ فكرة، وباعترافه لاحقًا، لم يهتمّ لأمري وقتها، أشرتُ لهما نحو مكتب الإدارة وشكراني، نسيت الأمر مثل كثير من الأمور البسيطة التي تحدث في حياة المرء، إلى أن صادفته في محلّات كينغزوي في الأسبوع التالي، كان سؤاله "أين التقينا؟" وفستاني الأحمر الجذّاب الذي ارتديته في ذلك اليوم مخافة ألّا تحدث أيّ مناسبة تستحقه واستعدادي لعدم التّجاهل بضع دقائق، كلّها أدّت إلى علاقةٍ دامت حتى الآن قرابة ثلاث سنوات.

شعرت بالذنب فترةً قصيرةً قبل أن يستقرّ بي الرأي أن أستمتع بالعلاقة التي كنت متأكّدة أنّها لن تتطور أكثر من ذلك، بدّدت مخاوف ما قد يحدث إن

اكتشفت زوجته الأمر، أو ما سيكون رأي أبي بشأن استقامتي، أو تحذيرات أمّي من أنّ الحماقة قد تكون سبب سقوط المرأة، وتعاليم الكنيسة، غمرت نفسي بالاهتمام الذّكوري الذي تخطّاني منذ أمدٍ بعيد، بالطّبخ لرجلٍ وممارسة الجنس معه ولو بالسرّ تقريبًا. لم يكن الأمر فظيعًا، بل بدا ممتعًا بعض الوقت. كان يوجين من صنف الرجال القادرين على إسعاد عشيقة وزوجة في الوقت نفسه، هذا إن لم تضايقاه كثيرًا. كنت عشيقة أرادت أن تصير امرأةً متزوّجة، وتفضّل أن تكون الزّوجة الوحيدة، برغم الانزعاج أحيانًا، بدت الخديعة إجراءً وقائيًّا للمرأة التي أرادت أن تتزوّج يومًا ما، كانت العلاقة المثالية.

حتى أمّي التي لم تعلم بعلاقتي مع رجلٍ متزوّجٍ ذكّرتني بحاجتي للزواج، وبما أنّي خذلت أبي وتركت أخي يموت، أخذت نَفَسًا عميقًا وجلست أنتظر، صوت الرّعد ورائحة وبرودة المطر القادم، والرضا من نشوةٍ جنسية، كلّها كادت تجعلني أغفو، لكن ثمة أمرٌ يجب تحقيقه، تركته ينام، يستطيع أن يذهب لبيته متأخّرًا عن المعتاد أو صباح الغد، قال لي إنّ زوجته وابنتيه في زيارة عند أهلها، وهذا دليل أنّهما تشاجرا من جديد، في السنوات الثلاثة التي عرفته فيها، كانت علاقتهما تدور في دائرة الصّلح والشجار، يتشاجران، فتذهب إلى أهلها، ثم يذهب ويتوسّل إلى والديها فتعود معه. ذكّرت نفسي أنهما استطاعا البقاء معًا بطريقة ما. وكنت الآن أتمنّى لو أنني لم اتجاهل في السّابق قوة تلك العلاقة.

إنّه يريد ولدًا، طمأنت نفسي، مرّت عدّة ساعات قبل أن يتحرّك، عبس عندما رآني جالسة على الكرسي المقابل للسّرير في الظلام.

"هل أنت بخير؟" سألني وهو يترنّح.

نهض وذهب إلى الحمام قبل أن أردّ، سمعته يتبوّل، وعرفت أنّ هذا ما أيقظه، خطر لي أنّه ربما ينوي أن يمضي الليلة عندي.

"هل أنتِ بخير؟" سألني من جديد.

كان صوته واضحًا هذه المرّة، وعيناه مستنفرتين.

ابتسمت.

"نعم"، قلت وما زلت أبتسم.

كيف كانت النساء الحوامل يخبرن أزواجهنّ أنهنّ يحملن في أحشائهن ورثة أسمائهم؟ نظرت للأسفل وفركت بطني قليلًا، ثم نظرت إليه وابتسمت له، رأيت السؤال على وجهه.

"أنا حامل"، قلت.

"أنتِ؟"، سأل.

شعرتُ برعشة خوف، وسألت نفسي إن كنتُ قد أسأتُ تقدير الوقت المناسب. أجيبه بصوتٍ منخفض: "نعم".

ركض إليّ وحملني، صار وزني الذي كنت أحسب أنّه هو من يبعد الرجال عنّي وزن ريشةٍ بالنسبة له، شعرتُ بقوّة قبضته، وشعرت أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، شعرتُ بالراحة، ثم تملّكني الخوف.

صرخ: "أنتِ حامل، أعلم أنّه صبي، أعلم أنّه صبي، كنتُ أعلم أنّك ستجلبين لي الحظّ، كنتُ أعلم ذلك".

"رجاء، اخفض صوتك"، طلبتُ منه بابتسامةٍ، فكّرت بجيراني.

"شكرًا لكِ، شكرًا لكِ." وظلّ يقولها، كأنّ الأمر شيءٌ كان يرجوني أن أفعله، تخلّصت من ذنب الخداع، صرتُ خبيرةً في الأمر، على أمل أن يولد الطفل عندما نتزوّج.

قلت: " علينا التحرّك سريعاً."

"ماذا؟"

عرفتُ أنّه لم يكن يفكّر بذلك من قبل، تلوتُ بعض الصلوات.

قلت له: "حسنًا، في منطقتنا، يأخذون الولد إن ظهر الحمل قبل مراسم الزواج ودفع المهر للعروس."

كانت جرأةً كبيرة، لكنه كان من قرية سكّانها من الإيبو (سكان جنوب شرق نيجيريا ولغتهم هي الايبو)، يجب أن تكون العادات ذاتها.

قال بعبوس: "هذا صحيح." تركني وذهب ليقف بجانب السرير، صمت قليلًا، دقيقة تقريبًا، أو ربما دقيقتين، صار قلبي يرقص تشوّقًا، بينما يحذّرني عقلي من أنّي قد بالغت.

"علينا التحرّك سريعاً." قال بعدها، مكرِّرًا كلماتي.

ابتسمتُ له ابتسامة ارتياحٍ صغيرة، سأصيرُ امرأةً متزوّجة، لدقيقة، نسيت كلّ شيء - الطفل الذي عليه أن يصل رحمي، وزوجته، ماذا ستقول أمّي حين أخبرها أنّه متزوج؟ - وركّزت على فكرة أنّى سأصير امرأة متزوّجة.

ثمّ عدتُ إلى الواقع.

"وماذا عن أونيمايشي؟" لم أشأ أن أقول "زوجتك".

"نعم، ماذا عنها؟" ردّ بقسوة.

بقيتُ صامتة، لم أفهم تغيّر نبرته في الكلام، برغم أنّه كان يخونها منذ سنوات، فكّرت أنّه لا بدّ يكنّ مشاعر لها للآن، إنّهما متزوّجان منذ اثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا، لا أعلم إن كان لديها أدنى فكرة عن علاقة زوجها بي، سيشكّل ذلك صدمةً لها، أخذتُ نفسًا عميقًا، وأطبقت أسناني، لا أتحمّل أن أكون لطيفةً الآن، أن أفكّر بها على أنّها امرأة، أو ربّما مثلي.

بعد أن بدأت علاقتنا، رأيتها مرّةً أخرى، كانت قد جاءت هي ويوجين للتسوّق من محلات كينغزوي، صادفتهما في ممرّ مستحضرات التجميل، نظر

يوجين بعيدًا بسرعة حين رآني، مررتُ بجانبهما، كما لو أنّي لم أشمّ رائحة عرقه عليّ في الليلة السابقة، لكنّني نظرت جيدًا إلى زوجته، نظرةً أطول من تلك النظرة العابرة التي رأيتها فيها عندما جاءت مع يوجين إلى المدرسة، كانت ما تزال محافظةً على قوامها ووجهها الجميل حتى بعد عدّة حالات حمل، وصوتها حين تحدّثتْ معه بدا ناعمًا وأنثويًا، ومع ذلك وجدني فاتنة؟ لم يكن ثمّة محاسبة على أذواق الرجال.

عندما رأى أنّ نبرته أزعجتني، اقترب منّي، ووضع يده على بطني بحنان، أخافني ذلك، كان رحمي فارغًا، حتى وإن دخل فيه شيء، قد تكون بنتًا.

ارتعشتُ من الداخل، اعتقدتُ أنّ الأمر سيحدث بسرعةٍ كافية، ثم سنصير عائلة، أنا ويوجين والطفل، كنتُ أعرف اسمه مسبقًا، سيكون اسمه أفام.

الفصل الرابع عشر

بدأت تنفيذ خطتي بحزم. عليّ أولًا أن أخبر أمّ أفام - أمّي - مَن حافظت على استقامتها طيلة حياتها، وكانت توبّخ النساء المنحرفات كجزءٍ من واجباتها كونها زوجة مدير مدرسة وملقّن تعاليم مسيحية، ومَن بدأت في سنواتها اللاحقة تطرح على بناتها نظرية مفادها أنّ الرجال ينالون كلّ ما يرغبون به بسهولة مطلقة، وليس من واجب النساء جعل حياتهم أسهل، بينما كنت أحضّر خطابي لها، استبعدت الأعذار عمدًا: لم يعد يحبّ زوجته، لم أكن أعلم أنّه متزوّج، أحببته بشغف، ولم أقاوم نفسي، ضحكنا أنا وأوبياجيلي كثيرًا على النقطة الأخيرة، كانت كذبةً بالطبع، لكن الأهم أنّها كانت مما يقرؤه المرء في الكتب، أو يقولها لحبيبته، وبالتأكيد ليس لوالديه في زماننا ومكاننا، لذا أعددت خطابًا بسيطًا لا أسمح خلاله بأيّ مقاطعة حتى أنتهي.

ألقيتُ الخطاب في يوم سبت، كنت أقول كلمة "ماما" خلال كلّ توقّف أثناء تبادل الأخبار عن كلّ ما حدث في القرية في الأسبوعين الماضيين، رفعت نظرها عن السّمكة الجافّة التي تقطعها تحضيرًا لعمل الحساء، كانت ردّة فعلها ساخرة بعض الشيء.

"لقد قابلتُ رجلًا".

لم تنتقل أمّ أفام لحالة الفرح فورًا، خاصّة أنّ تلك لم تكن عادتها، صمتت، بينما صار قلبي يخفق.

"يعيش في إنوغو." قلتُ لكسر الصمت الذي ساد.

"من أين هو؟"

أخبرتها، ثم صرختُ: "سأتزوّجه".

همهمت.

لماذا لم تبتسم، ولم تطِر فرحًا؟

لكن بداخلي عرفت أنّها كانت تعتقد أنّ الأمر سيحدث عمّا قريب.

ثمّ قلت لها: "أنا حامل".

همهمت من جديد، كأنّها استنفدت كلّ الكلمات.

صمتت.

"هل أخبرته؟"

"نعم، ماما."

"وهل سيأتي مع أهله؟"

"نعم، ماما."

وهكذا قبلت والدتي التي كنتُ خائفةً من ردّة فعلها قراري برصانة - إن لم يكن بفرح - رأيت وجهها، الرائق دومًا، تظهر تجاعيده من التركيز، ظلّت محافظةً على رصانتها أثناء كلّ صراعات الحياة، أثناء كلّ انتقالٍ من قريةٍ إلى أخرى تابعةً أبي، أثناء الصعوبات المالية التي رافقت رجلًا لا تعطيه مهنته مردودًا مكافئًا إلّا في الجنة، أثناء تربية أولاد كبروا ليخذلوها، وموت زوج وابن، كبرت كثيرًا منذ أن مات أفام وتراجعت قوّتها كثيرًا، سيطر عليها الضعف، وفقدت الوزن، والنّضارة وبقية شبابها، بانت تجاعيدها أكثر، كأنّ منادي البلدة استدعى هذه التجاعيد فجأة، وغار خدّاها أكثر.

سألتني من جديد: "تقولين إنّك حامل؟"

"نعم، ماما." قلتُ ونظرتُ إلى قدمي، شعرتُ أنّها تحدّق بي بعينيها المتعبتين، لو كان الأمر قبل سنوات، لبدأت تصرخ وتضربني أينما وقعت يداها، لكن

اليوم، اكتفت بالتّحديق فيّ، كان على عاتقي عبءُ إخبار كذبةٍ كبيرة.

انتظرتها لتسأل منذ كم، لكنّها لم تسأل.

"إنّه متزوج"، أضفتُ في محاولةٍ للتخلّص من كلّ الأخبار المزعجة دفعةً واحدة.

توقّعتُ أن تتفاجأ، أن تعبّر عن خيبة أمل، لكنّها ظلّت تفكّر، قالت عوضًا عن ذلك: "أين زوجته الأولى؟"

أجبتها أنّه ينوي أن يعطيها منزلًا لتعيش فيه.

لم أقل إنّي كنتُ أرى أونيمايشي في المنام، تحذّرني، وتضع سبابتها بين عينَيّ، تسحبُ سيفًا قصيرًا، مثل الذي يستخدمه الناس لتقطيع الحطب، ترفعه لتشقّ رأسي، الأمر الذي يجعلني أصرخ في نومي.

"هل لها أولاد؟"

"نعم ماما، بنتان."

همهمت وتنهّدت، "سيتكفل بنفقاتها هي والأولاد؟"

أجبتها نعم.

هزّت رأسها.

"تقولين ليس له ولد."

أجبتها نعم.

"نعمممم"، وهزّت رأسها من جديد.

فهمت الأمر هكذا، رجلٌ من الإيبو، في حاجة إلى ولد. أغمضت عينيها قليلًا، وعرفت أنّها تفكّر بعائلتنا، ببيت عائلتنا الذي قد تستولي عليه العشيرة إن حدث لشيلوتام ما حدث لأفام.

"وهل أنتِ راضيةٌ عن هذا الرجل؟"

عرفت عندئذ أنّ الجزء الصّعب انتهى.

"نعم ماما." أكّدت لها.

تنهّدت تنهيدة استسلام.

ما كان لهذا الزواج المتعدّد أن يكون خيارها المفضّل، سكتت عن القلق بشأن رأي راعي الأبرشية بها وبي.

عرفتُ أنها فهمت أنّي استطعتُ فعل ذلك فقط لأنّ أبي غير موجود، وهذا العامل الأخير هو الأهمّ، لكن أيّ زواجٍ كان أفضل من العزوبية بنظرها، لذا انصاعت للأمر بهدوءٍ حين رأت قراري الحازم، علاوة على ذلك كنت حاملًا، كان الخيار واضحًا بين إنجاب ولدٍ في هذا العالم من دون اسمٍ أو إنجابه في هذا العالم بوجود أب، لذا، وبدلًا من إعطاء محاضرة - كعادتها في أسوأ الظروف - قدّمت لي نصيحة من بضع كلماتٍ مُنتقاة.

"لا يحبّ الرجال أن يخبرهم أحدٌ أنّهم أغبياء، قد يكونون حمقى، لكن أغلقي فمك في الأمور التافهة، لم أرَ رجلًا لا يحبّ السّلام والهدوء في البيت".

دفعت باتّجاه إقامة مراسم الزّفاف بسرعة، لم أرغب بالمظاهر، أخبرت يوجين، مردّدةً رأي أمّي، علاوةً على ذلك، قد يطلب أهلي مطالب أكبر، طالما أنّهم يبيعون البقرة والعجل في بطنها.

"لا تقلقي." قال لي وابتسامته عريضةٌ عرض نهرَي النيجر وبينو، لم يهتمّ إن كنت أمثّل أمامه، وهل هنالك دليلٌ أفضل على رجولته؟ أمّا بالنسبة للطلبات وقوائم الزواج الطويلة فأجاب ضاحكًا: "ألست أوزوكاومي؟"، وأضاف: "أليس بوسعي أن أتزوّج عشرة منكِ؟"، ضايقتني هذه الجملة الأخيرة، لكنّي لم أردّ، فمن المعروف عنّي الحكمة وحسن الرأي، لكنّه رضخ وأخبرَ عشيرته بسرعة، أيّد أقاربه قراره - كما أخبرني - لم يُضِف أنّه غير معقول أن يموت من

دون ولد يرث اسم العائلة، خاصّة بالنسبة لرجل لامع وتجارته مزدهرة، حتى لو بدأ المتعصّبون المسيحيون قليلو البخت يقولون غير ذلك.

حُدّد موعد الزفاف وقائمة متطلباته، الماعز والطيور وبراميل نبيذ النخيل ولفائف التبغ لأومودا وأومونا [30] وغيرهما، كان الفرح باديًا على وجوه عشيرته حين جاؤوا إلى قريتي لدفع مهر العروس، بدا ذلك واضحًا في انتقائهم الكلمات عند مخاطبتي، الطّريقة التي ساعدتني فيها امرأةٌ لأركع عندما حان موعد تقديم كأس نبيذ النخيل لخطيبي، بالطّريقة التي سألوني فيها عن شعوري، بالطّريقة التي أسرعوا فيها لأخذ "صينية" الكولا من يدَيّ كما لو أنّي أحمل وعاءً بحجم أربعة جالونات من الماء وأصعد به تلّة، لقد حقّقوا، التوقّعات والمتطلّبات اللازمة لأخذ عروس، بل أكثر منها.

شربوا قدرًا جيدًا من نبيذ النخيل، وأكلوا الأوغبا والأباكا، ورقصوا على موسيقى أكونيتشيني ليلًا قبل اصطحابي معهم.

سألتُ نفسي إن كانوا فعلوا الشّيء ذاته مع أونيمايشي، ثم نبذتُ السؤال بسرعة، كان اليوم يوم فرح.

كان حفل زفاف الكنيسة غير وارد؛ لأنّه لن يكون هناك فسخ، لن يكون هنالك فساتين زفاف بيضاء، ولا فتيات أزهار يرمين قصاصات ورق على العروس والعريس، ولا وصيفات شرف بألوان وأنماط غريبة، ولا صور كنسية يمكن أن نعرضها على الحائط، كان هذا مؤلمًا لأمّي - التي ودّعت شقيقتَيّ حين تزوّجتا في الكنيسة - لكنّها لم تقل شيئًا، ولا حتى عندما قال كاهن رعيتها أنّها قد تُحرم من القربان لأنّي ارتكبتُ خطيئة.

كما كان الزواج بموجب القانون الوضعيّ، أو في سجلّ الزّواج مستحيلًا

(30) (umuada, umunna) تعني الأبناء والأخوة بلغة الايبو.

أيضًا، لأنّه لن يكون هناك طلاق، لم أسعَ وراء ذلك، كان يكفيني أن يعرف الجميع أنّ هذا الرجل هو زوجي، حالما انتهت مراسم الزّواج التّقليدية، ذهبت إلى صائغ المجوهرات في أساتا واشتريتُ لنفسي خاتمًا ذهبيًا، كان خاتمي أثقل من خاتم الزّواج العادي الذي ترتديه صديقتي أوبياجيلي، عريضًا تراه عين كلّ من يقع نظره على يدي، شعرتُ بالرّضا وأنا أرتديه، لم أشترِ واحدًا ليوجين، إذ لم يكن مهتمًّا بذلك، افترضت أنّه قد تخطّى تلك الإثارة كونه ارتدى واحدًا من قبل وتوقّف عن ارتدائه.

لكن بداخلي، تمنّيت لو يضع خاتمًا لأجلي، لأجلنا.

بدا أنّ أونيمايشي تقبّلت الأمر أسهل مما توقّعت، كما لم تتحقّق كوابيسي. لم تقاتل، على الأقلّ ليس بقوّة، ربما بكت وتوسّلت، أو ربّما احتجّت وهدّدت بقلع عينيّ وسكب الماء الساخن عليّ، أشياء تتمنّى لو تفعلها كلّ زوجةٍ تعرّضت للإهانة، لم يذكر لي يوجين أنّها فعلت أيًّا من ذلك، لم تأت إلى مدرستي - الأمر الذي كان أكثر ما يخيفني - لتهينني وتسألني لماذا اخترت أن أغرز أصابعي الجشعة والسمينة في زوجها.

كل ما فعلته أنها ذهبتْ إلى بيت والديها كما تفعل عادة حين يتشاجران، أخبرني يوجين أنّهما ببساطة توسّلا إليه أن يأخذها هذه المرّة، فحتّى قراره بالزواج من زوجةٍ جديدة، ليس سببًا كافيًا للتخلّي عن الزّوجة الأولى، لا بدّ أنّهما تفهّما ضعف موقفها، امرأة من دون ولد، بعد أكثر من عشر سنوات زواج - إن لم تفهم هي ذلك - فلا بدّ أنّ والديها أو أقاربها قد شرحوا لها ذلك بالتفصيل.

"الولد هو وسيلة السّيطرة على الرجل، من دون ذلك، مكانك في بيته غير مضمون." هذا ما تخيّلت أنّهم قالوه لها.

بقيت لا أحبّذ مصادفة أونيمايشي في المتجر أو في أيّ مكان آخر، حتى التفكير في ذلك كان يضايقني. ذات ليلة، وبعد تلبية احتياجاته، أخبرت يوجين أنّي لا أريد المشاركة، لا أتحمّل مشاركته معها؛ كنتُ أحبّه كثيرًا، والأهمّ من ذلك، لن نتشارك ابنه، غير أنّي لم أرغب ألّا تذهب بناته من أونيمايشي إلى مدرسةٍ ممتازةٍ في مدينة، اقترحت عليه وبلطف أنّه ربما يستطيعون الانتقال إلى مدينةٍ أخرى؛ أونيتشا، أويري، أو حتى بورت هاركورت.

بعد بعض التردّد والثّناء على ذوقي ولطفي، نقل أونيمايشي وابنتيهما إلى أويري، وبقينا أنا وهو وابننا المستقبلي في إنوغو.

تركته يقوم بترتيبات ذلك. لم تكن أموال يوجين تعنيني في بداية علاقتنا، لكنّي اليوم ارتقيت في حضن الرّفاهية، انتقلنا إلى شقّة جميلة في تينكر كورنر ، وبدأ يفكّر في بناء منزل يخصّنا؛ إذ أخبرته أنّي لا أطيق العيش في المنزل الذي عاش فيه مع أونيمايشي. كنّا من أوائل العائلات التي اشترت جهاز تلفاز ملون، كذلك سرعان ما أهداني سيارة بيجو 504 جديدة، ومقاعدها الجلدية الرّمادية تختصر الرفاهية والفخامة، ذهبت إلى لندن أوّل مرّة مع يوجين، كنت أرى الحسد في عيون زميلاتي المعلّمات، وسمعت مباركاتهن بصوت عالٍ، أمّا إن كنّ يتحدّثن من خلفي، فلم ألقِ بالًا لذلك.

صار يوجين يقضي وقتًا أطول في البيت، واكتشفت أنّ مخاوفي بشأن مشاركة المكان كانت لأجل لا شيء، لأنّ وجود رجلٍ سعيدٍ في البيت شيءٌ رائعٌ وممتع. يدلّلني قدر ما يستطيع، لكن لم يكن ذلك ما يسعدني، إذ سرعان ما يملّ من الاهتمام بي، وينتقل إلى المطالبة بالاهتمام به. لم أهتمّ لذلك، فقد كنت أحبّ رائحة ومنظر وصوت رجلٍ في البيت، حتى السلوك السّلطوي الذي كان يتبنّاه تحت عباءة الزواج، تعلّمت أنّه قد يكون أمرًا جيدًا.

سرعان ما وصل سرير أطفالٍ مستوردٍ من إنكلترا مع سجادةٍ لغرفة الطفل. بذل يوجين قصارى جهده، وفّر للولد كلّ شيء ومن أفضل نوعية، أخذني إلى القرية وأراني إيتيوتو[31] يُسكب عبره نبيذ النخيل الطيب، نكو أوكا، للتخزين لمدّةٍ قصيرة. كان لجدّه، لا بدّ أنّ عمر الإناء الخزفي المدوّر على الأقل مائة عام، أعطاه جدّه لأبيه الذي أعطاه إيّاه بدوره، والآن، سيعطيه لابنه عندما يحين الوقت.

أدهشتني حماسته للطفل الذي لم يُظهر نفسه بعد، أقلّها عبر انتفاخ البطن، يستغرق بعض الأولاد وقتًا، أكّدت له عندما ذكر الأمر، قالت أمّي إنّ الأمر ذاته حدث معها، كذبت عليه، يظهر الحمل على النساء في عائلتنا متأخّرًا، قلت لنفسي إنّ الوقت لصالحي، ثلاثة أشهر على الأقلّ، قالت لي أوبياجيلي إنّ الحمل الأوّل قد لا يظهر أحيانًا حتى الشهر السابع، سبعة أشهر يجب أن أكون فيها حاملًا حقيقة. انغمست في اهتمام يوجين، وتعمّدت طيّ ذنبي ودفنه في صندوق معدنيّ، دفنت فيه أيضًا كلمات أبي عن الاستقامة، حاولت كذلك ممارسة الجنس معه قدر المستطاع، حتى حين لم يكن يرغب بذلك، إذ كان يخشى أن يؤذي الطفل.

بحلول الشهر الخامس، وعندما لم يجد حتى جنين بعمر شهر طريقه إلى ثنايا بطني، بدا واضحًا لي أنّه لن يكون هنالك ولدٌ كما كنت آمل، عرفت أنّه صار من المستحيل مواصلة المسرحية، لذا، وبصعوبة، استجمعت قواي وأخبرته أنّي تعرضت لإجهاض، لم يكن صعبًا ذرف الدموع أمامه والتّظاهر بالاضطراب العصبي، حقيقةً خاب أملي، بقيتُ في الفراش، قبلت كلّ دلاله، وتظاهرت بعدم رؤية الخيبة في عينيه، سافر إلى أويري شهرين للعمل، لكن

(31) (ite-otu) وعاء مدوّر له أنف صغير.

عرفت أنّه ذهب لزيارة أونيمايشي وابنتيها.

كان الكذب على أمّي أصعب، أن أراها تصلّي للأمّ العذراء كي تفتح رحمي مع حلول السنة الأولى، ثمّ الثانية فالثالثة، جلست بجانبها وأمسكت يدها مثلما فعلت في المشفى ذاته الذي مات فيه أفام، كانت كلّ صلواتها التي أرسلتها إلى السماء، وكلّ بركاتها التي منحتها لي بصوتٍ ضعيفٍ وهي تحتضر، لأجل أن يفتح رحمي.

في اليوم الذي أطلق فيه ديمكا النار على مورتالا محمد، تساءل الجميع - بما فيهم الممرضات في المشفى - عن دوافعه وراء ذلك! وفيما إذا فعلها بمفرده أم بالتعاون مع آخرين! وفيما إذا كان على الإيبو الآن الفرار من لاغوس من جديد مع أن لا علاقة لهم بذلك! كنت جالسة مع أمّي، أراقب عينيها المفتوحتين غير المبصرتين وأتساءل لِمَ خدر روحي الدائم غير مرئيّ، تركني موتها وحيدة، حرمني الرّاحة، جعلني يتيمة القلب والروح.

صار يوجين محبَطًا ثم باردًا، ولّت الأيام التي كنا نرقص فيها على أنغام أغنية بوبي بينسون (if You Marry Taxi Driver)، ونضحك فيها من حماقتنا، في الوقت الذي صارت فيه أغنية نيلي أوشيندو الرنانة (Love Nwantinti) أغنية الموسم، لم يعدّ الحبّ يظهر في حواراتنا، ولّت الأيّام التي كنّا نذهب فيها لنشاهد فريق رينجرز يلعب في الملعب. كان النجاح حبّ يوجين الأوّل لا رجلًا أو امرأة، شغل نفسه بالعمل، مسافرًا داخل نيجيريا وخارجها، راكضًا وراء عقود البناء، البعد يعني فرص حملٍ أقلّ، وحين يكون قريبًا، كانت ممارسة الجنس عملًا، لا متعة. صرت أخاف أنّي عقيمة، بعد أربع سنوات تقريبًا من زواج بدأ عندما كذبت على عشيقي، والآن زوجي، أنّي حامل، ما زلت أنتظر أن أحبل بطفل.

لماذا صعبت الأمور عليّ، زوج والآن ولد؟ سألت أوبياجيلي وأنا أبكي.

قالت كلمات مريحة، لكنّي لم أهدأ.

ذات يوم سبت، جاءت أخوات يوجين الثمانية كلّهن إلى إنوغو بغايةٍ واحدة، وهي إهانتي، وربما طردي من منزل أخيهن.

احتشدن في غرفة الجلوس، وتسابقن في توجيه الإهانات.

"أشاوو!"[32] رأيتِ رجلًا ثريًا وفكرتِ بوضع يدك على أمواله".

جاءت هذه الإساءة من أخته الكبرى أداكو التي استقبلتني في الأحضان في البداية.

"إنداكاكوا"[33]، نعتتني أخته الوسطى شينيلو ذات الطبع الحادّ، والتي قيل إنّها كانت تصفع زوجها أحيانًا.

حقًّا إنّ وزني زاد في السنوات الأخيرة، إلّا أنّ الكلمة آذتني، ربما كنت أضطرّ أن أحشر نفسي في بعض المقاعد، لكن كان مستحيلًا أن يكسر وزني سريرًا.

"لقد طردتِ من تستطيع على الأقلّ الإنجاب، حتى لو كانوا إناثًا، وماذا جلبتِ حضرتك غير أردافك السمينة التي يمكن أن تكسر أريكة؟ ما الذي تفعلينه طيلة اليوم سوى التآمر لتبديد ثروة أخينا على أطيب الطّعام وأغلاه؟

وقفت وتركتهن يعبّرن عما بداخلهنّ، كان الأمر سيسوء لو رددت عليهن، ثمانية مقابل واحد لم تكن مباراةً متكافئة، لم أرغب في أن أعطيهن حجّةً ليهجمن عليّ ويسبّبن لي أذيّة جسديّة، أستطيع القول إنّ شينيلو كانت تتوقُ لضربي، حين انتهين، غادرن وهنّ يتوعّدن بالعودة قريبًا ورمي أغراضي

(32) (Ashawo) تعني يا عاهرة بلغة الايبو.

(33) (Ndakakwa) تعني يا سمينة بلغة الايبو.

خارجًا إن لم أتمتع بالذوق السليم وأخرج من منزل أخيهنّ.

عاد يوجين من رحلة عمله، وأخبرته بما حدث، بعد صمتٍ قصير، سألني إن كنت أعتقد أنّي لا أستحق ذلك. وسرعان ما علت أصواتنا غضبًا.

"أنوفيا!"[34]

"نواني آجا!"[35]

"سخيف!"[36]

"آشوو!"

"أوريغورينشي".

تبادلنا الشتائم ليلًا، ولا بدّ أنّها وصلت إلى آذان الجيران، غير أنّنا لم نهتمّ لذلك، بقينا نصرخ ونشتم إلى أن ركب سيارته المرسيدس وغادر.

الشّتائم تؤلم، ووسط الألم أدركت كم تمنّيت أن تتحول بداية مشؤومة إلى قصّة حبّ، وكذبة إلى حقيقة، ووسط ذلك الألم أدركت أيضًا أنّ ذلك لن يحدث.

برغم أنّنا لم نكن نتشاجر بتلك الطّريقة عادة، إلّا أنّ الانسجام في البيت صار ذكرى ماضية، وبدأت أدرك أنّ حياة العزوبية أفضل من حياة داخل سجن زواجٍ بلا حبّ، خاصّة عندما تكون وضعت نفسك داخله بملء إرادتك. كانت حياتنا تشبه الموت بعض الشيء، فراغ، فقدان روح، إذ إنّ شيئًا ما، ربما ليس الحبّ الحقيقي، لكن على الأقلّ نوع من الصداقة، كان موجودًا، وقف هذا الموت إلى جانب الحقيقة المزعجة التي سبّبتها لنفسي، تفاجأت أنّي

(34) (Anuofia) تعني أحمق بلغة الايبو.

(35) (Nwanyi aja) تعني امرأة ساقطة بلغة الايبو.

(36) (Efulefu) تعني رجل سخيف بلغة الايبو.

لم أستطع تقرير ما أريد؛ أن أظلّ معه أو أتركه، افتقدت الحزم الذي كان فيما مضى من أقوى خصالي، مثل العجوز التي ذهبت إلى السوق وأضاعت طريق العودة إلى البيت.

بينما كنت أفكّر بكلّ ذلك، لم أعرف أنّي سأدخل في كذبةٍ أكبر من تلك التي أدخلتني هذا الزواج.

الفصل الخامس عشر

جاءت فرصة الكذبة أواخر العام 1978، أثناء حكم الجنرال أوليسيغون أوباسانجو، ودعوته النيجيريين إلى شدّ أحزمتهم استعدادًا للتقشّف، ووعوده بتسليم السلطة للمدنيين فورًا، جاءت الفرصة على شكل استلام طفل في شقّة أوبياجيلي الصغيرة.

ظلّت صديقتي الدائمة أوبياجيلي تمسح دموعي التي تنهمر دومًا من دون قيد بعد وفاة أمّي، ظلّت تشدّ من أزري حين برز عقمي مثل جدار عارٍ حولي، أضحكتها حين شكت لي عن صعوبة زواجها من إيما، الرجل الذي يشغل منصبًا رفيعًا في شركة الكهرباء NEPA، لكنّه يعيش مثل عامل بناء عاطل عن العمل، عندما كانت أوبياجيلي تشتكي من بخله، كنت أقول لها: "آه، آه يا ابنة أمّي، أنت لا ترغبين برجلٍ يطرح ماله مثلما تطرح المعدة المتألمة فضلاتها، صدّقيني أنا أعيش مع شخصٍ يفعل ذلك".

كان كرم زوجي أسطوريًا، مرّة أعطى رجلًا مفاتيح سيارة كان قد نزل منها توًّا، لأنّ الرجل - وهو سائق سيارة أجرة - فقد سيارته عندما اندلعت فيها النيران، ولم يكن لديه مال لدفع فواتير المستشفى لتأمين الإفراج عن زوجته - التي ولدت بعملية قيصرية - وطفله، وكلاهما احتُجز في المستشفى حتى يتمكّن من جمع المال. وفي عيد الميلاد المجيد، استضاف يوجين حفلة لفرع إنوغو لاتّحاد مدينة أوموما. أمّا في القرية، حيث كنّا نقضي عيد الميلاد كلّ عام، فقد كان يشتري الماعز والأبقار لسكّان القرية، وفي صباح عيد الميلاد، يقتحم الناس مجمّعنا السكنيّ، يطلبون حصصهم من الأرز والبصل والطماطم

ولحوم ذبائح الماعز الطازجة، كنت قلقةً من أنّه لم يكن يدّخر ما يكفي، وأظلّ أذكّره بأنّه سيكون لدينا الكثير من المسؤوليات على مدار العام.

"أوريميلي آغو آغو![37] ماء البحر لا ينفد"، كان يقول بصوتٍ عالٍ.

"لكنّه يعتني بك جيدًا." يأتي ردّ أوبياجيلي.

"لو يقدّم لي إيما في كلّ حياتي عُشر الذهب الذي اشتراه لك يوجين، لعددت نفسي ملكة، زوجي لا يعتني بي، والأسوأ من ذلك، لا ينظر إليّ، سواء لبست خرقًا أو أغلى ثياب في السوق، الأمر له سيّان."

فأردّ عليها: "لكنّك تعلمين أنّك جميلة يا ابنة أمّي" ثم أتابع: "جمالك هو ما يجعل الخرق على جسمك موضة الأسبوع." لم تكن بحاجة لارتداء الخرق، إذ كانت تعمل وتعلّمت كيف تخبّئ مالها عن إيما، كما أنّي أعطيتها عدّة فساتين كنت قد اشتريتها في السّنة الأولى من زواجنا، حين كانت الأمور طيّبة بيني وبين يوجين.

كانت أوبياجيلي تضحك ممتنّة، إنها جميلةٌ بالفعل، ومن أولئك الأشخاص الذين تجعلك ابتسامتهم تبتسم تلقائيًا، وتضيء عيناها وجهها الحنطي الصّافي الخالي من التجاعيد. كانت تحبّ المغازلة أيضًا، جعلت عيون المعلّمين الذكور معها في المدرسة تلاحقها، حتى يوجين فُتن بسحرها وصار يسألني عن صحّتها من حينٍ لآخر، سمعت الناس يسألون ما الذي أعجبها في إيما القصير المبتذل.

كنت أتابع: "لو كان إيما بخيل مالٍ فقط، لكنتِ امرأةً سعيدة."

وهذا تلميحٌ بخصوص قوّته الجنسية التي كنّا نسخر منها كثيرًا.

ومع ذلك، كان لدى صديقتي الشيء الذي تحتاجه المرأة؛ كنت أحسدها على الولدين اللّذين ولدتهما لإيما".

(37) (Orimili agwu agwu) تعني البحر عميق بلغة الايبو.

عندما أشتكي من قلّة اهتمام يوجين بي، ومن سهراته وملاحقاته للنساء، كانت أوبياجيلي تقول إنّ الرجال الأقوياء مثل زوجي يحتاجون بعض الرذائل، وإنّ الأمر الأهمّ الذي يجب ألّا أغفله أنّه دائما يعودُ إلى البيت، ولا تذكّرني أنّها حذّرتني من ذلك قبل الزواج منه. تقول بصوت هادئ إنّه حين يصير لديّ أولاد، لن أمانع بعض نزواته العابرة. متى سيكون ذلك؟! كنت أسأل يائسة.

كان ردّها: قريبًا، ثقي بذلك.

غير أنّ القلق بدأ القلق يراودها هي أيضًا، ضحكتُ كثيرًا عندما أخبرتني ذات يوم عن امرأةٍ في منطقة أواني تساعد النساء اللّواتي في مثل ورطتي.

"هل نسيتِ من أنا؟ إيمازيكوا[38]؟ ابنة ملقّن التعاليم المسيحية؟"

لكن أوبياجيلي أصرّت على خطّتها: "أؤكّد لك أنّها ستنفعك، لقد سمعت الكثير عنها، وهي مفيدةٌ للغاية".

"نعم، أريد ولدًا يا أوبياجيلي، لكن ليس لدرجة أن أذهب إلى معالجة بالطّب الشعبي، أنا كاثوليكية".

"المرأة التي تريد ولدًا، تذهب إلى السرير عارية"[39]، قالت.

تنهدت فضحكت.

ركبنا سيارتي البيجو 504، واتّجهنا صوب أواني لنرى إيزي نواني.

شارع تشيني، البناء رقم 8، كان العنوان بناية من عدّة شقق، وقفنا خارجها نتساءل أيّ واحدة هي شقة إيزي نواني.

طرقت أوبياجيلي أوّل باب.

فتح الباب صبيٌّ لا يتجاوز عمره أحد عشر عامًا، وما يزال في زيّه المدرسي،

(38) (Imazikwa m) تعني اعذريني بلغة الايبو.

(39) (Nwanyi na-acho nwa na-agboto aluru ula) بلغة الايبو.

وحيّانا بأدب "طاب مساؤك".

"طاب مساؤك." ردّت أوبياجيلي، "نريد رؤية إيزي نواني، هل تعرف أيّ واحدة شقّتها؟"

"ها هي"، قال.

"رائع." ابتسمت أوبياجيلي، ونظرت إليّ لتطمئنني.

"هل نستطيع رؤيتها؟"

أومأ أنْ نعم.

"مَنْ أقول لها؟"

"السيدة نواجيه" قالت أوبياجيلي، أعطت اسمها.

رجع قليلًا، وأغلق الباب في وجهنا.

سرعان ما فتحت امرأة الباب، كانت ترتدي سروالًا من الجينز الأبيض، وقميصًا أحمر "مكشكش" طويل الأكمام، كان شعرها كثيفًا بقصّة أفرو، وعلى فمها أحمر شفاه، بدا أنّها ذات صوتٍ عالٍ وقويّة، لكنّها لم تكن كذلك.

"طاب مساؤكما، كيدونو؟[40]" كان صوتها ناعمًا.

"نحن بخير، نودّ رؤية إيزي نواني"، أخبرتها أوبياجيلي.

تفحّصتْ وجهينا بالتتابع، ربّما تساءلت ما الذي جاء بنا. دعتنا للدخول، جلسنا في غرفة متوسّطة الحجم، على جدرانها صور عائليّة، وفيها كراسٍ مريحة

"ماذا تريدان من إيزي نواني؟"

نظرت إلينا، بانتظار أن نتكلّم، نظرت أوبياجيلي إليّ.

"نريد رؤية إيزي نواني"، كرّرت.

ابتسمت المرأة، "أنا إيزي نواني".

(40) (Kedunu) تعني كيف حالكما بلغة الايبو.

تفاجأت، لقد توقّعت شخصًا مختلفًا، ربّما على وجهها وسوم بيضاء وقماش ملفوف على صدرها، لا سيدةً متطوّرة المظهر.

انعقد لساني على بغرابة، وبينما كنت أحرّكه داخل فمي، تكلّمت أوبياجيلي.

"صديقتي"، قالت وهي تنظر إليّ، ثمّ إلى إيزي نواني، "لديها تأخّر في الحمل"

"هممم." كان كلّ ما قالته إيزي نواني.

طلبت منا أن نجلس، وذهبت إلى الزاوية، وفتحت ما تبيّن أنّه جلد حيوان، عنزة أو بقرة، لم أعرف بالتحديد، جلست عليه مقابلنا.

طلبت نيرتين، ثمن الاستشارة، فتّشت في حقيبتي وأخرجت النقود، أشارت لي أن أضع النقود على الأرض.

أخرجتْ بضع خرزات ووضعتهم على السجادة وبدأت تقلّبهم، درستهم.

"الأمر مطمئنّ، قريبًا سيكون لك ولد، لا تجزعي، سيكون لكِ ولدٌ قريبًا".

سألت أوبياجيلي: "هل ثمّة شيءٌ عليها فعله؟"

حدّقت بها إيزي نواني: "لا، حين يولد الولد ستأتي وتشكرني وتحضر معها ما يطيب به خاطرها".

وقفت، كانت إشارة للانصراف.

شكرناها، إلّا أنّي لم أكن راضية، هل كان ذلك كلّ شيء؟ ولا حتى جرعة شراب سريعة؟ قريبًا؟ كم قريبًا؟ شعرت بالضياع، وأدركت حينها كم كنتُ متفائلة.

بحلول أكتوبر 1977، حملت أوبياجيلي من جديد، أخبرتني بذلك بنبرة اعتذار، كان لها ولدان عندما وصلت خالتها، أمّ ناثان، من دون موعد مسبق، ومعها ولد صغير جدًّا بعمر أربعة أشهرٍ تقريبًا.

غضبت أوبياجيلي، ستجعل زيارة خالتها العلاقة مع إيما أصعب، ولم تكن تعلم لِمَ جاءت أمّ ناثان لزيارتها فجأة؟ لم ترها منذ أن ماتت أم أوبياجيلي - أخت أمّ ناثان - قبل ثلاث سنوات، عندما كانت أوبياجيلي صبيّة، ذهبت لزيارة أمّ ناثان وزوجها حين كانا يسكنان في أجاكوراما، بعد ذلك، وحين صارت تعمل في إنوغو، كانت أمّ أوبياجيلي وأمّ ناثان تزورانها معًا، لكن أوبياجيلي لم ترَ أمّ ناثان حين فقدت ابنها الوحيد، ناثان، إذ كانت مريضةً ولم تستطع حضور الجنازة.

ادّعت أمّ ناثان أنّ الطفل ابنها، مشيرة إليه باسم ناثان، ولم تضف غير ذلك، توقّعت أوبياجيلي أنّ الولد حفيدها، ابن ولدها المتوفّى، لكن أردت أن أعرف أين أمّه. قالت أوبياجيلي إنّ الولد صغيرٌ جدًا ليسافر مع أمّ ناثان، لقد جاءت ومعها لفائف أكامو، أطعمت منها الولد في اليوم الأوّل. كان رأي أوبياجيلي أنّ ذلك ليس أفضل طعام لولدٍ بهذا العمر، واشترت له حليب أطفال سعدت به أمّ ناثان كثيرًا. كانت تبتسم وهي ترى الرضيع يرضع الحليب من زجاجة الرضاعة، وقالت: "نَني إندي أوتشا"[41].

أراد إيما كذلك أن يعرف سبب زيارة أمّ ناثان ومعها طفل، لم تعطه جوابًا مرضيًا واكتفت بتكرار جملة: إنّه ناثان عاد للحياة من جديد، كانت مشكلة إيما أنّه لم يفهم لماذا عليه أن ينفق مالًا لإطعام أناسٍ لا يعرفهم، صحيحٌ أنّه مطلوب منه أن يفتح بيته لقريب له بالمصاهرة في النهاية كان الرجل ربّ أصهاره. لكن، وكما كانت تخبرني أوبياجيلي عادة، يبدو كأنّه كان يشعر بألمٍ جسديٍّ كلّما كان يخرج المال من جيبه.

استغرق الأمر مع إيما أسبوعًا فقط حتى بدأ بالتلميح إلى أنّ خالة

(41) (nni ndi ocha) تعني أنَّ أصحاب البيت يتصرفون مثل بِيض البشرة بلغة الايبو.

أوبياجيلي والرّضيع يجب أن يغادرا، لم يُسمع أن طرد أحدٌ واحدًا من أقاربه بالمصاهرة - خاصّة مَن صارت الآن بمنزلة أمّ زوجته - غير أنّ أمّ ناثان لم تكن في وضعٍ يسمح لها بالمغادرة، إذ مرضت بعد عدّة أيّام من مجيئها، ظنّت أوبياجيلي أنّها أصيبت بالملاريا، لأنّها كانت تعاني من حرارةٍ شديدةٍ ومرارةٍ في فمها وفقدانٍ للشّهية.

كان الوحيد الذي يشعر بالرضا في منزل أوبياجيلي هو تاتا، الرّضيع، أسميناه تاتا، اسم كلّ مولودٍ جديد، خداه الصغيران يكادان ينفجران من الضّحك كلّما حملته، كانت الطّريقة التي أضحكه فيها غريبة.

بينما كان صعبًا على أوبياجيلي التوفيق بين أولادها وغضب زوجها من وجود أفواه إضافية ليطعمها، صرت أساعدها في العناية بالصغير، فأزورها مرّتين وثلاث مرات في اليوم في شقّتها الصغيرة في أوجوي لأرى الصّغير وأمسكه، بعد مدّة صار الأمر عادةً لي، فأشتري علب الحليب لتاتا، والفواكه لأمّ ناثان، أدخل الغرفة التي تستلقي فيها على السرير لأطمئنّ عليها، أنتظر قليلًا لتستطيع التعبير عن شكرها، وأرى أنّ الحياة بيدَي الربّ، ثم أهرع لأخذ تاتا، أطعمه، وأجعله يتجشّأ، وأغنّي له أغانٍ سخيفة، وأصنع له وجوهًا مضحكة، وأنا أتجوّل معه. مرّة، عندما أفرغ الحليب عليّ، مسحته بمنديل ورقي، وصرت أسأل نفسي إن كان ذلك شعور الأمّهات، انقباض في الصدر.

تابعت أوبياجيلي اهتمامي به بقلق، لكنّها لم توقفني، شعرتُ بمراقبتها لي، لكنّي تجاهلت الاستفسارات غير المنطوقة.

"لا بدّ أنّ لهذا الطفل سحرًا." قالت أخيرًا، ذات يوم، عندما جلست على كرسي مطبخ صغير لأستريح من تعبي معه. "ولا حتى ابنك بالمعمودية يتلقّى منك كلّ هذا الاهتمام." نظرت من فوق الموقد، حيث كانت تحرّك طبخة أوجيلي

ذات الرائحة الشهية، وحساء مليئًا بالسمك المقدّد، خفّفت الابتسامة على وجهها من حدّة كلماتها.

فهمت قصدها، كنت جيدة مع إيفي، ابنها الأوّل وابني بالمعمودية، وأوزوما، ابنها الأصغر، لكنّ اهتمامي بتاتا كان استثنائيًّا، ملأ فراغًا في قلبي، كانت أمّي على حقّ؛ الأولاد أفضلُ شيءٍ في الحياة.

"إنّه طفل رائع." قلت لها وأنا أبتسم. كنّا أنا وأوبياجيلي نفهم بعضنا جيدًا، لذا فهمت قصدها؛ أحتاجُ ولدًا من صلبي، وإنّ المجيء لإطعام تاتا وملاعبته لن يلبّي رغبتي، لكن الاكتئاب في البيت، والتفكير بزوجي، أو حتى زيارة معالجة بالطبّ الشعبي أمورٌ لن تحلّ مشكلتي أيضًا، لذا اعتنيت بتاتا وراقبتني هي بعينين قلقتين.

لم تتحسّن أمّ ناثان مع تناول أقراص الكلوروكين، مرضت أسبوعًا قبل أن تطلب أوبياجيلي العون من طبيب، قال الطبيب يجب نقلها إلى المشفى فورًا؛ فقد كان ضغط الدم لديها مرتفعًا جدًّا، هزّ إيما رأسه إذ عرف ألّا خير سيأتي من هذه الزيارة، وعليهما حزم حقائبهما والعودة إلى القرية، فدخولها المشفى سيفقرهم. كان مخطئًا؛ فبعد يومين ماتت أمّ ناثان نتيجة جلطتين حادّتين.

كانت أوبياجيلي في حالة اضطراب؛ المسكينة، المسكينة، ظلّت تقول، لا بدّ أنّها عرفت أنّها ستموت وبحثت عن قريب. قالت أوبياجيلي وهي تبكي، غضب إيما من التكاليف؛ فواتير الأطبّاء والمشرحة، ونقل الجثة إلى قرية أمّ ناثان، نوكينتا، وشراء حليب للطفل.

كان لا بدّ من اتّخاذ التدابير اللازمة للجنازة، بعد أسبوع ونصف، أخذوها إلى بيتها في القرية لدفنها.

لم أستطع الذّهاب مع أوبياجيلي؛ إذ عاد يوجين للبيت فجأة غاضبًا من

صفقة عمل فشلت، فقد غاب شهرًا، وأصيب بالملاريا في عودته، كان واحدًا من أولئك الأشخاص الذين يتحولون إلى أطفال صغار حين تمسّهم أدنى حمّى. كنت أعدّ "واحد، اثنان، ثلاثة، هيا" لحمله على تناول دوائه، كان يتوقّع "تعاطفًا" في كلّ مرّة يئنّ فيها وهو ما يحدث غالبًا، باختصار، لم يكن الوقت مناسبًا لأقول إنّ صديقتي تحتاج المساعدة، فعلاقتنا في تلك الأيّام هشّة، زجاجٌ عليه صابون يمكن أن ينزلق ويتحطّم في أيّ لحظة، ولن أكسب أيّ شيء إن تحطّم.

بدلًا من ذلك، بقيت في المنزل أنوح على خسارةٍ أخرى، لا يمكن تفسيرها هذه المرّة؛ مغادرة الطفل إلى قرية أمّ ناثان، فاجأتني شدّة حزني، كنتُ أستيقظ كلّ صباح، كأنّ صخرةً على صدري، أذهب إلى المدرسة مذعورة، وأعطي دروسي مرغمة، أعرف أنّ رحلة عودتي من مدرستي في إيميني لن تشمل التوقّف المعتاد في بيت أوبياجيلي قبل بيتي في تينكر كورنر، تعجّبت أوبياجيلي من استعدادي لقيادة السيارة في إنوغو كلّ يوم فقط لرؤية تاتا، حتى لو كان بسيارة بيجو 504 جديدة كلّيًا.

توقّعت أن يعود أوبياجيلي وإيما من دون تاتا، لكنّهما عادا معه، لم يدرك شخصه المشرق والممتلئ أنّه فقد أقرب أقاربه، وعاد الفرح إليّ.

ذات مساء هززته في بيت أوبياجيلي لينام، وضعته في السرير بحذرٍ شديد، السّرير نفسه الذي نام فيه ابنا أوبياجيلي حين كانا في عمره، وُضع السّرير في غرفة الجلوس، بينما كان في غرفة النوم حين كان ابنا أوبياجيلي ينامان فيه، لكن إيما لن يسمح بنوم تاتا في غرفة نومهم.

حدّقت به، أسمع قليلًا من نشرة الأخبار على NTA، لم أكن متحمّسة للذهاب إلى البيت رغم أنّ الساعة تجاوزت السابعة وحلّ الظّلام، لكني فهمت من وجه إيما الكالح وأسئلته عن يوجين أنّه يذكّرني أنّ المتزوجات لا يبقين

خارج منازلهن بعد الساعة السابعة، وقفت وأعلنت أنّي مغادرة إلى صديقي.

"هل تاتا نائم؟" سألتُ من المطبخ.

"نعم."

"سأراك في الخارج." جاءت بعد بضع دقائق، ونزلنا الدرج بصمت مثل الأصدقاء الذين ليسوا بحاجة الثرثرة للاطمئنان، ركبت معي في سيارة البيجو 504، كانت تحبّ سيارتي وتركب فيها كلّما سنحت لها الفرصة، كثيرًا ما كانت تقول إنّ السيارة وحدها تجعل يوجين زوج القرن، الأمر الذي يثير ضحكي، أنا أيضًا أحببت السيارة، مع أنّ مقاعدها الجلدية الرمادية شهدت انهمار الكثير من الدموع.

في تلك الليلة، ونحن جالستان في السيارة في ساحة بيت أوبياجيلي، استدارت نحوي بنظرةٍ جادّةٍ وشرحت لي الخطّة.

استمعتُ إليها وأنا مصدومة، لم أصدّق أنّ صديقتي قادرة على هذه المكيدة.

"لا أستطيع فعلها"، أخبرتها.

إنّها مستحيلة، سيُكتشف أمري، لقد سرقت زوجًا، أمّا سرقةُ طفلٍ فمستحيلة.

"فكّري"، قالت أوبياجيلي وهي ترفع سبّابتها.

"فقط فكّري، ماذا تخسرين من التفكير بالأمر؟"

حين بقيتُ صامتة، أضافت: "ربّما الأمور مقدّرةٌ لتحدث بهذه الطريقة، ربّما هذه الطريقة التي يريد ربّك أن يرسل لك بها طفلًا".

أجبتها: "لكن ليست هذه الطريقة التي يرسل بها ربّ الآخرين الأولاد لهم، لم يرسل ربّك لكِ أولادك بهذه الطريقة".

"نعم، أنت على حقّ." أجابت بصوتٍ فيه نبرة تهدئة، لكنّها تابعت: "لكلّ شخصٍ ربٌّ مختلف، تعرفين ذلك، حتى ربّ هذا الطفل الصغير، هل تذكرين ما أخبرنا به أقارب زوج أمّ ناثان عن أمّ هذا الطفل؟ كيف هربت من البيت؟ لا أحد يعلم مكانها، قلتُ لك، أهل المرأة لا يريدونه، وأهل أمّ ناثان لا يريدونه، وأمّ ناثان نفسها ميتة، حتى أثناء الدفن، تجنّب أهل أمّ ناثان الحديث بالأمر، ليتك رأيتِ نظراتهم المراوِغة. مكتبة سُر مَن قرأ

كانت أوبياجيلي قد أخبرتني بذلك من قبل، هربت الأمّ التي تزوّجت وهي صبيّة صغيرة بظروفٍ بدت كأنّها تنتمي إلى القرن الماضي، لم يرغب رجال العائلة في معرفة أيّ شيءٍ عن الطفل، كان فمًا زائدًا عليهم أن يطعموه، وسيكبر ويطالب بأرضٍ هي ملكهم منذ سنوات، كان طفلًا غير مرغوب فيه، مثل أولئك الذين رمتهم فتيات منحوسات في الشوارع لإخفاء عارهنّ.

فكّرتُ أنّه سيكون مأساويًا إرسال طفلٍ لأناس لا يريدونه، هل سيعيش أساسًا؟

ربّما كان هذا عمل ربّي، لم يكن ربّي لطيفًا جدًّا معي، ولا حتى في أمور الزواج، أو إنجاب الأولاد، ربما بدّل رأيه.

قالت أوبياجيلي حين أدركت ببداهتها أنّ مقاومتي صارت تضعف: "ليس عليك إعطائي جوابًا الآن، فكّري بالأمر، فقط تذكّري أنّ إيما يقول يجبُ أن أوصله لأهله الأسبوع القادم".

"لكن ماذا ستقولين لإيما؟" سألتها.

كيف تعتقدُ صديقتي أنّنا سنفلت من هذا؟

قالت بثقة: "اتركي ذلك لي".

"هل ستقولين إنّي لم أعده إلى القرية؟"

"وماذا عن يوجين؟ زوجي الذي على وشك أن يتركني، من قال لي قبل يوم إنّ ساعات وجودي في بيتنا صارت معدودة".

"ألم أقل لك اتركي الأمر لي؟ تسألين ماذا بشأن إيما؟ ماذا بشأن يوجين؟ ماذا بشأن هذا الرجل؟ وماذا بشأن الآخر؟ لكن ماذا بشأنك؟ نحن النساء علينا أن نفكّر بأنفسنا أيضًا، قلتُ لك فقط فكّري، أخبريني إن كنتِ تريدين الطفل، وسنفكّر بالتفاصيل، معك أسبوعٌ للتفكير لا أكثر."

لم أنم في تلك الليلة، وليالٍ كثيرة بعدها، كان عليّ اتّخاذ قرارٍ حاسمٍ من جديد، وفكّرت بعرض أوبياجيلي، لم تكن أربع سنوات مدّة طويلة، لكن بالنسبة لامرأة عاقرٍ فهي عمرٌ كامل، لم أحبل ولو مرّة، ومع مرور شهور من دون ممارسة العلاقة الزّوجية، قد يستغرق الأمر مدّةً طويلةً قبل أن يحدث، فليكن، قلت لنفسي، إن لم يطردني يوجين، كما فعل مع زوجته الأولى.

لقد أيقظ الطفل تاتا بي روح الأمومة، لقد فتح عينَيَّ على كلام أمي، يتوق قلب كلّ امرأة لأن تحتضن، وتحبّ طفلًا.

صرت أتوقُ لحمله بين ذراعيّ، مع أنّه لم يَنْمُ في بطني، من سيعتني به في القرية؟ الأقارب الذين جعلوا أوبياجيلي تعيده بسرعة إلى إنوغو؟ فكّرت بتأكيدات أوبياجيلي أنّي أسدي لتاتا معروفًا.

ما خطّة أوبياجيلي لخداع زوجي؟ تساءلت.

الرجل الذي أسفه الوحيد أنّ فحولته لم تنتج ولدًا بعد، هل يتقبّل حتى أن أقترح عليه تبنّي طفل لم يخرج من صلبه، سيطردني إن اكتشف أنّه خُدع لقبول طفل ليس طفله، سأجد نفسي في العالم السفلي أخبر أسلافي لِمَ غادرت الأرض بسرعة.

توقّفت الكثير من الأفكار في رأسي، لكن، وبدلًا من مواصلة رحلتها،

بقيت لتنضمّ إلى عرين الحيرة فيه، لم أقل أيّ شيء لأوبياجيلي لثلاثة أيّام، ثلاث ليالٍ مضطربة، وأيّام من التظاهر بأداء الواجبات والمناقشات المعتادة، بينما الأفكار تتأجّج في داخلي، بقيت أقول لنفسي إنّ الأمر مستحيل، مستحيل التحقيق، سيُفتضح أمري، ثم أُطلَّق، وأُهان وأُسجَن.

لم تضغط عليّ، كلّما ذهبت إلى بيتها، أحضن الطفل الصّغير السّعيد السّمين، وأتساءل كيف يمكن لأحد أن يعدّه مسؤولية، كيف يمكن لأحد ألّا يريده، كانت رغبتي تكبر في كلّ زيارة، وصرت أرى أنّ ضحكته تكبر كلّما رآني، حين أعود من زياراتي، صرتُ أتعذّب ليلًا من الكوابيس المليئة بالعقاب.

أخبرت أوبياجيلي أنّي أظنّ أنّ الخدعة لن تنجح هذه المرّة، لكنّها لم تشاطرني الرأي، "حيثما توجد إرادة...."، ذكّرتني وانتظرتني لأكمل العبارة التي تعلّمناها في دروس الإنكليزي في السنة الأولى في مدرسة أبا الثانوية للبنات عام 1951، "توجد طريقة"، رددتُ عليها.

قالت إنّها في هذه المرّة تستطيع أن تساعدني، أردت أن تصيبني بعدوى الثّقة، لكن قلبي ظلّ يرتجف.

في النهاية، لم يكن القرار صعبًا - لو كنتُ صادقة - لاتّخذت القرار في اللحظة التي سألت فيها أوبياجيلي إن كنت أريد تاتا، كنتُ أريده، بكلّ كياني.

الجزء الثالث

محفوظ، 2011

الفصل السادس عشر
نوابولو

تجهّزت للعمل في الظلام؛ كانت تحرّكاتي حاذقة وهادئة، كان إيفيتشي يتساءل دومًا لِمَ أفعل ذلك؟ دائمًا يقول إنّه لا يمانع أن يوقظه أحد، لكنّها عادة قديمة تعلّمتها خلال سنوات كثيرة من الخدمة المنزلية مع الغني والفقير؛ إيواء الآخرين، احتواء المسائل والتأكّد من عدم ظهور مشاكل، جعل احتياجات الآخرين أولوية واحتياجاتك ثانوية، كنت أتعلّم أن أقدّر نفسي، لكنّه كان عملًا عليّ أن أقوم به بقية حياتي.

العمل، العمل بجدّ كان أيضًا أمرًا متأصّلًا عندي، إن حدث واستيقظ إيفيتشي ليّلًا لقضاء حاجة، ورآني مرتديةً ثيابي، يحدّق بي ويقول، كأنّها حقيقة معروفة عالميًا لدى العقلاء: "نوابولو، في الحياة أشياء أخرى غير العمل." صدّقت الكثير من الأشياء التي كان يقولها؛ النزاهة والاستقامة متأصّلان فيه ويبدوان على وجهه، وبوسع الجميع رؤيتهما مثل تلك العِلامات البيضاء التي توضع على الأولاد قديمًا لمنع التّشنجات، صغيرة لكن واضحة، إن كان في الحياة غير العمل، فالعمل أساسُ كلّ شيء، أقلّها بالنسبة لأولئك الذين لم تعطهم الحياة شيئًا؛ لأنّ الحياة أخذت منهم أشياء مهمّة، مثل طفل.

مرتديةً أفضل ما عندي، تنّورةً طويلةً من قماش أنقرة أخضر اشتريته من أونيتشا، وفصّلته وفق موديل حورية البحر الفضفاض الذي لم يُظهر أيّ علاماتٍ على بطلان موضته منذ العام 2000، قميص شيفون بلا أكمام أظهر ذراعَيّ المكتنزتين والمشدودتين، شبشبٌ عصريٌّ مستوٍ للراحة، وشاحُ شعرت

أنّي أحببته، كلّها اخترتها في الليلة السابقة، اتّجهت حيث ينام إيفيتشي، كان ما يزال نائمًا، هو من الناس المحظوظين الذين ينامون مثل إيدي الذي يُضرب به المثل؛ بينما كنتُ على عكسه، أستيقظُ بسبب أدنى صوت، ابتسمت له في العتمة على الرغم من أنَّ صوت شخيره اللّطيف يكسر السكون.

خرجت من الغرفة أمشي بهدوءٍ في الظّلمة نحو المطبخ، هذا عملنا المتكرّر؛ أخرجُ للعمل وهو يتجهّز للذهاب إلى عمله، قال إنّه لا يطيقُ قضاء ساعاتٍ طويلةٍ في العمل من دون رؤيتي صباحًا، ابتسمتُ من جديد، كان مثل ذلك الرّوتين مريحًا للغاية مثل البطّانية في برد ريحِ الهرمتان.

أشعلت الضوء حين دخلت المطبخ، برغم أنّه بوسعي أن أجعل إحدى العاملات تعدّ لي الفطور، إلّا أنّي أعده بنفسي، وفي عطل نهاية الأسبوع، أجعل إيفيتشي يعدّ فطوره بنفسه، والسّبب بسيط؛ أستيقظ أوّل الجميع، وتستيقظ معدتي معي، متسائلةً إن كانت معدتي لا تصدّق أنّ أيام الجوع وعوز الطّعام قد ولّت.

جلستُ على كرسيٍّ بلا ظهر، وأخرجت روايةً من حقيبتي ثم تركتها على المائدة. حضّرتُ لنفسي شراب الشوكولاته من علامة ميلو، ووضعتُ ملاعق طافحة من مسحوق الحليب من علامة بيك في فنجاني. أخذتُ رشفة من شايي - كما نسمّي كلَّ مشروبٍ ساخنٍ في منزلنا - ووضعتُ بضع شرائح من الخبز في طبق، ثمَّ التقطتُ كتابي. لقد اشترى لي إيفيتشي وابني تشوكوميكا جهاز آيباد وحمّل لي بعض الكتب الإلكترونية عليه، لكنني قديمةُ الطّراز، أو هذا ما يظنه تشوكوميكا. إن كان تقليب الصفحات البنيّة وقلب الكتاب على وجهه حين يُضطر الشّخص لعمل شيء آخر ثم العودة إلى الصفحات المألوفة ليجدها كما هي يجعل الإنسان قديم الطراز، فنعم، أنا كذلك وسأبقى دائمًا.

آكل من دون تصنّع أو كياسة، كان ذلك إحدى فضائل طعامي الصّباحي المبكر، فلستُ مضطرّة لمراقبة سلوكي أو أن أتصرّف كما لو أنّي شخصٌ ذو تربيةٍ جيّدة، أمضغ طعامي بهدوء، لا أدع اللّعاب يخرج من فمي، كما كان يُصرّ الأب هذه الأيام، تنفّستُ بعمق، وتمنّيت ألّا يستيقظ أحدٌ لبعض الوقت. علقت رائحة حساء الأورا من الليلة الماضية على الجدران، وبدأت تتسللّ الآن إلى أنفي.

مرّت ساعةٌ من الزمن وأنا مستيقظة، منغمسة في كتاب كولومبيا، قبل أن تدخل إحدى فتياتي.

"صباح الخير، ماما." قالت، وما تزال ناعسة.

"صباح الخير، نكيتشي، هل نمتِ جيّدًا؟"

بهذه الكلمات بدأ اليوم فعليًا، حزنتُ قليلًا أنّي عدتُ بالغةً من جديد، أعدتُ الكتاب إلى الحقيبة، وبدأت أتجهّز لتناسب ملامحي صوتي، سيّدة البيت

"نعم ماما." ردّت، رأيت أنّها لم تصحُ جيّدًا بعد، وقفت، كان طولها يصل إلى ما دون صدري، فعرفت أنّها لن تكون طويلة، ساقاها قصيرتان وممتلئتان، ثابتتان على الأرض مع تقوّسٍ بسيط، كأنّهما لا تدركان السّبب الذي يجعل قاماتنا تطول في سعي نحو السماء.

جاءت من قريةٍ في أودي، تعيشُ معي منذ عامين، في البداية كانت تأكل كأنّ الطعام شيءٌ جديد، أو بدعة اخترعت في بيتي، بدا ذلك في محيط خصرها، ولكن ليس في طولها. نينا، الفتاة الأخرى تعيش معي منذ سنة، دائمًا تشتكي لي، حاولتُ ألا أظهر غضبي، لم تكن تعرف عن الماضي لتعرف أنّي لا أغضبُ من فتاةٍ تأكل كثيرًا، إذ كنت أعرف - مثلما تعرف الزوجة ما يفعله زوجها العزيز في ساعات الفجر - ما شعور الجوع.

سمحت لنكيتشي بالطّعام، وكانت مكافأتي عاملةً مجدّةً تستيقظُ لتبدأ أعمالها كلّ صباحٍ قبل الجميع.

"عندما تستيقظ نينا، أخبريها أن تُعدّ إفطار بابا أونيني، ثم تعالا إلى المتجر بعد أن تأكلا".

"نعم، ماما."

"إن جاء النجّار هذا الصّباح قبل أن تخرجا، فاتّصلي بي من هاتفك لأتحدّث معه." وأنا أقول ذلك، تأكّدت من وجود هاتفي في حقيبتي.

"نعم ماما."

"أخبريه أنّي قلتُ ألّا يبدأ العمل في المدجنة قبل أن يتحدّث معي أو مع إيفيتشي." شددتُ أذني للتأكيد.

"نعم، ماما." أجابت، صبورةً، مذعنةً كما كنتُ منذ سنوات.

كنتُ مختلفة، طمأنت نفسي، كنت سيدة أفضل ممّا كانت بعض السيدات معي أو مع الخادمات اللّواتي عملت معهنّ، لم أرهقهنّ بالعمل، كما أنّي أرسلهنّ إلى بيوتهن كلّ أسبوعين. أطعمهنّ جيّدًا، وينمن على أسرّةٍ مريحة، لم أرفع صوتي عليهنّ كثيرًا، ولم أرفع يدي عليهنّ أبدًا، لم أجعلهنّ يعملن عملًا أستطيعُ أن أعمله بنفسي، فأحضرُ لنفسي الماء حين أريد أن أشرب، أبحث عن الحلي الضّائعة تحت سريري، أقدّم لزوجي طعامه حين أكون في البيت، وأنظّف ورائي. أسمح لهنّ بالراحة، خاصّة أيّام الأحد، والأهمّ أنّي علّمتهنّ مهنتي، الخياطة، حتى يعتمدن على أنفسهن حين يتركنني ويساعدن أهاليهنّ، على عكس الكثير من السيّدات، كنت أتحدّث معهنّ بحريةٍ عن الجنس والحبّ، الحيض والرّغبات الأنثويّة، تحديد النّسل والأمراض المنقولة جنسيًا، وأهمية انتظار الشّخص الملائم، والوقت الملائم، تجاهلت تعابيرهنّ المرتعبة وخجلهنّ وأخبرتهنّ ما كان

ينبغي أن يُقال لي عندما كنت في عمرهنّ.

"هل نحضر معنا بعض الأوكبا؟" سألت نكيتشي.

"لا." شعرتُ بالشّبع الزائد، لكني عرفت من التجربة أنّ بطني سيطلب الطعام من جديد بين الإفطار والغداء.

عندما خرجت، كانت الشمس ما تزال تفكّر إن كان عليها العمل ليوم جديد، قرقعت السيارة قليلًا، تحاول أيضًا أن تقرّر فيما إذا كانت 10 سنين في الخدمة - على فرض حسن الظنّ بالميكانيكي الذي ابتعتها منه - لم تؤهلها للتّقاعد بعد.

كانت المسافة من بيتنا إلى محلّي قصيرةً بالسيارة، بيتنا، بدت هذه العبارة رائعةً مثل أيّ شيء استغرق وقته بالمجيء، برغم أنّه لم يكن في ضاحية الاستقلال كما حلمت، كان بيتي - بيتنا - لا يمكن لأيّ شخص أن يشمئزّ من بيتٍ في ترانز إكولو.

أفضل ثلاث ضواحٍ هي: ضاحية جرا وترانز إكولو وضاحية الاستقلال، بنتها الحكومة بداية، ومن ثَمّ سكنها الموظفون، في الأيّام التي كانت فيها الوظيفة المدنية عملًا مناسبًا تنال فيه راتبك من دون انقطاع، ومعاشًا تقاعديًّا مضمونًا. تقع ضاحية ترانز إكولو بين ضاحية جرا وضاحية الاستقلال التي يسكنها الأغنياء وعملتُ فيها خادمةً أول الأمر في منزل السيد، أمّا ضاحية جرا فهي أحياء محجوزة للحكومة، سكنها سابقًا المستوطنون الأوروبيون وكبار الموظفين المدنيين حتى تقاعدهم من العمل الحكومي، إلّا أنّ الأمور تغيّرت، فصارت ضاحية ترانز إكولو تجاريةً كما تصوّرت أنّ معظم الأماكن في نيجيريا ستحذو حذوها، حوّلوا الملعب إلى مركز تسوّقٍ كبير، وعلى طول شارعَي داميجا والاتّحاد، تجد محلّاتٍ تبيعُ كلّ شيء، بدءًا من الخضار، وحتى

شباشب الأطفال والأجهزة الكهربائية، ويغطّي الغبار الأحمر الذي لا يستطيع أحد الهرب منه جميع الأواني. كان محلّي هناك حيث أعلّق فيه منتوجاتي للنّساء الغنيات، وأحيانًا الفقيرات.

يقع منزلنا في أحد الشوارع التي ما زالت هادئة، كنت أقول لإيفيتشي عسى أن يظلّ السّوق في مكانه، لنظلّ في هدوء وسلام، لم يكن منزلًا جديدًا، لكن الكبرياء الذي كان يكبر عندي كلّما قدت السيارة في مجمعه ذي الحجم الملائم ينافس السعادة التي شعرت بها بنعمٍ أخرى في حياتي، أنا، مالكة منزل في إنوغو، مَن كان يفكّر بذلك؟ مَن؟ الخادمة من نوكينتا؟ الخياطة في أباكبا؟ تمنّيت لو يراني أبي، ويرى منزلنا.

كان بحاجةٍ إلى الكثير من العمل حين اشتريناه، تخلّى عنه أصحابه السابقون، فصار خرابةً حتى وهو مسكون، أصرّيت على الانتقال إليه، ومن ثَمّ نبدأ ترميمه تدريجيًّا. وافق إيفيتشي، كنّا متحمّسين جدًّا، تذكّرت المنازل التي عملت فيها، المنازل التي حملت إليها شريط القياس الخاصّ بي أو المنتج النهائي، وعقدت العزم أنّنا سنعيش في منزلٍ مثل ذلك أيضًا، مزهريات مطليّة بالذهب، شموع طيّبة الرائحة، وستائر كثيرة الألوان، كنت دومًا أبحث عن أغراض الزينة

عندما انتقلنا إليه أوّل مرّة - قبل ثلاث سنوات - تساءلت إن كنّا سنتخلّص من رائحة بخور مالكيه السابقين، لكن مع إقامتنا فيه وملئه بروائحنا الخاصّة، رائحة حساء أورا الذي يحتاجه زوجي تقريبًا مثل الهواء، ورائحة الماعز وبعرها وبولها، ورائحة الأثاث الجديد الذي اشتريناه ليلائم غرفة الجلوس في الطابق الأرضي، ورائحة شموعنا التي لم نشعلها مخافة أن يحترق المنزل، ورائحة ملطّف الجو بعطر اللافندر الذي أرشه في غرفة الجلوس كي يشمّ ضيوفنا رائحة منعشة، بدأت كلها تُخفي رائحة البخور الخانقة شيئًا فشيئًا، ربّما

لحقت من أشعلوها من قبل، وعمّا قريب، سأضيف رائحة الدجاج الذي كنت أخطّط لوضعه في المدجنة إن انتهى النجار - السيد إيمانويل - من إنشائها خلال حياتنا.

لم يكن زوجي يتطلّعُ لاكتمال بنائها، فرائحة المدجنة برأيه توقظ الموتى، ولماذا نحتاجها؟ فتجارته بالحواسيب، وعملي في الخياطة كافيان لإطعامنا، لماذا علينا أن نضيف رائحة براز الدّجاج كي نقول للربّ إنّنا كنا نعمل بجدّ؟ تجاهلت ذلك، كنت أعرف الحيلة؛ لا تناقش كثيرًا حين تريد شيئًا، إيفيتشي يحبّ المجادلة والفوز، بعد قرابة عقدين مع بعضنا، صار يفهم ذلك، لكن من الصّعب تغيير العادات القديمة، لا يهمّ عدد المرّات التي خسر فيها - وهي كثيرة - كان عليه أن يجادل، طالما أنّي لا أدخل في جدالٍ معه عندما يتجوّل في المنزل، ويتكلّم في أيّ مسألة، طالما أنتظر حتى يصير في غرفةٍ فيها كلانا فقط لا غير، ولا أحد يسمعنا، أربحُ الجدال، ويمكنني فعل أيّ شيء أريده، لذا كنت أتجاهله وتابعت في مشروع المدجنة، كما يقول شعب الإيبو: لا تقف في مكانٍ واحدٍ لتشاهد الحفلة التنكريّة، الاستثمار في مشاريع متعدّدة سيقول للفقر إنّنا جدّيون في عدم مصادقته.

ركنت السيارة أمام محلّي، نزلت وفتحت القفل الثقيل، دخلت وتنفّست نفسًا عميقًا: حان الوقت لصنع ملابس الأغنياء وغيرهم.

عندما جلست إلى طاولتي، وقبل أن أفتح كيس القماش الذي يجب أن أبدأ العمل به في ذلك الصباح، جاءني إحساسٌ أنّ ذلك اليوم سيأتي بمفاجآت، كان الشعور قويًا لدرجة أنّي بقيت ساكنة، سامح الربّ مَن ظنّ أنّي كنت أتأمّل أو أصلّي، لم تكن تلك من هواياتي، فليس لديّ وقتٌ لأجلس بلا عمل، غير أنّ الإحساس جاء قويًا، راودني مثل هبّة ريحٍ قويّة، تنفّست نفسًا عميقًا، يعلم

الربّ أنّي لم أكن من أهل الحدس، لو كنت منهم، لعرفت أنّه لا يجب أن أعود مع إزينوا إلى أمّ ناثان في ذلك اليوم، ومع ذلك تراودني تلك الأحاسيس أحيانًا، مثلما التقيت إيفيتشي قبل عشرين عامًا.

التقينا في حفل جمع تبرعات في فندق بريزيدنشال، فعالية لا أحضرها في السّياق الطبيعي للأحداث، لم أكن أبالي بالأغنياء وأهل الطبقة الوسطى وهم يستمتعون بصحبة بعضهم في فندق أو مطعم فخم مرتدين ملابسهم الأنيقة، وربما يتبرّعون بالقليل، إلّا أنّ زبونًا كنت قد صنعت له ملابسه، وكان لديه أداء قسم أو شيءٍ من هذا القبيل، طلب منّي الحضور وانتهى الأمر بي جالسةً إلى جانب إيفيتشي.

كان الانجذاب فوريًّا، والمفاجأة أنّه متبادل، فالرجال - غالبًا - ينجذبون لي، ربّما بسبب طولي، بشرتي الدكناء الشابّة دومًا التي ورثتها من أبي، لكنّي لم أكن أنجذب لهم دومًا؛ التكبّر والتأكيد على أنّ العالم برجاله ونسائه، الصّفة التي كانت تشمل معظم الذكور، لا تعني لي كثيرًا كلّما تقدّمت بالعمر، رجلٌ مثل هذا، والذي على الأرجح له زوجةٌ داخل البلاد أو خارجها، كان يعني لي أقلّ من غيره حتى، ومع ذلك وجدتُ في هذا الرجل شيئًا جاذبًا.

لم أتخيّل أنّ الأمر سيتطوّر لأكثر من الإعجاب، هو رجلٌ مثقّف، ومتعلّمٌ وميسور الحال، وأكبر منّي بعشر سنوات، وأنا تعلّمت وجمعتُ بعض المال، لكنّي كنتُ مجرّد خيّاطة ناجحة، بينما هو مسؤولٌ رفيعٌ في الولاية، ويديرُ أيضًا بعض المشاريع التجارية الخاصّة.

ظلّ يتبعني، لم يظنّ أحدٌ أنّها فكرة رائعة، ولا حتى أهله الذين قالوا إنّي دون مستواه، ولا حتى أوزوماكا وزوجها اللّذين أكّدا استحالة طيب نواياه، كان أكبر من اللازم ليناسبني عمرًا، كما أنّه يزيدني ثقافةً بكثير، ولا شيء يجمعنا،

استغرق الأمر منه عامين كاملين ليقنعني، وتزوّجنا، كانت تلك آخر مرّة أذهب فيها إلى نوكينتا، حالما دفع المهر، أغلقتُ فصل مسقط رأسي.

عادت أفكاري إلى المحل والزبائن الذين يجب أن يأخذوا ملابسهم في ذلك اليوم، أخذتُ قماشًا أحمر فاتحًا عليه طبعة برّية، لكن في نهاية اليوم، وتحت يدَيّ وناظرَيّ، سيزيّن جسد تضاريس جسد امرأة، كان شعوري بالانزعاج قويًّا للغاية، إنّ العمل على القماش في هدوء الصّباح الباكر لم يجلب السّلام والإنتاجيّة المعتادين.

مرّ إيفيتشي إلى المحلّ في طريقه للعمل، أحضر معه نكيتشي ونينا، أرسلتهم لأداء عملٍ قبل أن أتوقّف لأنظر إليه، لا أملّ منه، قد يسبّب الزمن تلاشي كلّ شيء، إلّا حبّي الكبير لهذا الرجل، ابتسمتُ، فابتسم لي، حوَت تلك المبادلة كلّ شيء؛ الراحة، الأمان، الرابطة، الصداقة، وحتى الرّغبة، كلّ الأشياء التي يتضمّنها الزّواج الطّويل النّاجح.

خرج إيفيتشي، ثم عاد مع ويدجمان - أحد أقارب إيفيتشي البعيدين - وأحد الذين ساعدهم كثيرًا، جاء ويدجمان للبيت، وعندما لم يجد فيه أحدًا، قرّر أن يأتي إلى المحلّ، بما أنّ الساعة كانت الثامنة صباحًا، سألت نفسي متى نهض من فراشه! لا بدّ أنّه استقلّ أوّل باص من أوكباتو ليصل باكرًا جدًّا، تساءلت ماذا يريد الآن؟

"المدام نواني نوكينتا، المدام الرائعة، حرم السيد إيفيتشي." عدد ألقابي، تلك التي منحني إيّاها وهو يصرّ على أسنانه، وخدّاه الأسودان تمطّطا من الجهد، وعيناه تلمعان، لا بدّ أنّه حصل على مالٍ من أحد أقاربه، خطر لي، تساءلت عن السبب هذه المرّة، إن لم تكن زوجته مريضة، فإنّ أحد أبنائه في مشكلة لعدم دفع التزامٍ ما في المدرسة، أو أنّ العمال في مزرعته هدّدوه بقطع ساقه السليمة

لفشله في الوفاء بوعوده في الدفع لهم، أو أنّ بطنه تقرقر منذ يومين، والآن تهدّد بالقفز من المكان الذي وضعها فيه الخالق بكل عناية. كان لسانه سلسًا وسريعًا في سرد قصصه.

قبل سنواتٍ كثيرة، عمل ويدجمان مساعدًا على الشّاحنات الطويلة الثقيلة التي تنقل الخضار من أراضي شمال نيجيريا الخصبة إلى الشرق، كان عمله يتلخّص في وضع وتدَيْن - لوحين كبيرين من الخشب - وراء الإطارات لمنع رجوع الشاحنة من مرتفعٍ على الطّرق المزدحمة أو الطّرق السريعة المفردة، إنّ عمل واضع الأوتاد أو 'ويدجمان' مهمٌّ للغاية، يجب أن يقول لي ذلك، غير مدركٍ أنّه أخبرني الشّيء ذاته مرّاتٍ كثيرة منذ أن تزوّجت إيفيتشي، يمكن أن تُسقط الشاحنة كلّ الطعام الذي فيها - الخضار الطازجة، والذرة، والبطاطس الحلوة، والبطاطس، والفليفلة، والطماطم - لتنهرس جميعها على الطّريق مسببةً خسائر هائلة لجميع المعنيين بالأمر، أو قد تصطدم بشاحنةٍ ثانيةٍ ويموت الناس، مات أحد السائقين الذين كان يعرفهم بهذه الطريقة - منظرٌ مؤسف - وحرمه كابوس ذلك المنظر النوم لليالٍ عديدة، لذا فإنّ عمل ويدجمان هو الأهمّ في العالم - كما يقول - "أتمنّى لو أستطيع أن أصير ويدجمان"، كان ابني شوكوميكا يقول حين كان صغيرًا، لكنّ ويدجمان أخبره وهو يضحك أنّه متأكد أنّ والديه - إيفيتشي وأنا - لديهما خططٌ أفضل له، فضلًا عن ذلك، فإنّه لا يتمنّى أن يحدثَ لغيره ما حدث له في ذلك العمل.

كان يؤدّي عمله جيّدًا وصار الجميع ينادونه ويدجمان، وغاب اسمه الأصلي عن كلّ من عرفه تقريبًا، ذات يوم، لحقه الحظّ السيء الذي رافقه منذ أن خرج من رحم أمه وماتت حينها، تأخّر في القفز من الشاحنة، وحين نزل منها، كانت الشاحنة ترجع للوراء بينما تتقدّم من الخلف شاحنةٌ معطوبة المكابح، وهكذا

صدمته الشاحنتان وهرستاه مثل سردينٍ في شطيرة - الطّعام الذي كان يحبّه حين جاء إلى بيتنا في إنوغو - عندما سمعت القصّة، حاولت أن أتخيّله صغيرًا وأسود، وشعره أسود يلمع بين شاحنتين بيضاوين وهو يصرخ بصوته العالي أصلًا.

أحضروه إلى مشفى العظام الوطني في إنوغو، وبعد أن غادر المشفى، ظلّ ابن عمه، إيفيتشي، يزوره بانتظام ويعتني به، عندما كانت زوجته على وشك الولادة، ذهب إيفيتشي إلى القرية وأحضر زوجته إلى المشفى، إذ كانت بحاجة لعمليةٍ قيصريّة، أحب ويدجمان زوجي، وفي موسم البطاطس الحلوة يحضر لنا إلى البيت أكياسًا منها، ويجرّ وراءه ساقه المُصابة، حاول إيفيتشي في البداية أن يثنيه، لكنّه توقّف حين رأى أنّ ذلك يؤذي مشاعره، وهكذا ينتظره إيفيتشي حتى يأتي، ومعه المحصول قبل تناول البطاطس الحلوة الجديدة لذلك العام.

والآن، سلّمه إيفيتشي لي، وابتسم لي بالطريقة الوحيدة لإظهار العاطفة التي شعر أنّه قادر على بيانها، أخبرني أنّه سيتّصل بي بعد عصر ذلك اليوم.

غادر إيفيتشي، وبقي ويدجمان، كنت ألمّح له من حين لآخر أن باص أوكباتو سيغادرالسوق، لكنّه تجاهلني، بدا كأنّه جاء إلى المدينة اليوم، ويريد أن يظلّ فيها قدر المستطاع، كان يحبّ الثرثرة، وصار يحكي إحدى قصصه للكادر، خشيت أن يلهيهم عن عملهم، لكنّ كثيرًا منهم كانوا يعرفونه ويعرفون ميله للكلام، لذا تجاهلوه، كان صوته يرتفع وينخفض حتى تظنّ أنّه يغنّي أغنية.

بدأ اليومُ يشقّ طريقه، وصار الوقت عصرًا، لم يحدث أيّ شيءٍ استثنائي، حتى غياب جوفري عن العمل بدا اعتياديًا، أرسل رسالةً يقول فيها إنّ أمّه مريضة. لقد ناقشت مع إيفيتشي مسألة طرده من العمل، إلّا أنّ إيفيتشي قال إنّه يخيط زخرفة القفاطين أفضل من أيّ أحدٍ نعرفه، لم يكن زبائني الذكور بعدد زبائني الإناث، لكنهم أسرع في الدّفع، وأبطأ في التخلّي عن ملابسهم.

الصدمة الوحيدة الخفيفة في ذلك اليوم هي زيارة ويدجمان الطويلة، بقي حتى الساعة الواحدة، لكن حين همّ بالمغادرة، وخرجنا من غرفة العمل إلى غرفة العرض، وصرنا في الاستقبال، دخلت امرأة.

أستطيع القول إنّها عاشت حياةً مُريحة، بدا على بشرتها أثر استعمال كريماتٍ باهظة الثمن، كما أنَّ عطرها يسبقها، لافتًا الانتباه بطريقةٍ عذبةٍ إلى المرأة الممتلئة التي طرقت أبواب الشّيخوخة. ارتدت نظّارات شمسية من ماركة شانيل، رفعتها لترى صالة الاستقبال.

تابعتُ عينيها، وهي تتجول في الصالة بإعجاب، الأريكة الفخمة ذات اللون العنابي، حيث بوسع الناس الجلوس عليها والانتظار حتى ترسل موظفة الاستقبال في طلبي، كانت ما تزال رائعةً بعد عامين ونصف، استغرقت منّي شهورًا لأنتهي من دفع ثمنها لزبونة جمعت ثروةً من إدارة شركة مفروشات مستوردة، أمّا الطاولة الحاملة للمرآة، فقد اشتريتها دون تفكيرٍ مطوّلٍ في إحدى رحلاتي إلى لاغوس قبل عامين.

كان إيجاد طريقةٍ لإعادتها صعبًا، وندمت كثيرًا على دفع مبلغٍ كبيرٍ على غرضٍ واحد، لدرجة أنّي كدتُ أعيدها إلى البائع في جزيرة فيكتوريا.

غير أنّها كانت قيّمة، إذ بدت أنيقة جدًّا حين وضعتها في غرفة الاستقبال. فلمعان خشب مكتب الاستقبال، وطلاء الجصّ البنّي الذي اخترته فوق ورق الجدران، والثّريا، كلّها توحي لك أنّك تدخل أفخم محلّ خياطة في إنوغو، بل في شرق النيجر كلّه.

قلت: "طاب مساؤك مدام." ، اتّباعا للأدب، كنت على وشك كسب زبونٍ جديد، وذاك ما كان يسعدني دومًا.

ردّت: "طاب مساؤك عزيزتي." كان صوتها لطيفًا، ولكن حازمًا، صوت

من يعرف ماذا يريد ويتوقّع أن يُلبى طلبه، استغرق الأمر منّي دقيقة كي أعود إلى الحاضر، لم أعد خادمة، بل سيّدةً في حدّ ذاتها، شهقت شهيقًا عميقًا، وزفرت مع ابتسامة.

"كيف يمكنني مساعدتك؟" سألتها بالإنكليزية.

ابتسمتْ لي وقالت: "أوصتني صديقة بهذا المكان، السيدة نواجيه".

"آه، نعم، السيدة نواجيه من زبائني المحترمين." أجبتها.

"رجاءً، تفضّلي بالجلوس"، أشرت لها إلى إحدى الأرائك، أردت أن أعطيها إحدى مجلات الموضة الخاصّة بي، وبدأ شعور الدّونية يخفّ وتحلّ محلّه الحماسة

"هل تريدين مشروبًا؟"

"نعم، من فضلك، ماءً باردًا إن كان لديكم".

ذهبت إليزابيث، موظّفة الاستقبال، لتحضر الماء.

عادت ومعها زجاجة ماء إيفا مختومة وكأس جافة.

عبّت الماء عبًّا، لم يكن تصرّفها مهذبًا، كانت عطشى جدًّا.

ظلّ ويدجمان أثناء ذلك واقفًا بهدوء في آخر صالة العرض، تساءلت إن كان ما يزال ينوي المغادرة وأمّلت بذلك.

"آه، إنّها أنتِ، مدام." قال فجأة.

نظرت المرأة إليه والارتباك بادٍ على وجهها الذي وضعت عليه المكياج بحرفيّة.

"ألست السيدة أوبيتشينا؟" سأل.

"نعم، هي." ابتسمت قليلًا مع أنّ عينيها ظلّتا تبدوان حائرتين.

"مدام، أنا ويدجمان." كان متحمّسًا، هكذا بدا، لكن كلّ شيء، مهما كان صغيرًا، يُثير ويدجمان.

"يا إلهي!" قالت، "ويدجمان! مرّ وقتٌ طويل، أين كنت؟"

التفت ويدجمان نحوي وهو مبتهج، وقال: "هذه سيدتي الكبيرة، كنتُ أعمل سائق إحدى مركبات شركة زوجها."

"هممم." قلت مبتسمةً للمرأة التي التفتت نحوي.

"سيّدتي، لقد كنت في القرية."

قالت: "تبدو بحال جيدة."

ابتسم مع بعض التباهي، "مدام، ماذا عن أوغا؟"

خفضت رأسها: "لقد مات."

"ياه!" صرخ ويدجمان.

"ها أمبانو!"[42]، لم يكن أوغا كبيرًا. "غندو اندو! لو عرفتُ بذلك لأتيت."[43]

"حدث ذلك قبل ثمانية عشر شهرًا." ما زال صوتها لطيفًا، والألم في عينيها أكثر من أيّ مكان آخر.

كرّر بجديّة: "لا" ثم أردف: "وفّقكم الربّ أنت وابنك، لا بدّ أنّه بالغٌ الآن".

"نعم، في الحقيقة، إنّه يجهّز للزواج، ولهذا جئتُ إلى هنا، لتفصيل بعض الملابس للعرس." قالت مبتسمة، ابتسامة حقيقية.

"نعم، نعم، تقصدين أنّ أفام كبر لسنّ الزواج".

"لقد مرّ وقتٌ طويل." قالت وما تزال مبتسمة.

(42) (Ha, mbanu) تعني يا أخي بلغة الايبو.

(43) (Ndo) تعني "لا" بلغة الايبو.

"هذه زوجة أخي، مدام. أناديها آدا نوكينتا!"[44].

قطع أخي الطريق إلى نوكينتا ليحضرها إلى أوكباتا، قريتنا، هي صاحبة هذا المحلّ". بدا فخورًا وسعيدًا بنفسه، كأنّه تسلّق الجبال السّبعة مع أخيه.

"نوكينتا؟" سألت.

كان شيءٌ ما في صوتها، غير معروف، بالكاد هناك، لكن وجهها لم يفصح عن شيء.

"أعرف أحدًا كان له أقارب هناك." قالت، وعيناها على وجهي، نظرة تساؤل ربّما.

من المؤكّد، اعتقدت، ربّما لم تعدّ صديقة هذا الشخص الذي لديه أقارب هناك، كنتُ سأطمئنها، لم تكن نوكينتا مكاني المفضّل في العالم أيضًا.

ابتسمتُ لها.

"ذكرتِ أنّ ابنك سيتزوّج قريبًا، خبرٌ سارّ، مبارك، مدام."

هل سيغادر ويدجمان؟ تساءلت.

قالت: "نعم، سيتزوّج." ، وردّت لي الابتسامة.

"أريد تفصيل بعض الملابس لحفل الزفاف التقليدي، ولحفل الزواج بالفستان الأبيض كذلك، قالت أوبياجيلي إنّك ماهرةٌ جدًّا".

كانت أوبياجيلي هي السيّدة نواجيه، المرأة التي كنّا نرسل لها ملابسها حين تتّصل بالهاتف، أو ترسل رسائل نصّية حتى لا يرى زوجها الملابس، في إحدى المرّات، اضطررت أن أغادر بيتها مع الملابس التي أخذتها لها، وتظاهرتُ أنّي كنتُ أبحث عن منزلٍ آخر، لأنّ زوجها عاد فجأة وفتح الباب حين رننت الجرس.

(44) (Ada Nwokenta) تعني ابنة نوكينتا بلغة الايبو.

قلت لها: "نبذل قصارى جهدنا."

كان ذلك صحيحًا، إذ كنت أبحث عن الكمال في كلّ قطعة قماش وجدت طريقها إلى محلّي، درست الأزياء في المجلّات التي اشتريتها من لاغوس، واشترت لي ابنتي أونيني بعض المجلّات عن طريق الإنترنت، كان لها نظرة ثاقبة، وأرادت خوض تجربة عرض الأزياء مستفيدةً من طولها، الذي ورثته منّي، ولذلك بدت الفكرة ممكنة. أصبحت الأزياء صنعةً مهمّةً في نيجيريا، كنت دومًا أقول لإيفيتشي، ربّما تصير ابنتنا ذات شأنٍ فيها، لكنّ أباها أصرّ على رأيه برفض ذلك، كان ذلك من الأمور القليلة التي لم نتّفق بشأنها، احتفظت برأيي وانتظرت؛ ليكن ما يكون، في تلك الفترة، كنتُ أسمح لها أن تلعب بالقماش حين تعودُ من المدرسة، وآخذ مشورتها بشأن تصاميمي.

كنت أقصّ معظم القماش الذي يأتي إلى المحلّ بنفسي، من المعروف عنّي أنّي أسهر اللّيل في فكّ وإعادة تفصيل الملابس التي لم تلبِّ معاييري، ألتزم بمواعيدي، والخيّاطون الذين عملوا معي يعرفون أنّ الالتزام بالمواعيد قانونٌ لا تجوز مخالفته، كانوا يعلمون أيضًا أنّهم سيحصلون على مستحقّاتهم في وقتها، وأنّي أدفع لهم أجورًا تنافسيّة.

كانت مكافأة التزامي بالمواعيد عقودًا لتفصيل أطقمٍ لفلم نولي وود، وللنّجوم ذاتهم، ومؤخّرًا، تعاملت معي موسيقيّةٌ شابّةٌ مشهورة، وكانت جدّ راضية، ووعدت أن تُحضر أصدقاءها.

"نعم، هي رائعة، رائعة جدًّا." أيّد ويدجمان.

ابتسمت له: "إنّ الوقت يتأخّر."

"نعم." وافقني، غير أنّه لم يتحرّك للمغادرة.

فهمت السيدة أوبيتشينا التّلميح، بحثت في حقيبتها، وأخرجت بعض

المال، وأخذه ويدجمان بشكرٍ مُفرط، لقد كانت زيارة رائعة بالنسبة له - فكّرت - أولًا مع إيفيتشي، والآن هذه السيّدة، ومع ذلك لم يتحرّك، سأقتله في المرّة القادمة التي يمرّ فيها، كنت أستشيط غضبًا وأنا أبحث في حقيبتي عن نقودٍ إضافيّةٍ من أجله.

بعد مغادرته، فحصت القماش الذي أحضرته المرأة، قطعتا قماش من دانتيل غالي الثمن، واحدة خضراء، والثانية بنفسجية، أثنيت على جودة القماش؛ ليس ثمّة شيء يحبّ الزبون سماعه أكثر من أنّه اختار القماش المناسب ليومه المميّز، لكنّ قماشها كان رائعًا. اتّفقنا أن أفصّل لها القطعة الخضراء لتكون بوبا[45]، اقترحتُ عليها أيضًا أن أفصّل لها لباسًا تقليديًا وبلوزةً للعرس التقليديّ، كانت لدينا تشكيلة لتلقي نظرةً عليها، كما أخبرتها أنّنا نفصّل أغطيةَ رأسٍ تتناسب مع الألبسة، ولذا ليس عليها أن تذهب إلى أيّ مكان آخر لأجل ذلك، وكذلك تعلّمت إحدى الفتيات عمل المكياج، وبالتالي يمكنها فعل كلّ شيء تحتاجه في مكانٍ واحد.

قالت: "أخبرتني أوبياجيلي عن هذا المحلّ منذ مدّة، كان يجب أن آتي قبل الآن."

"لقد جئتِ الآن"، أجبتها وأنا آخذ مقاساتها، بدا لي أنّها في حاجةٍ إلى فقدان بعض الوزن، لكن سأجعل ملابسها تبدو جميلةً عليها.

"متى عرس ابنك؟" سألتها من باب فتح حديث معها، وكذلك لمعرفة كم من الوقت لديّ للمشروع.

"بعد ثلاثة أشهر، في عيد الميلاد المجيد."

(45) نوع من البلوزات أو القمصان الفضفاضة، وذات أكمام طويلة يرتديها الرجال والنساء في نيجيريا.

رائع، وقتٌ كافٍ لتجهيز الملابس.

قلتُ: "لا بدّ أنّك متحمّسة."

لا بدّ أنّها ولدت الصّبي في عمرٍ متأخّر، أو ربّما آخر أبنائها، قدّرت عمرها بحدود الخامسة والسّتين على الأقلّ، وكنت دائمًا أقدّر الأعمار تقديرًا صحيحًا.

"أنا متحمّسة جدًّا، إنّه ولدٌ صالح." قالت وأحسستُ بالصّدق في كلماتها، في الوقت المناسب، أعلم أنّي سأشعر بالفخر بأبنائي مثلها، حين كانت تهمّ بالمغادرة، سألتْ: "هل أنت من نوكينتو؟ هل تذهبين إليها بالعادة؟"

"ليس كثيرًا." أجبتها، بينما الجواب الحقيقي كان 'أبدًّا'، لم أعد إليها منذ أن تزوّجت إيفيتشي.

"لم أذهب إلى هناك منذ وقتٍ طويل." قلتُ لها، ثمّ تساءلتُ عن السبب الذي دفعني لأتطوّع وأخبرها بتلك المعلومة.

"أذهب عادة إلى أوكباتو، قرية زوجي."

هزّت رأسها، قالت: "نعم، كنتُ أعرف شخصًا من هناك منذ سنوات طويلة، لكنّك لن تعرفيه، فأنتِ شابّة"

ابتسمت، مَن تبلغ الخمسين تقريبًا لا يُقال لها شابّة.

خرجت معها وودّعتها حين قاد سائقها سيارة مرسيدس إس يو في، النوع الذي كنتُ أتمنّى أن أقوده ذات يوم.

سرعان ما حلّ المساء وعدتُ إلى البيت، كان يومًا رائعًا، التزمتُ بالمواعيد النّهائية، وأتتني زبونةٌ جديدةٌ واعدة، ما زال الجوّ معتدلًا. ركبتُ سيارتي.

قيادة السيارة هي إحدى متع حياتي.

حاول إيفيتشي تعليمي قيادة السّيارة بداية، بعد زواجنا بعامين، كنا نمزح بعدها قائلين إن علاقتنا كادت أن تنتهي بسبب محاولاته تلك، ظلّ

يقهقه حين يسمع هذه المزحة حتى بعد أن صارت قديمة ومملّة، لم أتعلّم القيادة إلّا قبل خمس سنوات.

كُنت امرأةً تبلغ الأربعين ونيّف من العمر تتعلّم بجانب شخصٍ يبلغ العشرين ونيّف ويعتقد أنّ الموت ليس سوى كلمة يراها المرءُ في القاموس. خُضت التّجربة، وصرت أحبّ القيادة كثيرًا، وتساءلت ما الذي أخّرني كلّ هذا الوقت.

شغّلت المذياع، كان الخبر عن تقديم تقرير للرئيس عن الهجوم الإرهابي على مبنى الأمم المتّحدة في أبوجا، ادّعت جماعة بوكو حرام مسؤوليتها عنه، قُتل زعيم مجموعة بوكو حرام هذه قبل عدّة سنوات.

تساءلت إلى أين يتّجه هذا العالم؟.

يبدو أنّ الحكومة لم يكن لديها أدنى فكرة عمّا عليها فعله، وبدلًا من ذلك، عقدت لقاءات بلدية لإقناع النيجيريين أنّ إلغاء دعم المحروقات - أي الدعم الذي أبقى أسعارها منخفضة لسنوات طويلة - فكرة عظيمة، خطر لي أنّهم لم يتوقّعوا منّا أن نأخذهم على محمل الجدّ، لم يكن أحد يثق أنّ الحكومة ستفعل شيئًا جديرًا بالاهتمام بخصوص الإيرادات، كانت مجرّد طريقة جديدة لنهب الأموال ووضعها في جيوب المسؤولين الحكوميين.

انتقلت إلى مشغل الأقراص المدمجة، وشغّلت أغنية للمغنية أونيكا (One Love).

غمرني شعورٌ عميقٌ بالرضا، الحياة صعبة، لكن إن جزّأتها، فستجد فيها أجزاء مُرضية، جالت عيناي في شارع داميجا المزدحم، وشاهدت ولدًا يرتدي بنطال جينز متهدّلًا، ومشيته مثل رقصةٍ من نوع ما، نسخة لشيءٍ رآه في أحد الفيديوهات الموسيقية، فكّرت إن كان قد أغضب والدته بمغادرته المنزل بتلك

الهيأة، ربّما كانت ممتنّةً أنّه على قيد الحياة فقط، ويفعل الحماقات التي يفعلها مَن هم في عمره.

تذكّرت إزينوا فجأة، كعادتي حين أشعر بالرّضا من الحياة، كأنّه يذكّرني أنّ الحياة لا تعطي المرء كلّ شيء، لا تستطيع الحصول على كلّ ما تتمنّاه، ليس في الوقت ذاته على أيّ حال، ستظلّ تلك الفجوة في داخلي إلى الأبد، تلك النّقرة البليدة للألم، ذكراه، واضحة وتبيض بالحياة في الأحلام، وضبابية في الصّحو.

كنت أعرف أنّ إزينوا مات، سمعتُ منذ سنواتٍ طويلة عن موت أمّ ناثان، ليس بعد هربي من إنوغو بكثير، كنتُ قد التقيت أمّ أودنكيما، صديقة أمّ نكيمديليم في السّوق الجديد، أخبرتني أنّ ابنتها قد تزوّجت وتعيش في إنوغو، وأنّها هنا لتعتني بابنتها وطفلها.

هل عادت أمّ ناثان مع ابني؟ سألتها.

كان الجواب لا.

أخبرتني أنّ بعض أهلها أعادوها من إنوغو ودفنوها، ولم يرَ أحدٌ أيّ طفل

بدا الأمر كما لو أنّه لم يعش أبدًا، كان ذلك مؤلمًا، لا أحد يتذكّر معي ابتسامته، طرائفه وغمّازاته، كنت أحمل في هاتفي مئات الصّور لأولادي ولإيفيتشي، ليس من عادتي أن أقضي وقتًا أحدّق بصوري، أو حتى صور أولادي، لكنّي أدفع أيّ شيء لأحصل على صورةٍ لإزينوا.

أغمضت عينَيّ للحظة، وهززت رأسي، لن أفكّر بإزينوا، وفي تلك اللحظة اصطدمت بمصدّ السيارة أمامي، كان اصطدامًا خفيفًا، ومع ذلك صرخت لا إراديًا "يا يسوع!"، نزل سائق السيّارة، تويوتا برادو زرقاء، بقميصه الأبيض، وبدا مثل المتوقع، مجرد سائق، سيتفحّص سيارته ولا يجد فيها أيّ انبعاجٍ ويستقلّها من جديد.

تجهّزت لتلقّي إيماءة وقحة، أو إشارة إصبع وقحة، حدث ذلك معي من قبل، قبل سنوات عندما تعلّمت قيادة السيارة، لقد جعلني النّظر إلى ذلك الصبي صاحب سروال الجينز المتهدّل تحت أردافه أبدو مبتدئة قيادة في ذلك المساء.

عندما استدار السائق ليعود ويركب سيّارته راضيًا من عدم وجود أيّ ضرر، نزل رجلٌ منها، افترضت أنّه مديره، من المقعد الخلفي للسيارة، كان قصير القامة، وممتلئ الجسم ويرتدي الزّي التقليدي الأبيض، بدت ساعته الذهبية كبيرة، وربما جعلت ذراعه تبدو أقصر ممّا كانت عليه حقيقية.

صُدمت من شعر رأسي حتى قدمَيّ ممّا رأيت، كان الرجل هو أورينا، أكثر سمنةً ممّا أتذكّره، لكن ما يزال قصيرًا، وربّما أقصر بسبب اللّحم الزائد، خدّاه مثنيان، وشعرهُ منحسر، ووجهه غاضب، لكنّه ما يزال أورينا.

نظر إلى وجهي كاملًا للحظة، توقّعت أن تصيبه ذات الصّدمة حيت يتعرّف عليّ ببطء لكنَّ وجهه ظلَّ متبلدًا، لم يحدث شيء مهمّ، مجرّد نظرة انزعاج من امرأةٍ لم تتمتّع بما يكفي من المنطق لتنظر أمامها، جالت عيناه بسخرية فوق سيارتي القديمة، ومن ثَمّ بعيدًا، كأنّه لم يعد لي قيمة.

انزلي وأخبريه من أنتِ، قال صوتٌ في رأسي، لكنّي بقيت في مقعدي، ويداي تتعرّقان على المقود، أنظرُ إلى الرجل وهو يمشي نحو سيارتي، ظلّت عيناي تلاحقانه وهو يقترب من نافذة سيارتي المفتوحة، هل أراد أن يعرف عن ابنه؟

ولكن كيف يعرف حتى أنّه كان صبيًا؟

بقيت متشبّثة بالمقود.

"مدام، عليك أن تنتبهي أكثر، أنتِ محظوظة جدًّا لأنّ السيارة لم تُخدش"، قال غاضبًا غضبًا غير معقول كونه كان اصطدامًا بسيطًا.

"أورينا"، خرجت من فمي.

عبس في وجهي، هل عرفني؟ بدا أنّه شكّ بي، ربّما عندما كنتُ فتاة، تساءلتُ كيف سيكون اللقاء معه من جديد، حدث ذلك منذ زمن بعيد، لكن حتى في تلك الفترة، لم أتوقّع لقاءً بظروفٍ مثل هذه.

"أنا نوابولو"، قلتُ له بنبرة ثقةٍ تغلّف صوتي، لم أعد فتاةً صغيرة، ولا خادمة، كنتُ امرأة، صاحبة عملٍ وأركب سيارة، ليست جديدة لكنّها تظلّ سيارة، في إنوغو.

رأيته ارتبك، وبدأ يتذكّر، وأخيرًا تذكّرني، لو توقّعتُ شيئًا، لكنتُ أصبتُ بخيبة أمل.

" أرى... كيف حالك؟" قال من دون ذلك الفضول الذي يجب أن يرافق السؤال.

"أنا بخير، وأنت؟"

"لم أعرف أنّك تعيشين هنا"، هل أراد أن يعرف، هل بحثَ عنّي طيلة السنوات الماضية؟

"أسكنُ في مكانٍ قريب، وأنت، هل تسكن هنا؟"

"لا"، قال، وبان نفورٌ على وجهه، ألم تعد إنوغو تناسبُ مستواه؟

"والداي ما زالا يعيشان هنا، في البيت القديم في ضاحية الاستقلال، أحضرُ لزيارتهما أحيانًا، أسكنُ في أبوجا."

شعرت بثرائه، ربّما كان سياسيًّا، لم أسأله على أيّ حال.

بدا مثل هذا الاهتمام غير ملائمٍ مع تصلّبه، متى سيتوقّف عن الرّسمية معي، ويسألني عن ابنه، ابننا؟ ماذا سأجيبه؟ سألني صوتٌ آخر.

أنّه سُرِق، مات، أو أسوأ من ذلك، أنّي لا أعرف؟ لم أكن متأكّدة، غير أنّي أردتهُ أن يسألني.

لكنه لم يسأل، وبدلًا من ذلك قال: "يجب أن أذهب الآن، تأخّرت عن أحد الاجتماعات، حظًّا طيّبًا".

وهكذا خرج من حياتي من جديد، هل كان فيها بالفعل، أم كنت فقط أمثّل دور إحدى شخصيات حكايات إيكينا؟ لم يرغب بمعرفة أيّ شيءٍ عنّي، وعن حياتي الآن، لم يطلب رقمي أو يعطيني رقمه.

أوقفتهم حركة المرور دقيقة أو اثنتين، لكنّهما انطلقا بعدها بسرعة.

حرّكت رأسي بلطفٍ في محاولةٍ لمعرفة اتّجاهي وأنا أقود ببطءٍ متّجهة إلى البيت.

لماذا لم يسأل عن الطفل؟ سألتُ نفسي، هل يعتقد أنّي أجهضت؟ هل مسحني من ذاكرته في غرفة جلوسهم، وهو ينظر إلى قدمي وإليه بالتّناوب، بينما كانت سيدتي وأمّه تسألان أسئلة اتّهامية، واكتفى هو بالقول بهدوء: "لا أعرف الخادمة حقيقة، "في الحقيقة، لا أتذكّر أنّي تحدّثت معها من قبل".

وأنا أتذكّر الطريقة التي حاول أن يجد فيها طرقًا ليُقحم كلمة 'الخادمة' في ردوده، دمعت عيناي.

تردّدتُ في الدخول ومواجهة زوجي ومناقشة ما حدث، أو ربّما ما لم يحدث - حسب نظرة المرء للأمر - لقد عشنا وأحببنا بعضنا مدّةً طويلةً وسيدركُ على الفور أنّي مضطربة، سيلاحظُ ذلك على وجهي، لذا عندما وصلت شارع بيتنا، قدت السيارة بعد شجرة المانجو التي بدأت تغطّي الأسلاك، ورفض مالك البيت قطعها، مررتُ ببيتنا والبيت الذي بعده وعليه الإشارة "احذر من المذكورين في المادّة [46]419، هذا البيت ليس للبيع"، كلّها بحروفٍ كبيرة، كما لو أنّنا لا نستطيع القراءة أو الامتثال للكلمات.

(46) مادّة في القانون النيجيري تتعلّق بجرائم الاحتيال وعقوباته.

ماذا لو سأل ماذا حلّ بالطفل؟ ماذا كنت سأجيب؟ مات؟ ضاع؟ إنّه فوق الثلاثين وما زال ضائعًا؟ كان إيفيتشي مقتنعًا أنّ إزينوا مات، ربّما بسبب الحصبة أو الملاريا، مات أولاد كثر في تلك الأيام حسب قوله، إلى درجة جعلت عام 1977 مثل العام 1877، لكن ماذا لو أنّه لم يمت؟ سأسأل، ماذا لو كان يعيش في مكان ما؟ ماذا لو أعطته أمّ ناثان لأحدهم؟ من هو؟ سيسأل، أحيانًا يبدو ذلك قاسيًا، كنت أعرف ماذا يفعل، فزوجي يحاول أن يجعلني أنا ابنة الخمسين عامًا أتقبّل الحقيقة، وأنّ الحكايات تبقى حكايات.

البارحة فقط، اشتريتُ جريدةً في طريقي إلى المحلّ، منشور في الصفحة الثانية صورٌ من مصنعٍ لحصاد الأطفال، في الصورة مراهقات ذوات بطونٍ منتفخة أمامهنّ كأنّهنّ أكلن كثيرًا، بعضهنّ يحمل أطفالًا، كان الأطفال يلعبون على الأرض غافلين عن وجود المصوّر أو الهرج والمرج، ضاق صدري، لقد بيع بعض الأولاد من قبل، قرأت عن ذلك، هل يمكن أن يكون ذلك قد حدث مع إزينوا؟ سألتُ زوجي، قال إيفيتشي لا؛ فمصانع حصاد الأطفال ظاهرة جديدة، على الأرجح مات إزينوا قبل أمّ ناثان.

حتى الدليل الضّعيف كان يؤيد رأيه، لكن أحيانًا، أفكّر وحدي ماذا لو كان إزينوا حيًّا إلى الآن؟ ماذا لو كان حيًّا في مكانٍ ما؟ كيف صار الآن؟ سيكون في عمر الثالثة والثلاثين، هل يشبهني، طويلٌ، أدكن، وسيم، أم مثل أورينا، ليس طويلًا جدًّا، وحنطيّ البشرة؟ هل درس في المدرسة؟ هل يعاني في مكانٍ ما، طعامه قليل؟ هل تزوّج؟ أم على وشك الزواج، مثل ابن تلك المرأة التي جاءتني اليوم؟ ربما لديه طفل، تخيّلت أنّي جدّة ولا أعرفُ عن ذلك.

زادت الآلام وصار الجرح أعمق، وعرفت أنّي سأرى كابوسًا في تلك الليلة، الكابوس ذاته الذي أراه لسنوات، يأتي ويذهب، لكنّه دومًا نفسه؛ أمّ

ناثان تهرب بإزينوا، في بدايته أشعر أنّي أستطيع اللّحاق بها، ثم يصعب الأمر؛ قدماي تركضان، لكن من دون تقدّم، وهي تبتعد أكثر فأكثر، ثمّ يختفي رأسها، وأسمع إزينوا يصرخ، غالبًا ما كان إيفيتشي يوقظني عند تلك اللحظة، إنّك تصرخين، يقول، يمسك بي ويمسح دموعي، لم يعد يقول كلمات التشجيع التي كان يقولها في السنوات الأولى، كانت ذراعاه حولي، وحنانه الصامت يريحانني أكثر بكثير.

أمسكت مقود السيارة بقوّة، لن أنسى، وعدتُ نفسي كما فعلت مرّاتٍ كثيرة، حتى لو محا الرجل الذي أنجبه الأوقات التي أحضرت طفلي إلى هذا العالم، كان الألم ثمنًا زهيدًا للذكرى. تنهّدت تنهيدة عميقة، ارتفع صدري مع حزام الأمان، رفعت صوت مشغّل الأقراص المضغوطة، في محاولة لإغراق حزني، ارتعشت، هكذا هي الحياة، وإنّي أتعامل معها منذ فترة، والغريب أنّي ما زلت أسمح لها أن تكون أستاذتي.

عرفتُ ما عليّ فعله، سأذهب وأرى تشيدينما، أعزّ صديقاتي ستعرف ما تقول لي الآن، وبينما كنت أقود نحو أواني، حيث تعيش، جلت في مخيلتي في أحداث اليوم؛ الملابس التي سُلّمت لأصحابها، الزبونة الجديدة التي تستعد لحضور عرس ابنها، حادث سيارتي، وأورينا، اعترفتُ أنّ حدسي عمل اليوم، مَن كان يعتقد أنّي سأرى أورينا من جديد؟ ومع ذلك، لم يسأل عن ابنه.

الفصل السابع عشر
جولي

مكتبة
t.me/soramnqraa

"قالت إنّها من نوكينتا."

تحركتُ وجلستُ في كرسي هزّاز كنت قد اشتريته منذ سنوات طويلة خلال رحلة إلى إنكلترا، في تلك الأيّام، كان زوجي يضايقني كما يفعل الأشخاص أحيانًا بعد سنين طويلة من العيش معًا، ويقول إنّه متفاجئ أنّ الكرسي ما زال يحتمل وزني الثقيل، في تلك الأيّام، كانت مثل هذه الكلمات تجرحني بالفعل، أمّا اليوم فلا.

كان وزني الكبير ندبةً قديمة، جزءًا مألوفًا وباليًا من الحياة، أعرف أنّ فيديوهات التّمارين مضيعة للمال، وأنّ تمارين البطن مضيعة للوقت الثمين، وأنّي سأظلّ سمينة حتى أرقد في قبري، حتى ذلك الحين، كان ذلك الكرسي من الأشياء الجيدة في الحياة بالنسبة لي ولركبتَيّ اللّتين تؤلماني.

"نوكينتا؟" سألت أعزّ صديقاتي، ولا يبدو في صوتها أيّ فضول.

كنت مستعدّة، منذ نصف ساعة، لكن أوبياجيلي منعتنا من المغادرة - كما في كلّ مرّة - لم تكن واثقة من أنّ العقد الذي لبسته يناسب البلوزة الذهبية التي ترتديها، كانت الألوان متقاربة، لكن ليس بما يكفي لتجعلها تبدو جميلة مع بعضها، كنّا مجرّد ضيوف، لكن الطريقة التي تتصرّف بها، تجعلك تظنّ أنّ هذا العرس في كنيسة (All Saints) عرسُ ابنها، ظلّت تنتف حواجبها، وتحدّق بمرآة الحائط في حمام بيتي.

كان على الشيخوخة أن تدخل قاموس أوبياجيلي بلطف، أخبرتني أنّها

تريد أن تظلّ جميلة حتى يأخذ الربّ أمانته، وتعمل جاهدة على ذلك، بعد السبعين بقليل، مع أنّ أوبياجيلي تفضّل الموت على التصريح بعمرها. أراها كبيرة، ولم يعد ذلك العبث يناسبها، لكن حين أنظر إلى الطيّات في رقبتي وفكّي المترهّل، أرى أنّ فكرتها ربما تكون صحيحة - للأسف - فجيناتها جيدة، عكس جيناتي، ولم تظهر بشرتها التجاعيد الكثيرة التي فشلت الكريمات الغالية ومساحيق التجميل في إخفائها عندي، والأهم - كما كنت أقول لها - أنها تستطيع أن تقهقه على نكتةٍ مضحكة، دماغها ما زال يعمل، ومع ذلك، فقد أخبرتني الأسبوع الماضي عندما كان عليها الذهاب إلى الولايات المتّحدة لمساعدة ابنتها إفيوما في ولادتها. إنّها تفكّر في إمكانية إجراء عملية شدّ للوجه، قد يقتلها زوجها بسبب التكلفة، لكن إن نجحت في إقناع إفيوما في إبقاء الأمر سرًّا - وهذا صعب - إذ إنّ إفيوما مقرّبة من أبيها قربًا عجيبًا، يمكنها فعل ذلك، لمعت عيناها من إمكانية ذلك.

كنت أعتقد أنّه على أوبياجيلي أن تترك إيما منذ زمن بعيد، لم يتخلّص من بؤسه، بل صار أسوأ مع التّقدم بالعمر. حين كان الأولاد ما يزالون في البيت، كان يختلق المشاكل معها عمدًا، وينتهي به الأمر لأنَّ يشعر بالإهانة، ويرفض تناول الطعام المطبوخ في البيت، يظلّ كذلك شهرًا واثنين وثلاثة في المرّة الواحدة. أثناء ذلك الوقت، لا يجلب إلى المنزل أيّ مال للاعتناء بشؤونه وإطعام الأولاد. عندما غدت الكهرباء النّظامية رفاهية مخصّصة للناس الذين يعيشون في بلدانٍ أخرى غير بلدنا، حتى في غانا، اشترى الجميع هنا مولّدات كهربائية. كان صوتها يصدر من كلّ منزل ومتجر، صغيرًا كان أم كبيرًا، حتى صالون الحلاقة، والمكان الذي نشتري منه السّمك في السوق، والرجل الذي يعيش مع عائلته المكوّنة من سبعة أفراد في غرفة واحدة، كلّهم لديهم مولدات كهرباء من نوع (I-Pass-

(My-Neighbour) التي لم تكن تشغّل الكثير من الأجهزة. ومع ذلك، ظلّ إيما مصرًّا على أن يشغّل في منزله مصابيح الكيروسين، تخلّت أوبياجيلي عن موقفها أخيرًا بعد أن كانت تعتبر أنّ من مسؤوليات الرجل ضمان عدم بقاء بيته غارقًا في الظلام، واشترت مولّدة كهرباء، فصرّح إيما على الفور أنّه لا يستطيع شراء الوقود للمولدة لأنه لم يختر اقتناء جهازٍ غير ضروريّ وغالي الثّمن. علاوة على ذلك، كان يحب كلمة "منع" ويستغلّ كلّ مناسبة تحت السماء لاستخدامها، زعم أنّه منعها من ارتداء ملابس جميلة، ومن رؤيتي، إذ إنّي زوجة رجلٍ محتالٍ ثريٍّ فاسد، ومن عمل الحساء الشهي كثير اللحم والسمك، ومن استعمال غرفة الجلوس، الغرفة الوحيدة المكيّفة في منزلهم، لم تُلق له بالًا وعاشت حياتها قدر استطاعتها في تلك الظروف.

نتيجة ذلك تعلّمت أوبياجيلي الاعتماد على نفسها فقط دون الحاجة إلى أيّ شخصٍ عداي في بعض الأحيان. في هذه الأيام، أخبرتني أوبياجيلي أن إيما يخزّن الطّعام في غرفته، وأنّ عادته هذه بدأت بعد تقاعده، خطر لي أنّه مصاب بمرضٍ عقلي، وأخبرتها بذلك، قالت إنّه لا يقبل رؤية طبيب نفسي، ومع ذلك ظلّت معه لأكثر من أربعين عامًا، تحمل بفخر اسم السيدة إيمانويل نواجيه، وتتحدّث عنه بالخير في القرية، وفي الكنيسة وفي اجتماعات الحيّ، تشرح لماذا لم يستطيعوا دفع هذه النّفقات أو تلك، ومن ثَمَّ تسدّدها دون علمه، حتى هذا اليوم، ما زالا يتشاجران على مصروف البيت، كم دفعت أوبياجيلي على ملابسها - وعليّ الاعتراف أنَّ هذه النفقات بالذات كانت تخرج عن السّيطرة - إلّا أنَّ أوبياجيلي كانت تضحك وتصرّ على أنّ إسرافها على الملابس هو أمرٌ لأجلهما كليهما، وأنّها تفعل ذلك كيلا يعتقد الناس أنّ مجنونين تزوّجا بعضهما، طالما أنّ زوجها لم يصل بعد لمرحلة إدراك قيمة تغيير قمصانه التي اشتراها في السّبعينيّات.

"نعم. قالت إنّها من نوكينتا"، كرّرتُ للتأكيد، محاولة جذب انتباهها للمسألة الواقعية التي أفكّر بها منذ ثلاثة أيّام.

"لم أعرف ذلك، لم تقل أبدًا."

"بالطّبع لم تقل، كيف ستخبرك إن لم تثيرا الموضوع في النقاش؟"

التفتت أوبياجيلي نحوي ونظرت إليّ، أوحت ملامحها أنّها لا تعرف بِمَ أفكر.

"حسنًا، لم يأتِ ذِكر الموضوع، أنا متأكّدة أنّك تجدين في كلّ جزء من هذه المدينة أناسًا من نوكينتا، مثلما تجدين أناسًا من نيوي، أونيتشا، آوكا، نانكا، أودي، وغيرها."

"قالت إنّ زوجها من أوكباتو، كما قالت إنّها لم تذهب إلى هنّاك منذ سنوات".

"لا شيء جديد في ذلك."

"هممم." ساد صمتٌ وأنا أفكّر في ذلك، وعيناي على طلاء أظفار أصابع قدمَيّ الأحمر، هل ثمّة شيءٌ غريبٌ في امرئ لا يزور أخاه؟ ومع ذلك، ومع إحساسي الرّاسخ بالواجب، لقد ذهبت إلى قرية أمّي بضع مرّات منذ أن ماتت، لذا ربّما كانت أوبياجيلي على حقّ.

رفعتُ رأسي، انتهت صديقتي من نتف حواجبها، وبدأت تضعُ أحمر الشفاه، كانت تنتظرني لأقول شيئًا.

"نوانيم نواني، هنالك شيءٌ في تلك المرأة ذكّرني بأفام." قلتُ، وصلت أخيرًا إلى صلب الموضوع.

لم أستطع تحديد وجه الشّبه تمامًا، ربما التّعبير الذي يحمله وجهها، أو الطريقة التي حدّقت بها عينا الخياطة إليّ مطوّلاً كأنّها تحاول قراءة أفكاري،

ومعرفة ما لم أقله، كانت جميلة، مثلما كان ابني جميلًا، ربّما كانت لون جلديهما ذاته، الأبنوس الأسود الذي لطالما أثنى عليه يوجين، قال إنّ رجال عائلتهم من ذوي البشرة الدكناء، غير أنّ هذا - ويشير إلى أفام بفخر - جاء بأغمق لون، يكاد يشبه بلونه السّودانيّين.

"هممم." قالت أوبياجيلي وهي تشيح بنظرها عنّي وتنشغل بوضع بعض ظلال العين، كأنّها تحاول حرف قوّة كلماتي.

ربما التشابه الوحيد بين ابني وتلك الخياطة كان ببساطة أنَّ الاثنين من نوكينتا، بالتأكيد غرس ذلك أفكارًا غريبةً في رأسي. عندما قالت المرأة إنّها من نوكينتا، كدت أسقط على الأرض من الصدمة، هل لاحظت؟ لا، لا أعتقد ذلك، لأنّها واصلت النقاش وشرعت في أخذ القماش والمقاسات، في حين كان كلّ ما أردته حينها أن أخرج من المحلّ وألّا أعود إليه مرّة ثانية.

كنتُ أتصرّف بسخف، أعرف ذلك، لكنّي أردت أن أسمع أوبياجيلي تقول ذلك بصوتٍ عالٍ للتأكّد.

نظرت أوبياجيلي إليّ من المرآة، ثم استدارت لتنظر في وجهي، كأنّ المرآة لم تُظهر انعكاسي الحقيقي.

"ماذا تقولين؟ أصبح كل من هم من نوكينتا فجأة يشبهون أفام؟"

بقيت صامتة، لم أشأ أن أبدو سخيفةً أكثر مما أبديته حتى الآن، ثلاثة وثلاثون سنة مدّة طويلة لإخفاء سرّ، وهنا أتصرّف مثل المبتدئة.

"لقد رأيت المرأة، إنّها طويلة، دكناء، لكن إن كان ذلك فقط ما يجعل قلبك يخفق، فإنّك تصفين نصف النساء في إنوغو، علاوة على ذلك، كيف تظنّين أنّ امرأة ترعرعت هنا في إنوغو على الأرجح، قد يكون لها أيّ علاقة مع أمّ ناثان؟

اختفى مزاج أوبياجيلي المرح الذي كانت تبديه قبل خمس دقائق.

نظرنا إلى بعضنا بعضًا، امرأتان تجاوزتا السّبعين من العمر، ويداهما ووجهاهما تكسوهما التجاعيد، لكنْ بالفكر صبيّتان مثلما كنّا في عمر السادسة عشر في ثانوية أبا للبنات، مَن ظلّتا تريان بعضهما عبر السنين، وغطّتا أسس حياة المرأة في إفريقية القرن العشرين، قاومتا خيبات الأمل، أدارتا حيوات أولاد أقوياء وضعفاء في الوقت ذاته، نجتا من خيانات زوجيهما وغرابتهما، وإساءات الحياة، والأخطاء والفشل بأشكال مختلفة. كنّا نعرف بعضنا حق المعرفة، أفضل ممّا كان زوجانا يعرفان عنّا أو يهمّهما أن يعرفا.

زمّت شفتيها للخارج، فهمت ذلك التعبير؛ حان وقت كلام الحقيقة.

"جولي." قالت ثمّ توقّفت تستجمع قواها: "إن سألتني." تابعت كأنّها ستنتظر ليسألها أحد: "إنّك لست أنت منذ موت يوجين، فقد أصبتِ بذلك المرض." كانت معركتي مع الاكتئاب معركةً مع الموت أكثر منها مع المرض. "وإن سألتني، فإنّك في طور التعافي حتى الآن، وأنا ما زلتُ غير سعيدة بشأن ذاك النبي أو الرّائي الذي قلتِ إنّه جاء إلى الكنيسة المرّة الماضية. هنالك كلّ أصناف الناس ممّن يبحثون عن آخرين للابتزاز. كانت تقصد رجلًا جاء إلى كنيستنا الشّهر الذي سبق، قال إنّ الأسرار المحفوظة منذ وقت طويلٍ ستُكشفُ قريبًا، ذكرتُ ذلك لأوبياجيلي وسخرت منّي.

عدتُ إلى البيت مطمئنة، ولم أعد أفكّر بالأمر، لكنّها بكلامها أثارت الموضوع من جديد.

"نوانيم نواني، دعي تمزيق الجسد والروح للشّباب". تابعت الآن، "إنهم يحدّقون تحت كلّ حجر بأشياء لا وجود لها، نعلم، أنا وأنت، أنّ للحياة تقلباتها، لكن ماذا بوسعك أن تفعلي؟ عليك أن تسايريها، تراقبي مسارها، تفهميها، لا

أحبّ تخيّل أشياء ليست كذلك"، توقّفت.

"هذه المرأة، نوابولو، الخياطة، أعرفها وأتعامل معها منذ أكثر من ستّ سنوات، إنّها مجدّة في عملها، وكتومة أيضًا، ولهذا استمرّت علاقتنا، ليس لديّ أدنى فكرة كيف تربطينها بأفام، الولد ابنك، وهو كذلك منذ ثلاثة وثلاثين عامًا، ثلاثة وثلاثين"، كرّرت.

كما لو أنّي كنت مجنونة إن فكّرت أنّه ابن أيّ أحدٍ عداي.

"لا تظني أنَّ القرد الصغير سينزلق ويسقط من الشجرة، همم، لأنّه في نهاية المطاف، ولدته أمّه فوق شجرة".

كانت نظرتها حادّةً وصارمة، وبدا واضحًا لها أنّي أفقد عقلي.

"همم، كلامك رائع يا ابنة أمّي، عقلاني، ماذا بوسع المرء أن يفعل سوى أن يحاول أن يفهم الحياة وهو يمضي في رحلتها؟" سألتُ بأسلوبٍ بلاغيّ، مستعيرة استعارتها البلاغية.

"دعينا نغادر الآن." قالت أوبياجيلي، وقد أصبحت جاهزة أخيرًا.

"سنتأخّر، وتعرفين أن نيكا لا تحبّ ذلك، إنّه عرس ابنتها الأولى".

صديقتنا نيكا - إن استخدمنا مصطلح الصّداقة بشكل فضفاض - لديها خمس بنات، كلّهن غير متزوّجات، نجحت ابنتها الثالثة أخيرًا في العثور على رجل، شققنا طريقنا لحضور عرس الفتاة المحظوظة التي لا شكّ أنّ أمّها أسعد امرأةٍ على الأرض اليوم.

وحيدة في تلك الليلة، بدأت أفكّر بالزوايا المظلمة، الأماكن التي لم يسبق أن ذهبت إليها أو فكّرت فيها لسنوات، تقلّبت على السرير ذي الأعمدة الأربعة الذي اشتراه يوجين منذ زمنٍ بعيد، أجترّ الأفكار التي من الأفضل أن تظلّ سرًّا.

أزعجني خبرٌ سمعته ذلك المساء بعد عودتي من عرس ابنة نيكا، وُجِد طفلٌ في مكبّ القمامة الذي بنته الحكومة في أوجوي، صوّرتِ الكاميرا رجالًا ونساءً يذمّون المرأة عديمة الأخلاق التي فعلت ذلك الفِعل الشنيع، قال المذيع إنّ الطفل يتعافى في المشفى، تساءلتُ ماذا سيحلّ بذلك الطفل.

في اليوم السابق، كنت قد شاهدت فيلمًا عن مارغريت تاتشر تتحدّث مع زوجها الذي توفّي منذ زمن طويل، لو ناقشت الأمر مع يوجين، أعلم أنّه سيقول إنّ المرأة الحديديّة لا بدّ أنّها قد فقدت عقلها، أما أنا فسأقول إنّ حبهما كان قويًا ولا يموت، وسيقول إنّ تلك هي مشكلة النساء، ببساطة، أضعف من أن يستطعن مناقشة أمور الحياة الحقيقيّة.

برغم كلّ شيء، عادت صداقتنا أخيرًا، عندما سئم يوجين من المال والنساء، لكن، ألم تكن الحياة سوى وسيلة للتأكّد من أنّ الرّوح لم ترتح كثيرًا؟ حالما رأت أنّنا صرنا الزّوجين المسنَّين اللذين يُضرب بهما المثل، اللذين يعرفان بعضهما جيّدًا، وكلّ واحدٍ يسمح للآخر أن يكمل كلامه، وصارا يحبّان بعضهما بعد حقبة الأنانية الصبيانيّة، وارتفاع وانخفاض التغيرات الهرمونيّة، والحماس والاضطراب من تربية الأولاد، طرق الموت باب بيتنا، عندما انضممنا إلى فئة الناس الذين كنّا نحبّ، هو وأنا، أن نسمّيهم "نادي اللا إجازة، اللا نقل"، الرجال والنساء الذين اتّفقوا أنّهم مع بعضهم بعضًا، وأنّ هذه ليست نهاية العالم، وأنّهم متّحدون، وليسوا متخاصمين على عيوبٍ لن تنتهي، وصرنا نحقّق الاستفادة القصوى من الحياة، خطفَ الموت يوجين.

مات فجأة، كنتُ في الطابق السّفلي أشرف على الطّبخ، لا أحد يطبخ حساء أوغبو كما أطبخه - برأي يوجين - إذن كنت في المطبخ حين كان بالإمكان أن أكون معه وأراه على وشك السقوط، حين أرسلت مساعدتي أوشي إلى الأعلى

لتقول له أن يحضر لتناول الغداء، كان قد مات، بعد عامين تقريبًا، ما زلت أشعر بالصّدمة والطرق الذي شعرته في صدري حين رأيته ممدّدًا على الأرض في غرفة النوم، ما زلت أتذكّر مفاجأتي من الحال الذي رأيته عليه، كان مثل بيت خاوٍ مهجور، القوّة، والروح، والجاذبية التي منحتها الحياة لجسده، قد ولّت وتركت هيكله الكبير كومة مشوّهة، تركني أعود إلى العزوبية، الحالة التي سبق أن بذلت قصارى جهدي لأهرب منها.

استجمعت قواي، وتجهّزت لدفنه في جنازةٍ تليق به، أوميريلي أتاتا، البحر الذي لم يجفّ من قبل، إنّه يستحق الأفضل، وأنا أجهّز للجنازة، كانت العقبة الوحيدة هي أونيمايشي، زوجته الأولى، التي ما تزال زوجة زوجي، لم يذكر أحدٌ الطلاق أبدًا، مع أنّ الفكرة كانت قد راودتني مرّاتٍ عديدة، بقيتْ في الخلف، لم يعرفها سوى عدد قليلٍ من الناس في إنوغو، كونها تركتنا منذ سنواتٍ طويلة، عادت الآن لتطالب بحقّها "القانوني".

"أنا الزوجة الأولى، لقد تزوّجكِ، لا خلاف في ذلك، لكنّني الزوجة الأولى، وجثّته وكلّ ما يملك يجب أن يكون لي أولًا، ولأولاده، مفهوم؟"

كانت مثيرةً للشّفقة؛ عجوز ذات شعرٍ خفيفٍ مفرود التجاعيد، متقصّفٍ على الأرجح لطول استعمال المستحضرات الرخيصة، تقف أمامي بعد أكثر من ثلاثين عامًا تطالب برجلٍ هجرها منذ سنواتٍ طويلة، لا بدّ أن ابنتيها قد دفعتاها إلى المطالبة بإرثهما، بدا أمرها مضحكًا، مضحكًا أكثر ممّا لو كانت أتت قبل كلّ تلك السنوات لتصبّ عليّ الماء الساخن في مدرستي، كانت ابنتاها تحومان حولها، خائفتين جدًّا، ولا تجرؤان على تقديم الدّعم الذي احتاجته أمّهما، هل كانتا حقًّا ابنتا يوجين؟ هاتان المرأتان الخائفتان اللتان تقفان بجانب أمّهما شديدة النحول.

لقد جاءت بعد فوات الأوان، كنت مستعدّة لإعطائها مكانًا صغيرًا في الفناء الخلفي للمنزل في القرية لاستقبال القلّة الذين يتمنّون الخير لها، فرصة لترمي بعض التراب في القبر قبل غلقه، لا أكثر من ذلك، لحسن الحظّ أن يوجين في سنواته الأخيرة نقل معظم أملاكه لي ولأفام، كان يقول: "الموتُ يحبُّ أن يختار توقيته"، كم كان ذا بصيرة!

ومع ذلك، ما الذي قدّمته له أونيمايشي سوى أنّها فشلت في إنجاب ولدٍ له، تساءلت وأنا أوقّع على أوراقٍ وضعها أمامي محاموه.

هي وابنتاها في المحكمة الآن يطعنَّ في الوصيّة التي تخصّ جزءًا يسيرًا فقط من ثروة يوجين الكبيرة، أمّا البقية فقد نقلت في حياته إلى شركةٍ مديراها أنا وأفام، لكنّه لم يستبعد أونيمايشي وابنتيها كلّيا، إذ ضمن أن تعيش البنتان وأولادهما - أي أحفاده - حياةً مريحةً من عائد إيجار منازل في لاغوس وإينوجو وأونيتشا، ومع ذلك، ظلّت أونيمايشي تقول لكلّ من تلتقيه أنّي قاطعة طريق.

من المعروف أنّ مَن لا يستطيع الحصول على شيءٍ ينتقده.

لذا عندما مات يوجين، ومع كلّ الموارد التي كانت تحت تصرّفي، كان إخراج أونيمايشي من التّرتيبات سهلًا، تجاهلت تصرّفاتها الغريبة، وحين عرف الناس من أين تأتي الأموال، تجاهلوها أيضًا، أخبرتُ أقاربه أنّ الكبير يوجين أوبيتشينا، أورميلي أتاتا الأوّل صار جثّة كبيرة، كان قد بنى وحده دار البلديّة، دخل كثيرون المدرسة بفضل منح أوبيتشينا، نال كلّ الألقاب، حجّ إلى القدس، كان فارس الكنيسة، استحقّ مراسم دفنٍ تليق به، تعجّب كلّ الحاضرين، اتّفقوا معي، وأخبروا أونيمايشي أن تصمت وتقبل بدورٍ أصغر. لم يطردها أحد، إذ إنّها زوجة أخيهم في النهاية، لكن يجب أن يُدفَن يوجين على النّحو الملائم، ومَن يدفنه ابنه الوحيد أفام، ابتسمتُ زهوًا، وشرعت في التحضير لأكبر حدثٍ

تشهده القرية في تاريخها.

عاد أفام من لاغوس التي انتقل إليها قبل عامين، أمطرتُه بالتّعليمات بخصوص ترتيب الخيام، والرّايات وكتيّبات البرنامج، والتحدّث إلى الكهنة في إنوغو وفي القرية، والتأكّد من أنّ القائمين على المشرحة حافظوا على الجثّة نظيفة وفي حالةٍ جيّدة، اشترينا ماعزًا وأرسلناها إلى أهل أمّ يوجين لإعلامهم على النحو المناسب أنّ ابن ابنهم قد مات، مع أنّنا تحدّثنا مع كلّ من ينبغي أن يعرف على الهاتف أو شخصيًا، كما اشترينا قماش أنقرة، وفصّلنا الزّي الرسمي للعائلة ولنصف سكّان القرية تقريبًا.

ساعدتني أوبياجيلي في أمر الطعام، ذُبحت ثلاث بقرات وعشرٌ من الماعز لإطعام الضّيوف الذين جاؤوا من كلّ أرجاء البلاد، تولّى أفام أمر المشروبات: الشامبانيا، والنبيذ، والجعة، والمشروبات الغازية، والعصائر. أرسلته في مهمّات إلى النقّاشين المفضّلين لديّ، وبائعي الهدايا التذكارية، والجزّارين والمذيعين في الإذاعة والتلفزيون، طلبتُ بلا خجلٍ كلمات التّأبين التي ملأت كتيّب برنامج الجنازة، أرسلتُ أفام إلى دار الحكومة من أجل تصريحٍ من الحاكم ورئيس البرلمان، كانت سخافة؛ أناس بالكاد عرفوا زوجي يقولون عن موته "خسارة هائلة لعائلة أوبيتشينا والعالم أجمع"، ويصفونه بأنّه "أيقونة" و"أسطورة".

كانت الجنازة فخمة، والطعام والشراب كثيرين، وحضرها أناس مهمّون بملابس باهظة الثمن، فرقة إنجيل، جوقتان كبيرتان، فرقة إنشاد، وقُدّمت فيها هدايا تذكارية للضيوف تتألف من مظلّات، ودفاتر ملاحظات، وصواني، ومناديل، ومناشف للوجه عليها صورته، وكان كلّ ذلك إسرافًا لا يتلائم مع ألم الحادثة، لكنّ الأمور سارت تمامًا كما كان يوجين سيرغب لها أن تسير، هذا ردّ جميل يليق به، أفضل ما استطعت فعله، قال أفام إنّ أكثر ما فعلناه هو للمظاهر،

وكنتُ أتّفق مع ابننا، لكن لا يهمّ، فيوجين كان ليحبّ كلّ ما فعلناه.

كان يوجين وأفام مختلفين، لم يكن يوجين مرتاحًا للاختلاف، أراد استنساخًا لنفسه، حتى عندما كان طفلًا، لم يكن لدى أفام هالة الرّجولة والثّقة بالنفس التي كانت لدى يوجين، كأنّها تشعّ منه، عانى أفام من مخاوف كثيرة واضطرابات، مثل الحفلات التنكّرية، والضّحك الصاخب من رفاق يوجين في الشرب، وحتى الأولاد الآخرين أحيانًا. جذب يوجين الناس إليه، وكان أصدقاؤه يسبحون حوله كأنّه ملك البحر، يقدّمون الطّاعة، ويوافقون على كلّ كلمة تسقط من فمه، أمّا أفام فخجول، شابٌّ خجولٌ وطويل، أو بالأحرى في طريقه لأن يكون طويلًا مثل أبيه، لكن يبدو أنّه كان غائبًا في اليوم الذي وزّع فيه الرّبُّ الجرأة.

ماذا كان سيحدثُ لأفام لو لم آخذه وأربّيه على أنّه ابني، ابن يوجين؟ لم أرد أن أفكّر بذلك.

"لا بدّ أن خجله يأتي منك." كان يوجين يقول، برغم أنّه لا يذكر أيّ موقفٍ أظهرتُ فيه هذا الضّعف.

"بالتأكيد ليس منّي، ولا من أهلي."

"سيكون مملًّا لو أنّ الجميع متشابهون." كنت أقول له، "كما أنه ولدٌ وحيد، سيتغلّبُ على خجله".

"لم أكن خجولًا ولا مرّة"، قال والكِبَر في كلّ كلمة.

"ما فائدة الخجل في عالمٍ تعطيك فيه الشّجاعة كلّ شيء؟"

كان يستدير إلى أفام ويزأر: "قِف مستعدًّا، امشِ واثقًا، أبوكَ رجلٌ غنيّ، هل تفهمني؟ أبوك رجلٌ نافع".

ومع ذلك، أبلى أفام بلاء حسنًا، مع اقترابه من سنّ البلوغ، بدأ الخجل

يختفي، ارتسمت على وجهي ابتسامة عفوية حين تذكّرت المرّة التي احتضنت فيها أفام، بعمر الرابعة أو الخامسة، في السيارة على طرف طريق إنوغو، نزل مطرٌ غزيرٌ قوي، وصار يرشق سيارتنا، وصارت السماء مدلهمّة في منتصف النهار، ركنت السيارة على جانب الطريق حيث لا يوجد إلّا أعشاب الثيّوم والأشجار العالية غير المثمرة بانتظار انجلاء المطر، خاف أفام وتشبّث بيديّ، ستطلع الشمس، طمأنته، صرتُ أحكي له قصّة أوسا وأمّه، ومكرهما في المجاعة التي حلّت بأرض الحيوانات، قصّة كانت تحكيها لنا أمّنا، أنا وأخي أفام.

في السنة الماضية فقط، كتب ابني أفام وأنتج أغنيةً لتوأمٍ موسيقيٍّ نيجيريٍّ شهير، أساسها تلك القصّة، لم تكن المفضّلة لدَيّ، لكن لها معجبون كثر وهو ما افتخرتُ به.

في السنوات الأخيرة، كان أفام ويوجين يتشاجران على كلّ شيء؛ ماذا يدرس أفام، أراد يوجين إدارة الأعمال، أو القانون، أمّا أفام ففكّر بالموسيقا، لكنّه رضي بدراسة الهندسة، كانت فكرة يوجين أنّه يجب أن يذهب إلى أمريكا، إلى جامعة هارفارد أو معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، عندما حاز على درجته الأولى، رفض أفام ذلك وتوجّه إلى كندا، بلد لم يسمع أحدٌ به، كان أبوه يشتكي لي، عندما أنهى دراسته وصار جاهزًا للعودة إلى الوطن، أراد منه يوجين أن يدير الشركات، أخبره أفام أنّه يريد دخول عالم الموسيقا وإدارة شركة إنتاج خاصّة به، لم يفقد حبّه للموسيقا، وكان يتخيّل المال يخرج مع كلّ نغمة من أفواه الموسيقيين الجدد، مع كلّ إيقاعٍ سريعٍ شقّ طريقه في هذا العالم.

دائمًا يقول لي إنّ العولمة والإنترنت، ستجعل الموسيقا النيجيريّة أهمّ شيءٍ منذ اختراع الحاسب الشخصي. نشبت خلافاتٌ كثيرة بشأن ذلك، توقّف يوجين عن الحديث معه مدّة، وصار يعطيني رسائل كي أوصلها إلى أفام، ظلّ أفام

مصرًّا على رأيه، ذاب الجليد بينهما مع الوقت، وصارا يتحدّثان مع بعضهما من جديد.

قبل وفاة يوجين، نشب خلافٌ كبيرٌ بشأن متى ومَن سيتزوج أفام، "ابنٌ وحيد، ابن بيت أوبيتشينا"، كان يوجين يقول له، "لديه مسؤوليات شخصية، لكن الأهمّ مسؤولياته تجاه عائلته، مسؤولية أن يتزوّج بسرعة، زواجًا محترمًا، وأن ينجب أولادًا، عليك مسؤولية ضمان ألّا يموت البيت، الاسم، والنسل، هل تفهم؟"

ضحك أفام من ذلك، دافعًا أباه إلى حافة الجنون.

ثمَّ قال له بلطف: "أبي، لم نعد في عصور الظلام، نحن في القرن الحادي والعشرين، سأتزوّج حين أجد فتاةً أستطيع أن أحبّها وأعيش معها، أمّي تصلّي، لذا متأكّدٌ أنّ ذلك سيحدث قريبا."

في هذه المسألة، كنت أسمع طرفَي النقاش، غير أنّي كنت أرجو أن يجد أفام بسرعة المرأة التي يستطيع أن يحبّها ويعيش معها، كنت أتوق للأحفاد، ليس ليحملوا اسم عائلة أوبيتشينا، بل لأحملهم بين ذراعَيّ، شكرًا للربّ، إذ إنّه حين وجد تلك الفتاة، وهي فتاة من كينيا، كان أبوه ميتًا، "ألم يرَ بنات الإيبو من حوله؟" كان يوجين ليصرخ بكلّ تأكيد.

بالطبع سُمّي ابني أفام على اسم أخي أفام، عرضت الاسم على يوجين المتحمّس حينها ليسمّي ابنه الأول، والذي اتّضح لاحقًا أنّه الوحيد، وافق فورًا، نعم، بالطّبع، لن يضيع اسمي، قال.

سيحيي هذا الولد كلّ أسماء المحاربين العظماء من عائلة أوبيتشينا، ابني هذا، يردّدها بفخر.

بعد عدّة سنوات، حكى القصّة كما كان يتذكّرها: "حالما عادت جولي من

إنكلترا مع الولد، أسميته أفاميفونا، عسى أن يعيش اسمي واسم أجدادي للأبد."

"نحبّك"، كان مستمعوه من رجال الإيبو ومن سنّ معينة يردّون.

هل كان عليّ أن أخبر يوجين؟ أسأل نفسي الآن، في حياته، لم أشعر بأيّ إلحاح أو خوفٍ بشأن هذا، ولا حتى بعد وفاته.

حذّرتني أوبياجيلي من أنّ أعصابي يجب أن تكون أقوى من أيّ وقت مضى، كم هي صائبة.

بعد أسبوع من جلوس أوبياجيلي في سيارتي البيجو 504 أخبرتني أنّهم سيعيدون الولد إن لم أفعل شيئًا، دارت الأفكار والشكوك في ذهني، وصلتني الرسالة التي انتظرتها؛ رسالة موافقة على السفر عامًا إلى إنكلترا للدراسة.

عندما أخبرت أوبياجيلي، صرخت "ها هي".

"ها هي ماذا؟"

"ألا تفهمين ذلك؟"

"أفهم ماذا؟"

"خذي الطفل وسافري، عودي معه، الابن الأوّل للكبير يوجين...".

"كيف؟"

نظرت إليّ كأنّي لا أستوعب الكلام بسرعة.

"خذي الولد معك إلى لندن."

"نعم."

"هل عليّ أن أشرح لك كلّ تفصيلٍ صغير؟" في الحقيقة، فعلت ذلك: أردتها أن تشرح لي بالتفصيل.

"ستسافرين مع الطفل، وتعودين على أنّه ابنك."

هل ستنجح الخطة؟ كانت أوبياجيلي متأكّدة من ذلك، قالت إنَّ عليّ تمديد إجازتي الدّراسية بعد السنة الأولى لضمان أنّ الولد يبدو أكبر، وإلّا فإنّ أخوات زوجي سيشكّكن في ذلك.

تابعت الشرح كأنّي غرّة بحاجة لسماع شرح كلّ صغيرةٍ وكبيرة: "وبينما أنتِ هناك تدرسين، عليك أن تبحثي عن أحد مراكز رعاية الأطفال لتعتني بالطفل." قالت "هذه هي الحالة التي يكون فيها الزّوج الثري مفيدًا." عارضتُ ذلك، "أليس الطفل صغيرًا؟ لكن ليس هنالك بديلٌ عمليٌّ آخر، عادة، كنت سأبحث عن فتاة لتساعدني، لكن ما من شيءٍ طبيعيٍّ في هذه الحالة.

كلّ ما أتذكره من تلك الفترة هو التوتّر الذي استمرّ حتى صعدتُ إلى متن طائرة الخطوط الجوية البريطانية إلى لندن، وقلبي ينبض أسرع ممّا قدّر له الربّ، تلفت أعصابي من كلّ شيء؛ من تأمين شهادة ولادة مزوّرة لتقديمها في مكتب التأشيرات، من التأكّد من تثبيت موعد مغادرةٍ يكون فيه يوجين مسافرًا، مرّ وقتٌ بدا فيه ذلك مستحيلًا، أي حين كنّا لا نفترق أبدًا، إلّا أنّ البعد العاطفي بيننا كان من صالح خططي، وأخيرًا وصلنا أنا وتاتا لندن بسلام

عندما أخبرت يوجين عبر الهاتف أنّني حامل منذ أربعة أشهر، لم يكن هنالك شكّ من طرفه، بل رأى أنّه يجب عليّ البقاء في المنزل بدلاً من السّفر من أجل الدراسة، حتى تتمكّن شقيقاته من الاعتناء بي، أكّدتُ له أنّني سأكون بخير بمساعدة الأطبّاء والممرّضات البريطانيين، أخبرته بسرعة أنّي أريد أن يظلّ الخبر سرّا حتى يأتي الطفل، لأنّني فقدتُ آخر حمل، أخبرته أنّ الأطبّاء قالوا إنّني بحاجة إلى الراحة الكاملة في الفراش طوال فترة إقامتي في لندن، لا زيارات، ولا شيء من شأنه أن يزعجني بأيّ شكلٍ من الأشكال، وأنّه إمّا ذلك أو أنني سأفقد الطفل، تفهّم الأمر، ظلّ يرسل لي مالًا كثيرًا، ويطلب منّي الراحة، قال عليّ أن

أكتب إلى الوزارة وأن أستقيل، بدا أنّه لا يوجد شيءٌ يمكن أن يعرّض للخطر رفاهية الوريث المحتمل ليوجين أوبيتشينا، جاءته بعض الصفقات التجارية المهمّة أيضًا، ممّا منعه من مخالفة رغبتي والقدوم إلى لندن، كانت الخطط السّماوية تعمل من أجل منح ابني البيت الذي يستحقه.

لا، لم يتملّكني دافعٌ كبيرٌ لأخبر يوجين الحقيقة حين زارنا أخيرًا وتعجّب من كبر أفام، ولا حتّى حين قارنه مع ابنتيه، قال لي يظهر أنّ هذا الطفل سيكون رجلًا طويلًا من عائلة أوبيتشينا.

مدّدتُ إجازتي، وبقيت في لندن عامًا آخر، حتى أصرّ يوجين على عودتي إلى الوطن، ليست لندن مكانًا مناسبًا لتربية ابن عائلة أوبيتشينا.

عند عودتي، نظرت شقيقات يوجين إلى أفام بارتياب، "إنّه لا يشبهنا"، قالت أخته أداكو.

ربّما كانت تقصد بشرته السّوداء اللامعة، أو شفتيه المنحوتتين بدقّة على عكس أفواههم الكبيرة، أكبر من الحياة ذاتها، تجاهلت تعليقاتها متظاهرةً أنّي لم أسمعها.

"قدماه تثبتان على الأرض مثل طفل أكبر منه بخمسة عشر شهرًا"، قالت أخته الثانية تشينيري ذات يوم.

ضحك يوجين، وقال: "هذا هو ابني، لِمَ عليه أن ينتظر بينما ينتظره العالم بأسره ليكبر ويمتلكه؟"

كنت أسخر من الجميع في سرّي، خاصّة شقيقاته اللواتي لم يكن بوسعهنّ العيش دقيقة من دون التفكير بمال أخيهنّ وكيفية إنفاقه، عندما اتّخذتُ قراري بجعل أفام ابني، عزمت على المضيّ في ذلك حتى النهاية، كذبت عند اللّزوم، التزمت الصّمت وتجاهلت عند الحاجة أيضًا، مع ولادة الابن الذي طال

انتظاره، كظمت شقيقاته غيظهنّ وأُجبرن على تقبّل الأمر؛ إذ ليس بوسعهن فعل شيء مع أخيهنّ، كان إصراري قويًّا، وظلّ كذلك طيلة السنوات اللاحقة.

فعلت ما عليّ فعله، اختفى أيّ شعور بالذنب وذهب أدراج الرياح، حافظت أوبياجيلي على السرّ حتى أفضل منّي، كان أفام بالنسبة لها ابني، ولا يمكن لأحدٍ أن يشكّ بعكس ذلك.

لم يعانِ أحدٌ من ذلك، لا أنا ولا يوجين ولا أفام، ربّى يوجين ولدًا ومات فخورًا، كان في البيت ولد، ولن يموت قلب عائلة أوبيتشينا، عشنا وعاش الحبّ معنا، ومع أنّ العلاقة بين يوجين وأفام كانت صعبة أحيانًا، لكنهما أحبّا بعضهما بعضًا، بالنسبة لأفام، هل سيكون عيشه في بيتٍ بلا أمّ أفضل من الحبّ والرّفاه الذي تربّى فيه؟

سنحت لي الفرصة أن أكون أمًّا، حمدًا للربّ أنّي انتهزتها، إذ إنّي لم أحبل، ولا حتى حين ألحّ يوجين على إنجاب المزيد من الأولاد، وأرسلني إلى إنكلترا لوجود تلك التّقنيات الحديثة باهظة الثمن التي ظهرت في الثّمانينيّات.

ما معنى الأم في حقيقته؟ صحيحٌ أنّ أفام لم يخرج من بين ساقَيّ، مثل إفيوما ابنة أوبياجيلي الثانية، مبلّلةً ولزجةً من الحمأة والدّم، أخرجتُ تلك الطفلة بنفسي، وأمّها تصرخ صراخًا يوقظ أهلّ الحيّ جميعًا، نعم، حقًّا أنّي لم أعانِ من آلام المخاض، ولا التعافي من العملية القيصريّة، لكن ليس ذلك ما يجعل الأمّ أمًّا، أخذت أفام من صغره، ما أزال أتذكّر أوّل يومٍ له في المدرسة، وأوّل أغنية غنّاها في الحضانة، أتذكّر كيف سأل عنّي حين تفشّت الملاريا، أنا ولا أحد غيري، أتذكّر أولى همهماته، بريق عينيه حين يبتسم، رسالته الأولى من المدرسة الداخلية، وأوّل حلمٍ رآه.

لقد عرفت أعظم حبٍّ دنيويٍّ يمكن أن تعرفه المرأة؛ أن تحبّ طفلًا

ويحبّها بالمقابل، مَن يقول إنّي لا أستحقّ ذلك بينما تستحقه الفتاة التي ظهرت في الأخبار، تلك التي وجدوا ابنتها في مكبّ القمامة في أوجوي منذ يومين؟ لم أحكم عليها، تمنّيت لو أنّها أخبرت أحدًا، لو أنّ لديها أحدًا تستطيع الاعتماد عليه، أحدًا يسعد بأخذ الطّفلة وتربيتها، ربّما ذلك ما حدث لأفام، ربّما أخذت أمّ ناثان الطّفل من مكبّ قمامة، ومع ذلك، فإنّي أنا مَن ربّيت طفلًا كان سيعيش حياة بائسة، حياةً صعبة، مَن يستطيع أن يقول إنّي لا أستحقّ لقب أمّ؟

عندما نمتُ تلك الليلة أخيرًا، لم أحلم بالطفل الذي تُرك في النفاية كما خشيت، حلمتُ بيوجين ينهض من قبره ويشير إليّ بأصابع الاتهام، لم أخَف من أيّ شيء، تساءلت فقط لماذا غادر سريره متأخّرًا جدًّا، ثم حلمت بنوابولو، الخيّاطة السّوداء الطويلة.

الفصل الثامن عشر
نوابولو

صرت أنقر بقدمي على الأرض باستياء، لم أحبّ يومًا إضاعة الوقت، خاصّة عندما يكون ثمّة عملٌ يجب أن أنجزه في المحلّ، كان عليّ ببساطة أن أخبر السيدة أوبيتشينا أنّي سأشتري القماش بنفسي، عرفت ومن دون أيّ شعور بالفخر، أنّها ستحبّ أيّ قماش أختاره، فأنا بارعةٌ في ذلك، بدلًا من ذلك، ولحماقتي وافقت على الهاتف على الذّهاب معًا إلى السوق، كنتُ أستطيع أن أذهب وأعود خلال الوقت الذي قضيته منتظرة.

بعد ثلاثين دقيقة، رأيتها تنزل من سيارة المرسيدس بحركاتٍ متثاقلةٍ حذرة، عرفت أنّ ذلك خطأ، تنهّدت إذ قبلت فكرة أنّي لن أنتهي من خياطة الأطقم المدرسيّة التي خطّطت أن أنتهي منها في ذلك اليوم.

دخلت وقالت: "أعتذر جدًّا عن تأخيرك، وجب عليّ التوقّف عند الصيدلية وصرف بعض الوصفات الطّبية، واستغرق الأمر أكثر مما توقّعت، هيّا بنا."

بكلمات الاعتذار هذه، لم يعد أمامي من خيار سوى أن أهدأ، ابتسمتُ وقلت: "لا مشكلة إطلاقًا، كنت فقط قلقة من أن يكون حدث شيء."

اقترحتْ أن نذهب بسيارتها، وكان اقتراحًا مناسبًا إذ إنّ المكيّف في سيارتي معطلٌ، فضلًا عن أنّها ستكون غير مريحة لها بسبب حجمها، انتظرتها كي تجلس من الخلف، ومن ثَمَّ أجلس بجانب السائق.

قالت: "لا، من فضلك تعالي واجلسي بجانبي حتى نتحدّث على الطريق".

"نعم، سيدتي"، لم يكن يهمّني أين أجلس، لكنّي اتّبعت العرف السائد من أنّ الأشخاص المهمّين يجلسون في الخلف، خلف سائقيهم.

جلست إلى جانبها وانطلقنا.

دلّت الروائح في سيارتها وشخصها على الرّفاهية، في حياتي القادمة، فكّرت، سأتأكّد من أن أكون ابنة عائلةٍ غنيّة، ابتسمت في سرّي من هذه الفكرة، كان زوجي يقول "تحلّي بالصبر، لم تنتهِ هذه الحياة بعد." فأقول له دومًا إنني في حياتي القادمة، سأكون رجلًا، أقولها بنبرة تأكيدٍ تجعله يضحكيجيبني: "ليس سهلًا أن تكوني رجلًا، كما تعرفين." ، فأردّ عليه: "بل من الأسهل أن يكون المرء رجلًا".

"حسنًا"، يقرّ بالهزيمة.

"لكن عليك أولًا أن تُنهي هذه الحياة معي بصفتي زوجك، ومن ثَمَّ أستطيع أن أعود بصفة زوجتك." ابتسمتُ من جديد.

نظرت إليَّ السيدة أوبيتشينا، وعلى وجهها ابتسامة استفهام، لماذا تبتسمين؟

"أحبّ سيارتك مدام، إنّها مريحةٌ للغاية." لم تكن كلمة مريحة ملائمة تمامًا، خاصّة إن قارنّا بين سيارتي الهوندا القديمة وسيارتها المرسيدس.

"إمم." أجابت، كأنّ ذلك غير مهمّ.

"هل سيكون السوق مزدحمًا؟ أحيانًا أشعر بالحرّ الشّديد فيه." عندما قالت ذلك، فتّشت في حقيبتها السوداء الكبيرة، وأخرجت مروحةً حمراء جميلة، من النوع الذي تستخدمه سيّدات المجتمع للتّهوية في الأعراس.

قلت لها: "إنّه مزدحم دومًا." ثم أردفت: "لكنّي أعرف طريقًا مختصرةً للمحلّ الذي أخطّط للذهاب إليه، لن يستغرق الأمر طويلًا."

"هل تذهبين إليه كثيرًا؟" سألتني.

"لا، فغالبًا أكون أكثر انشغالاً من أن أذهب بنفسي هذه الأيّام، عادةً أرسل إحدى الفتيات اللواتي تعملن لديّ لشراء ما أحتاج، إلا إن كان هنالك سببٌ وجيه".

ابتسمتْ: "إذن أنا سببٌ وجيه؟"

"بالطبع أنتِ سبب وجيه، سيّدتي." ضحكتُ وماشيت التيّار، ثمّ تابعتُ: "لا يتزوّج ابن المرء كلّ يوم".

"هذا صحيح." قالت وابتسمت: "وماذا عنك؟ هل أولادك بالغون؟"

"إنّهم يكبرون، مدام، دخل ابني الجامعة هذه السنة."

"اممم، كم ولدًا لديك؟"

"اثنان، ولد وبنت."

"آه، اثنان، على الأقلّ أكثر من واحد، وهو ما لديّ."

"آه، تقصدين أنّ ابنك هو ولدك الوحيد؟"

"نعم." قالت بابتسامة دافئة، كما لو أنّها لا تمانع من أنّ لديها ولدًا واحدًا فقط.

" إيااا[47]"، قلت، لا بدّ أنّها وزوجها انتظرا طويلًا؛ لم تكن شابّة، وفي أيّامها، كانت الفتيات تتزوّج بعمرٍ صغير.

"إمم." كان جوابها البسيط.

"إذن، علينا أن نتأكّد أنّك تبدين رائعة في ذلك اليوم."

"انتبهي، لا نريد أن أكون أجمل من العروس، إذ عندها قد لا تسمح لي أن أقترب من ابني ثانية."

ضحكنا، ثم تحدّثنا عن الحموات والكنائن، وأخبرتها أنّي محظوظة في ذلك

(47) (Eyaaa) تعني" نعم" بلغة الايبو.

الصدد، منع زوجي عنّي كلّ تدخّل، خاصّة لأنّه لدي ولدان فقط، الأمر الذي لم يعجب حماتي، لم أضف أنّ زوجي لم يكن سعيدًا بذلك أيضًا، قالت إنّها لم تكن محظوظةً كثيرًا، مع أنّ حماتها توفّيت عندما تزوّجت زوجها، كانت شقيقاته الثمانية أكثر رعبًا من أيّ حماة.

قطعت عهدًا على نفسها أنها لن تكون حماة تتدخّلُ في كلّ شيء، وأنّها تأمل أن تحافظ على ذلك العهد، على أيّ حال، فإنّ ابنها وخطيبته يعيشان في لاغوس، وعلى الأرجح لن تراهما كثيرًا.

قالت السيدة أوبيتشينا: "أليس غريبًا أن يكون لديك طفل، تشعرين به، تغسلين أردافه، تستيقظين معه ليلًا، تستمعين إلى أحلامه السيّئة، وتمسحين دموعه، ثمّ، يومًا ما يكبر، فيصير لشخص آخر، ويحكي تلك الأحلام لغيرك؟" توقّفت، ثمّ أجابت عن سؤالها: "إنّه غريب، لكنّها دورة الحياة، إن لم يفعل الولد هذا، ستقلقين، وتستشيرين القساوسة وتتساءلين عن الخطب فيه".

تمنّيت قدوم اليوم الذي أزوّج فيه أولادي، سيكون إنجازًا مهمًّا، لم أضف أنّه لم يزوّجني أحدٌ، وأتمنّى لو أعيش لأفعل ذلك لأولادي.

بقينا نتحدّث حتى وصلنا السوق الحارّ والمزدحم والزاخر، تجاوزنا بضائع على الطّرق الضيقة، تجنّبنا دافعي العربات والناس الذين يمشون بحيوية بحثًا عمّا جاؤوا لشرائه، كان البائعون ينادون علينا من محلاتهم.

"مدام، تفضلي، لديّ أفضل مستحضرات التجميل."

"خالتي، أحضري ماما هنا، لديّ كرسي ظريف ترتاح عليه."

"خالتي، الماما تتعرّق، تفضلوا، مروحتي تعمل." كنا بطيئتين، وافقْتُ بين ساقيّ المتعجلتين وخطوات السيدة أوبيتشينا الأقصر إلى أن وصلنا تجمّع المحلات الذي يُباع فيه القماش، هناك ركّزنا على إيجاد أفضل قماش، وألّا

يخدعنا البائعون الذين يستطيعون شمّ رائحة النقود عن بعد آلاف الكيلومترات

اخترنا الأقمشة معًا، مالت السيدة أوبيتشينا نحو القيطان الأحمر، غير أنّي كنت أرى أن اللون الأزرق الغامق سيجعلها تبدو أنحف، وسيكون ملكيًّا عليها، اشتريت أيضًا قيطانًا أبيض لصنع بلوزةٍ لها، على من الرغم من أنها قالت إنّ لديها الكثير من الألبسة باللون الأبيض، قلتُ لها إنّي سأفصّله وفق الموديل البسيط الأنيق الدّارج هذه الأيّام، وافقتني في النهاية، ابتسمتْ ابتسامة عرفانٍ لحماستي، لو لم تأتِ معي، لاشتريت الأقمشة بسعرٍ أفضل، لكنّي فعلتُ ما بوسعي، وهي من دفعت الفاتورة، بعد ذلك قالت إنّها تريد بعض اليقطين، أخبرتها أنّي أستطيع شراء عينات من زيت الفول لها، لذا بقيت في المحل مع الأقمشة تُكلّم البائع، وذهبتُ إلى الطرف الآخر من السوق لشراء الأغراض التي أرادتها، واليقطين، والأوجيلي إيبو، وبعض السمك المقدّد، وأباتشا.

عندما عدت، شكرتني بحفاوة.

في طريق العودة في السيارة، سألت: "أخبريني كيف أصبحتِ مصمّمة أزياء؟ منذ أن وجدتك صديقتي السيدة نواجيه، وهي تصرف كلّ نقودها على الملابس"، ضحكت ونبرتها تشير إلى أنّي ربما كسبت زبونًا جديدًا كما كسبت صديقتها من قبل.

لاحظت أنّها لم تقل "خيّاطة"، والتي تدلّ عادة على أقلّ من مصمّمة الأزياء

"إنّها قصّةٌ طويلة." قلتها ببساطة، مع أنّه بوسعي أن أقول إنّه كان المحل الوحيد المتوفّر لي في ذلك الوقت، أو إنّي كنت أحبّ الملابس.

"أودّ أن أسمعها ذات يوم." هذا كلّ ما قالته، وعيناها تتأمّلان وجهي.

كانت طريقة السيدة أوبيتشينا تجعلك تشعر أنّها مهتمّة بالتعرّف إليك، على ذاتك الحقيقية، وليس ذاتك التي تقدمّها للعالم.

ودّعتها عندما عدنا إلى المحلّ، ورجوتها ألّا تنزل من السيارة.

"هل أنت متأكدة أنّي لا يجب أن أدخل؟"

"لا، لقد أخذت مقاساتك، مدام، سأدخل وأبدأ التّفصيل مباشرة، تعرفين أنّ هذا قد يستغرق وقتًا، أريد أن يكون كلّ شيءٍ جاهزًا للعرس." عرفت أنّ الرحلة إلى السوق أتعبتها، لكن حقيقة ما كان من ضرورة لدخولها إلى المحلّ، فضلًا عن أن لديّ الكثير من العمل، لقد قضيت وقتًا طويلًا في السوق.

ودّعنا بعضنا وشقّت سيارة المرسيدس طريقها.

ذات يوم، جاءت تشيدينما إلى المحلّ، تفاجأتُ من رؤيتها، اشتكت دومًا من أن ترانز إكولو بعيدة جدًا ليسافر المرء إليها لرؤية صديق، كنت أضحك من ذلك، إذ كانت تستغرق، مع زحمة السير، ثلاثين دقيقة فقط من أواني.

دخلت وأردافها تهتزّ في تنّورتها الطويلة، ما تزال بدينة، كما كانت منذ أن كنّا خادمتين في الشارع ذاته منذ أكثر من ثلاثين عامًا. أخذت أمازحها بأنّها الآن على الأقلّ تمتلك أربعة أولاد لتبرّر بدانتها، فردّت أنني كنت أصلح بأردافي الصغيرة للتجوّل بثوب السباحة على شاشات التلفاز، إلّا أنَّ طموحي لطالما كان متدنيًا.

كان ماتعًا كيف تشقّ الحياة طريقها إلى وجهات غير متوقّعة، فقد أردت أن أصبح وزيرة في الحكومة، صرت خيّاطة، تشيدينما، كان طموحها الوحيد في المدرسة الابتدائية أن تصبح خيّاطة، صارت تدير صالون تصفيف شعر، أرسلت لي بعض زبائنها، مع أنّي لم أستطع دومًا ردّ الجميل، إذ إنّ صالونات تصفيف الشعر كثيرة في ترانز إكولو، والنساء على استعداد لاجتياز القارّة لأجل ملابس مصنوعة جيّدًا، في حين لم يكن ذلك الاستعداد موجودًا بخصوص الشعر.

لن أنسى الوقوف في شارعنا في ضاحية الاستقلال قبل سنوات عديدة،

وأنا أرجوها أن تسمح لي أن أذهب إلى أهلها. آواني أهل تشيدينما، أنقذوني، وأنا مدينةٌ لهم بحياتي، بمرور الوقت، وحين أفكّر بذلك، أتجاهل حالتي وأنا أبحث عن المنزل في أباكبا بعد أن تركتني تشيدينما، كيف نمتُ تحت شجرةٍ أمام منزلٍ آخر في تلك الليلة، وأنا أصلّي ألّا يؤذيني أحد الأشرار، وألّا تأكلني الحيوانات، أتجاهل تعجبهم حين رأوا حالتي المزرية وجوعي عندما عرفت مكان البيت صباح اليوم التالي. بدلًا من ذلك، كنت أفكّر كيف أن أوزواماكا وزوجها سمحا لي أن أظلّ وأعتني بالمولود الذي وضعته حديثًا لتتمكّن من العودة إلى محلها، أخبرتني تشيدينما أنّ مسكنهم ضيّق وميزانيتهم محدودة للغاية، كان زوج أوزواماكا - طيّب الربّ ذكره - سبّاكًا يعمل من حينٍ لآخر، كما كانوا بالكاد يستطيعون إطعام أنفسهم، فما بالك بإطعام شخصٍ آخر، ومع ذلك آووني وعاملوني كأنّي واحدة منهم.

كان الأمر صعبًا في البداية، الاهتمام برضيع، تهدئته حين يبكي، تنظيف مؤخرته حين يفرغ معدته، الطفل الذي لم يكن إزينوا، لكن حينما صرت أتصوّره إزينوا، صار الأمرُ أسهل، سرعان ما أحببت الطفل - أوبينا - ابن أوزواماكا الأوّل، من يعيش الآن في لاغوس ولم يعد لرؤية أمّه الأرملة.

بينما أهتمّ بالطفل، كنت أشاهد أوزواماكا وهي تعمل، فتعلّمت منها أساسيات الخياطة، صرتُ جيّدةً فيها، الأمر الذي فاجأني، وما فاجأني أكثر أنّي أحببتها، وأحيانًا كنت أختار الموديل، عندما أحضرَ زوج أوزواماكا إلى البيت تلفزيونًا أبيض وأسود أعطاه إيّاه رجلٌ غنيٌّ عمل عنده، شاهدت المذيعين على قناة NTA، يرتجلون الكلام ويقدّمون الاقتراحات، وجدت أنّ لدي شغفًا بالأزياء والأعمال.

بعد أن عشت مع أوزواماكا سبع سنوات، نادتني ذات يوم وأخبرتني أنّ

الوقت قد حان لأفتح محلّي الخاصّ، في ذلك الوقت، كنّا قد انتقلنا من أباكبا إلى أواني، ومع حلول التسعينيّات، كبر محلّي وصار يعمل لديّ ثلاثة خياطين.

لم أعد إلى المدرسة أبدًا، إلا أنّ الكتب ظلّت صديقتي، تعلّمت بنفسي، وسّعتُ مجالات قراءتي قدر استطاعتي مدركةً أنّها يومًا ما ستنفعني.

عندما تقدّم إيفيتشي ليطلب يدي، أخبرته أنّ أخت تشيدينما وزوجها هما العائلة التي عرفتها دومًا، برغم أنّه أصرّ أن يذهب هو وأهله إلى نوكينتا، احترم رغباتي وقدم لهما الإجلال نفسه الذي يستحقّه والدا امرأة ستتزوج في إيغبولاند.

الآن، وبعد عقود، جلسنا أنا وتشيدينما في المحلّ ذاته، نمزح مع بعضنا، مثلما كنّا نفعل منذ أن كنّا فتيات، نكزنا بعضنا في المناطق الحسّاسة، الرابطة بيننا أقوى من الأخوّة، رابطة آلام مشتركة وضحك، كان حبّنا قويًا، وسيظل كذلك.

روت نكتةً عن إحدى الخيّاطات الشابّات في محلّي وضحكت.

"رائعٌ أن أراكِ تضحكين، في آخر مرّة جئتِ إلى بيتي، كنتِ مثل جرذٍ مسلوق"، قالت.

كانت تقصد زيارتي قبل أسابيع عندما أخبرتها أنّي صادفت أورينا، أخبرتني بطريقةٍ لا لبس فيها أنني إن كنت أتوقّع أن أجد الراحة عندها، فقد طرقت باب الشخص الخطأ. "فكرك منشغل بذلك الرجل عديم المسؤولية، ذلك الرجل الذي يظلّ يناديك الخادمة، من ظلّ يقول لا أعرف الخادمة."

"لا أعتقد أنّي سأسامحه." قلت لها، هل أراد أن أسامحه أساسًا؟ سألني صوتٌ في داخلي.

"انظري لحالك، أليس لديك شيء أهمّ لتفعليه أو تفكري به؟" سألتني،

"ابقِي هكذا مثل الأولاد تغضبين من أدنى شيء، هل سينفعك ذلك، أخبرني أحدهم أنّه متزوّجٌ ثلاث مرّات، نعم، لم أخبرك، بماذا ستنفعك تلك المعلومة؟ وماذا ستستفيدين إن أخبرتك أنّ والديه قد سئما منه؟"

كنت قد عرفت أنّها حافظت على قناة تواصل مع شقيقات أورينا اللواتي ربّتهن، لكنّها لم تذكر أورينا لي مطلقًا.

"لا أستطيع أن أسامحه." قلّدتني: "لم يسأل عن ابننا، لم يسأل عن ابنه، هل يهتمّ؟ هل اهتمّ بذلك كلّ تلك السنوات؟ سألت سؤالًا بلاغيًّا.

"أرجوك، باسم مريم العذراء، أطلب منك ألّا تدعي إيفيتشي يراك بهذه الهيأة، إيه؟ لا تجعلي زوجك الطيّب يراك هكذا، ليس من أجل أورينا." سخرت من الاسم مثل خرقةٍ رفعتها من القمامة.

صبّت قسوة تشيدينما الماء البارد على انفعالي، وعدت تلك الليلة إلى البيت متّزنة، عندما أخبرت إيفيتشي في اليوم التالي، حقّقت قدرًا من السلام، وأظنّ أنّه ارتاح، لأنّ لقاء الصّدفة لم يقلب حياتي رأسًا على عقب.

"كيف حال أولوما وأوزيوما؟" سألت تشيدينما عن ابنتيها، فتاتان جميلتان وذكيتان ذكاءً عجيبًا، الجينات شيءٌ قويّ، كانتا في العشرين ونيّف من عمريهما، وأمّهما تتوق لتزويجهما.

"لا زوج إلى الآن يا أختي." قالت بنبرةٍ جدّية.

ضحكتُ: "تعلمين أنّ الزواج ليس كلّ شيء".

"أعلم أنّه ليس كلّ شيء." أجابت بقسوة، ثمّ أردفت: "متى ستتركين زوجكِ؟"

استغرقتُ في الضحك، يمكن لتشيدينما أن تكون دراميّةً للغاية.

"كيف عمل المحلّ؟" سألت تشيدينما لتغيير الموضوع وهي تبحث في

محفظتها عن شيءٍ ما، انتظرت حتى أخرجت يدها منها، وفيها بعض الفول السوداني.

"عمله جيّد."

قالت: "شكرًا للربّ".

لم أعرف بالتحديد علاقة الربّ بذلك، لكنّي حاولت أن أكون حكيمة وتجاهلت الأمر، كان الربّ المسألة التي لا نتّفق بشأنها، فتشيدينما رومانية كاثوليكية، وستظلّ حتّى مماتها.

"هل أخبرتكِ أنّ لديّ زبونة جديدة؟ السيدة أوبيتشينا، سيتزوّج ابنها في غضون أشهر قليلة، وإني أفصّل لها ملابس لأجل العرس التقليدي والعرس الكنسي، وهي غنيّة، لم تساوم أبدًا حين قلت لها السعر، والآن تُحضر لي أصدقاءها لتفصيل ملابس لأفراد العائلة لأجل العرس.

"ذلك رائع، هل دعتكِ إلى العرس؟ ربّما تستطيعين أخذي معك، أليس كذلك؟ وأعرف خبّازًا في حال لم يتفقوا مع خبّاز بعد لصنع قالب الحلوى".

سخرت منها، تلك هي تشيدينما، دومًا تبحث عن فرصة لكسب المال، غالبًا ما تقول إنها لا تملك أيّ خيار؛ إنجاب خمسة أولاد لم يكن أبدًا أعظم قرار في حياتها.

أخبرتها أنّه حفل زفاف سياحيّ في كينيا، وستجري كلّ الفعاليات هناك، لذا، لا، لن أذهب، أو آخذها معي.

الأمر الذي لم أخبر تشيدينما به في ذلك اليوم - غالبًا لأنّي أنا نفسي لم أكن أعرف - أني أنا والسيدة أوبيتشينا كنّا في طريقنا لتكوين شكلٍ من أشكال الصداقة، هذا إن أسميتم امرأتين واحدة في عمر السبعين والثانية في عمر الخمسين تقريبًا صديقتين.

منذ زمنٍ بعيد، لم أعد أسأل عن السّبب وراء قدوم السّيدة الضخمة التي تفوح العطور منها أوبيتشينا إلى محلّي في منتصف نهار مزدحم، كانت تأتي أحيانًا مرّتين وثلاث مرات في اليوم لعشر دقائق أو عشرين دقيقة وأحيانًا ساعة.

"طاب نهارك عزيزتي." تقول وهي تدخل المحلّ.

تبتسم لي كأنّ مجرد وجودي في المحلّ يسعدها، كيدو؟ كيف يسير العمل؟

"طاب نهارك مدام"، كنت أردّ عليها، "العمل يسير على ما يرام"، أحيانًا أعتقد أنّها تأتي لتطمئنّ على أقمشتها باهظة الثمن، وبسخطٍ أسأل إيفيتشي لِمَ تترك امرأة ملابسها عند خيّاطة إن لم تكن تثق بها! يبتسم لي بتلك الطريقة الهادئة التي تثير الغضب، ويسأل إن كانت تشغل أكثر من مقعدين، إنّها سمينةٌ أجل، ربّما مقعدٌ ونصف، فينفجر زوجي ضحكًا.

غير أنّ السيدة أوبيتشينا لم تكن قلقة بشأن أقمشتها، إنّما جلبت المزيد، كان شذا عطرها يسبقها ليعلن عن قدومها.

"كنت عند أوبياجيلي، واعتقدت أنّه بوسعي أن آتي وأراك." تقول مبتسمة، كنت أمنع نفسي من قول ما هو على طرف لساني، وهو أنّ السيدة نواجيه تعيش في أباكبا، وثمّة طريقٌ مستقيمٌ من بيتها إلى بيت السيدة أوبيتشينا في ضاحية الاستقلال.

لكنّي صرت أتوق لزياراتها أكثر من الانزعاج منها، لم أكن متأكّدة تمامًا من ذلك التحوّل، أو كيف أضعفت السيدة أوبيتشينا مقاومتي، ربّما حين صارت تجلب معها فواكه لاستمالة العمّال الذين لديهم قابلية الاستمالة لديّ، أو ربّما حين قلت إنّي أحبّ أحد العطور، فأحضرت قارورةً منه في المرّة التالية قائلةً إنّ لديها الكثير منها، وتوزّعها عادة في أعياد الميلاد وعيد الميلاد

المجيد، أو اهتمامها العميق والهادئ بعملي في الخياطة، أو تصميم الأزياء كما تسمّيه، أو ربّما حين بدأت تُظهر الاهتمام بأولادي، مصرّة على أن أتّصل بهم أكثر وتستمع بتركيز حين أتكلّم عنهم. قالت إنّها تتمنّى لو أنّ الهواتف الخلوية كانت موجودة عندما ذهب ابنها أفام إلى المدرسة الدّاخلية.

كلّ ما أعرفه أنّنا أصبحنا صديقتين، وأنّي صرت أتطلّع لابتسامتها التي تبدأ بتجعّد على طرف عينيها قبل أن ينزل إلى فمها، وعن قصصها، عن عمل شركة ابنها للإنتاج الموسيقي، كلّ ذلك جعلني أدرك أنّي لم أعرف من قبل طعم صداقة امرأة أكبر، امرأة بعمر أمّي.

انجذبت السيدة أوبيتشينا وإيفيتشي لبعضهما أيضًا، واتّضح أنّ بينهما الكثير ليتحدّثا بشأنه حين يأتي إلى المحلّ، كان إيفيتشي يجلس ويستمع إليها كأنّ لديها جعبة فيها حكمة الربّ، عيناها تلمعان حين تراه، وتقول إنّي اتّخذت خيارًا جيّدًا، وإنّي امرأة محظوظة، هل ستظلّ تقول عنّي محظوظة لو عرفت ماضيّ؟ سألتُ نفسي.

لم يكن الناس المحظوظون يفقدون آباءهم مبكّرًا، أو يُرسلون ليعملوا في بيوت لا يتلقون فيها الحبّ الذي يجب أن يتلقّاه الأولاد؛ لا يحبلن خارج إطار الزوجية بولد لا يبالي أبوه به - شعرت بانضغاطٍ في المكان الذي يقولون إنّ القلب يوجد فيه - ولم تتطور الأمور بعدها ليفقدوا ذلك الطفل. لكنّي احتفظت بتلك الأفكار لنفسي، لأنّ ما قالته كان صحيحًا إلى حدٍّ ما، كنتُ محظوظة أنّي وجدت زوجي.

أقول أحيانًا إنّه عالم غريب، من يصدّق أنّي سأجد نفسي صديقة امرأةٍ مثل هذه من عالم مختلف؟ في الماضي، ربّما كنت سأكون خادمتها، لكن اليوم نحن أصدقاء إن جاز التعبير.

عصر ذات يوم، أخبرتني أنّها كانت ترى طبيبها.

"أتمنّى أن كلّ شيء على ما يرام"، قلتُ متفاجئة من القلق الذي تفجّر من قلبي.

"نعم، يجب أن يراقب ضغطي الذي يرتفع أحيانًا، وسكّر دمي، والكوليسترول، والنبض، وقائمة لا تنتهي، يقول لي يجب أن أتوقّف عن تناول البيض المقلي ولحم البقر، كأنّه لديّ أكثر من حياة لأعيشها، كأنّنا سنغادر هذه الحياة أحياء." ضحكت ضحكة من أعماق قلبها، وذراعاها الكبيرتان تهتزّان مع صوت فرحها.

لا بدّ أنّها تثير غضب طبيبها - خطر لي - لكنّي وجدت نفسي أضحك معها وهي تجلس على مقعدها المفضّل في ركن الاستقبال عندي، الأريكة ذات المقعدين ترحّب بك، بالمزيج الصّحيح من النّعومة والثبات، لم أتساءل كم ستظلّ هذه المرّة.

الفصل التاسع عشر
جولي

جلستُ في غرفة الطعام، غرفة مزخرفة معتمة، ومفروشة بكراسٍ بنّية جميلة، وطاولة طويلة تسع أناسًا أكثر بكثير من الشّخص الوحيد الجالس أمامها هذا المساء، يُقدّم العشاء في الساعة السادسة والنصف، التوقيت ذاته الذي كان يصرّ يوجين أن يقدّم فيه حين كان حيًّا، أحيانا لم تكن لديّ الطاقة لأقول للطاهي "لا أريد أن آكل، ليس لدي شهية للأكل." قدَّم لي اليوم زبدية حساء نسالا عديمة الطّعم، يستطيع طبّاخي طهو العديد من الأطباق، لكن حساء نسالا لم يكن واحدًا منها.

أكلت وحدي، شاهدت قناة CNN بعدها، ومشاهدة الأخبار عادة كوّنتها مع يوجين، واستمرّت بعد وفاته، لطالما تساءلت إن كان موظفو CNN يبدؤون يومهم بالصلاة رجاء حصول أحداث مأساويّة في العالم، كان خبر اليوم عن الشرق الأوسط، لن تنتهي الحروب، خانتني الذاكرة إن كانت تلك مقولة في الإنجيل، أو أنّ الحروب ستزداد عند دنوّ النّهاية، هل هذه هي النهاية؟ عندما يجلس زعيمٌ وزوجته على كراسٍ من ذهب، يتشبّثان بالسلطة، ويتركان الأطفال يموتون؟ برغم أنّ عينَيّ مركزّتان على شاشة التلفاز، ماذا بقي لينظر المرء إليه وقد عاش في بيتٍ لثلاثين سنة؟ جالت أفكاري في أحداث النهار.

وجدت أوبياجيلي أنّ صداقتي الناشئة مع الخيّاطة مسلّية، "مَن يتسلّق شجرة الأوجي، عليه أن يحاول ألّا يحصل على الفواكه وحسب، بل الحطب أيضًا." اقتبستْ واحدًا من أمثالي التي أحبّها، "ستحصلين منها على ملابس

جيّدة التّفصيل وصداقتها".

تجاهلتها.

"رجاء، ما زلت في حاجة أعزّ صديقة عندي." تابعت أوبياجيلي: "أخبريها أنّ عليها أن تعود إلى مدرستها الثانوية، وتجد أعزّ صديقة عندها. آه، آه، ما هذا؟" ضحكت حتى انهمرت الدموع من عينيها.

ضحكتُ معها، كانت ضحكاتها معدية.

"هل لأنّها من نوكينتا؟" سألتني بجدّية أكثر.

كان ابني فضوليًا، أيضًا، في مناسباتٍ متعدّدة حين يتّصل، أقول له إنّي في محلّ خيّاطتي، "أنتِ هناك من جديد! هل كلّ شيء على ما يرام يا أمّي؟" سأل يومًا كنت قد أنهيت، ومن وقت طويل، وجبة حساء نسالا حين اتّصل ليتحدّث عن العمل، "أعدكِ أنّي سآتي وأزورك"، قال أخيرًا، "كلّ ما في الأمر أنّنا نطلق مشاريع كثيرة الآن، والوقت غير مناسب لأخذ إجازةٍ من العمل".

"أعرف." طمأنته لأنّي عرفت أنّه بحاجة ذلك: "أنا بخير، إن احتجتُ أيّ شيء، سأخبرك"، قلت ذلك لأنّي أعرف أنّ هذا سيوقف تدخّله.

"حسنًا، إن وعدتني."

"أعدك."

قلنا عبارات الوداع، أفلتت منّي تنهيدة، لماذا يعتقد الجميع أنّ الشيخوخة تعني الحماقة، الخرف؟ الجميع، بما فيهم كبار السنّ مثل ابنة أمّي أوبياجيلي، خطر لي أنّ كلمة الشيخوخة مرادفة لكلمة السذاجة، فكّرت بابني وهو ابن ثلاث سنوات يريد منّي أن أحمله حين عودته من الحضانة، ويلفّ ذراعيه طويلًا حول رقبتي، فكّرت بمتعة أن يحبّك أحدهم، أن يحتاجك، ثمّ فكّرت بهذا الشاب الذي يعيش حياته بعيدًا في مكان ما، يحبّني، لكن لا يحتاجني

وقد صرت امرأة عجوزًا.

مَنْ هي تلك الخيّاطة التي تقضي والدته معظم وقتها معها، تخيّلت ابني يسأل نفسه في لاغوس، ولندن وفرانكفورت وفي أيّ مكان أخذه عمله إليه، هل تساءل عن هذه المتقاعدة، والأرملة، والدّاعية في الكنيسة، والرئيسة السابقة لكثير من المنظمات، نادي إنر وييل، اجتماع المدينة، منظمة نساء الكنيسة، اتّحاد المعلمين فرع إنوغو.

هل تساءل ماذا تفعل طيلة اليوم؟ لا، لكن عندما كوّنت صداقة جديدة، من المؤكّد أنّ النّوم قد طار من عينيه.

تنهّدت، من المهمّ أنّ يكون للمرأة حياة، سمعت صوت أمي يقول في رأسي، والأهمّ أن يكون لها أولاد، لكن يجب أن يكون لها حياةٌ خارج حياة أولادها؛ لأنّهم يومًا ما سيكبرون أو يرفضون أن يكبروا، وفي كلا الحالتين، سيتركونها. ابتسمت، لم تقل أمّي ذلك أبدًا، حقيقة لم تقل غير أنّ على المرأة أن يكون لها أولاد لتسمّى امرأة، لكن كلّما لمعت في رأسي شذرة حكمة، نسبتها بحكم العادة إلى تلك القوّة الهادئة التي أسميتها الأمّ.

تمنّيت لو يُظهر أفام اهتمامًا أكبر بقليل من الذي كان يُظهره، لكنّي وبّخت نفسي؛ كلّ واحدٍ يجب أن يعيش حياته، كان عمله يدرّ عليه أموالًا، ولديه حبٌّ جديدٌ في حياته، وقريبًا ستكون زوجته. يتّصل بحبيبته دومًا، لا شكّ لديّ في ذلك، ربّما لو أنّي تزوّجت في عمر أصغر، لكان لدي الآن أحفاد، مثل أوبياجيلي، ومع أنّها تستطيع أن تظلّ في بيوت أولادها طويلًا، إلا أنّ قصصها عن الانتباه لكلّ كلمة أو فعل مع الأصهار كافية لتوحي أنّ الأنسب لكلّ شخصٍ كبيرٍ أن يظلّ في بيته. نعم، للأحفاد متعة، لكن سرعان ما تشعر أنّك قد تجاوزت مدّة الإقامة المرحّب بها.

دفعني التفكير بالأحفاد إلى التساؤل متى سيؤسّس ابني وخطيبته عائلة، صارت الكثير من الأفكار الجديدة والتافهة نموذجًا، بداية، إنجاب أولاد أقلّ - من قبل كان ذلك يعني أربعة أولاد - لكنّي سمعت في الكنيسة الأزواج الجدد يقولون إنّهم سينجبون اثنين، أو حتى واحد، لا أكثر. لديّ ولد واحد لأنّه ما كان لديّ خيار آخر، لو كان لي الخيار، لأنجبت بسعادة ستة أولاد، يقول بعضهم، ومنهم ابني، إنهم حتى لا يكترثون بجنس المواليد، العالم مملوءٌ بالعجائب؛ الثابت الوحيد فيه هو التّغير، كما يقولون.

كيف مرّ الوقت؟ كيف حدث أنّ الجميع الآن ينادونني ماما، ويعاملونني باحترام، ولكن بحذر، كأنّي سأنكسر إن أهملوني لثانية، ركبتاي لا تساعداني، حالتهما سيئة، ذكر لي أفام استبدال الركبة جراحيًّا، غير أنّي لا أريد الجراحة. قال طبيبي إنّ فقدان بعض الوزن سيساعدني، والتوقّف عن تناول كلّ ما اسمه وجبات سريعة شهيّة، هل تلك حياة؟ سألته، أخبرني أن أمشي مع يوجين، لكن المشي لم يمنع الجلطة التي أماتته، لذا توقّفت عن المشي، لم أستطع حمل نفسي على المشي وحدي.

أنا وحيدة، لا مفرّ من ذلك، تألّمتُ وحدي، كان ألمًا جسديًا. غدت الليالي هي الأصعب بعد أن ذهب الطاهي والمساعدون إلى بيوتهم، أحيانًا أتّصل بأوبياجيلي بعد تناول العشاء، غير أنّي لا أستطيع البقاء على الهاتف طويلًا؛ إذ إنّه مكلفٌ ويثير حفيظة إيما. طلبت من الطاهي مرّة أن يشاهد قناة CNN معي - كريستين أمانبور - أخبار العالم، كان رجلًا في الخمسين ونيّف من عمره، ويعمل لدينا منذ أكثر من عشر سنوات، من الصعب مشاهدته يشعر بعدم الراحة، وهو يجلس على طرف الأريكة، ويجيب عن كلّ سؤال منّي عن أولاده في لاغوس بكلمةٍ واحدة. كانت قدماه تطقطقان على طرف السجادة المركزية

الجميلة الباهتة التي اشتراها يوجين من كانو أوّل مرّة عاد فيها من الحرب. توقّفتُ عن توجيه الأسئلة إليه، كما أني شعرت أنّ أفام متعبٌ جدًّا بعد العودة من العمل، لذا لم يكن لديّ قلبٌ لأتحدّث معه طويلًا على الهاتف.

من المفاجئ الشعور بأنَّ يوجين قد ترك كلّ ذلك الفراغ. أنّه مهمٌّ إلى تلك الدرجة. كنت أحصل على ما أحتاج، فهل يحصل يوجين على ما يحتاج؟ سأل وحشُ الحقيقة، كان أنانيًا، قال الجانب الآخر من شخصيتي، الجانب الذي يبرز حين تتجلّى أمامي خياراتٌ صعبة، وعليّ اتّخاذ قرار. لكنّكِ كنت كذلك أيضًا، قال وحش الحقيقة، كان أمرًا ضروريًا، كان الجواب، صار لديّ ولد، وصار لديه ابن، وفي النّهاية صرنا أصدقاء.

لفترةٍ طويلة، كنّا أيّ شيء عدا أصدقاء. لم نكن أعداء، ولا عاشقين أيضًا، بدلًا من ذلك، كنّا - مثل الكثير من أصدقائنا - مجرّد والدين مشتركين، شركاء سكن، نقدّم صورة الشّراكة الضّرورية للمناسبات الاجتماعية، ونلعب الدّور الذي قرّره المجتمع على كلٍّ منّا في إطار الزّوجية، لكن حتى تلك الشّراكة الهشّة كانت مهدّدةً بالانهيار عندما دخل في علاقةٍ مع موظّفةٍ جديدة.

لم تشكّل العلاقات مشكلةً من قبل، كانت دومًا جزءًا من زواجنا من جهته. أمّا أنا، فقد كنت أفتقد الطاقة للحبّ والدخول في علاقة جديدة، أو ربّما الخروج من علاقة. يكفيني زواج واحد، إلّا أنّ يوجين - وحسب ما بدا لي - لا يستطيع التخلّص من حاجته للمطاردة والتملّق الذي يظهر مع كلّ علاقة. وصلتُ مرحلة اللّا مبالاة تلك بشقّ الأنفس؛ لديّ ولدٌ واحد، وثمّة خوفٌ كامنٌ من أن يبحث يوجين عن ولدٍ آخر في مكانٍ ما، لكن عندما وصلتُ إلى هذا الانعزال، كان حقيقيًّا. حتى مجيء ماكو.

عندما جاءت ماكو، كنتُ مديرة مدرستي، وأفام دخل حديثًا مدرسةً

داخليّةً تحت إصرار يوجين. تسيرُ الحياة وإن من دون إثارة؛ صار يوجين أشيب الشعر، وظهر له كرش، وصار لحيمًا في كلّ مكان، بدا مثل أيّ رجل إيبو ناجح وفي منتصف العمر، ويعرف مكانه في هذا العالم، وتأكّد من أنّ الجميع يعرفه. كانت أعراض المرض - الفجور أو الغيرة حسب موقفك مع أيّ طرف - عبارة عن مكالماتٍ ليليةٍ خفيّةٍ متأخّرةٍ في غرفٍ أخرى، كنت أعرف أن الفجور اسم يوجين الأوسط، لكنّه حرص ألّا يجلبه إلى البيت، لكنَّ الأمر مختلفٌ هذه المرّة، فما الذي جعله كذلك؟

عندما ذكرت ما يحدث لأوبياجيلي، رفضته.

كانت تعرف طرقهُ المُلتوية.

قالت بطريقة مطمئنة: "دائمًا ما يعود إليك، فلماذا القلق؟"

"لستُ متأكّدة، يبدو الأمر جدّيًا أكثر، المكالمات الهاتفية في منتصف الليل، كما أنّه قد نام خارج البيت في الأشهر الستة الأخيرة أكثر بكثير ممّا فعل طيلة مدّة زواجنا، لا ينام جيّدًا، كأنّ سريره فجأة صار يسبّب له الحكّة."

ربما عليك أن تعرفي هذه المرأة. اقترحت أوبياجيلي بنبرةٍ حذرة.

لم يستغرق الأمر منّي طويلًا لأعرف، كانت متدرّبة، تؤدّي عمل السّنة الإلزامي في إحدى شركاته.

"عمرها واحد وعشرون أو اثنان وعشرون عامًا." أخبرت أوبياجيلي.

قلتُ بانفعال: "عمّ يتحدّثان؟" أردفت: "أوه، لا بدّ أنّك تعتقدين أنّي مجنونة، لماذا عليهما أن يتحدّثا في حين لديهما أشياء أهمّ يفعلانها؟"

لم تضحك أوبياجيلي، فقط قالت: "خُذي الأمر ببساطة، سيمرّ بسلام مثلما مرّ كثير غيره."

أخبرني حدسي غير ذلك، هذه العلاقة مختلفة.

شعرتُ برغبة يوجين في الخروج من المنزل، في أن يكون في أيّ مكانٍ إلّا بقربي، حتى علاقاته الاجتماعية، واجتماعات الروتاري، واجتماعات القرية، واجتماعات الفرسان في الكنيسة، واجتماعات الأولاد الكبار، تلاشت في هذا الوجه المتحمّس لشيء آخر.

ذات يوم، علمت أنّ لدى يوجين اجتماعًا مع المحافظ، فذهبت إلى المكتب لألقي نظرةً على الفتاة، مثل شخصيةٍ في رواية تجسّس. دخلت وسألت عن يوجين، اهتزّ كيانها اهتزازًا واضحًا حين قدّمني المدير لها.

كانت طويلة، وبشرتها فاتحة، لن أقول عنها جميلة؛ إذ كانت تضع الكثير من المكياج بالنسبة لفتاةٍ في عمرها.

حدّقت فيها، سجّل عقلي وربّما ملامحي أيضًا الرّعب؛ كانت حاملًا، بين الثلاثة والستة أشهر، وما من طريقةٍ لمعرفة ذلك بالتّحديد.

صوتها ناعمٌ حين قالت "طاب نهارك، مدام." قبل أن تختلق حجّةً سريعةً وتهرب مع ملفّاتٍ بيديها.

إنّها حامل، قلتُ لأوبياجيلي، وإنّها تحافظُ على الطّفل، وسمح لها أن تعمل في المكتب ويعلم الجميع أنّهما ينامان معًا.

لماذا؟ أردتُ أن أعرف، لكنّي أعرفُ من قبل، وصديقتي تعرف كذلك.

في آخر مرّة، تزوّج يوجين من المرأة التي قالت له إنّها حامل، لقد تزوّجني، هل سيفعل معي ما فعله مع أونيمايشي؟ أردتُ أن أصرخ.

اختصرت أوبياجيلي المسألة لي: "لا تدعي ذلك يحدث، لا تدعي يوجين يتزوّج منها."

"لا"، قلت، الأمر واضح. جلسنا في غرفة نوم أوبياجيلي، ووضعنا خطّة، ومن ثمّ عدت إلى البيت.

عرفنا أولًا أمّ الفتاة، ثم زرناها، كانت عاملة نظافةٍ في الجامعة، هل يوجين، أكثر الرّجال سطحية، يعلم ذلك، أنّ حماته المستقبلية عاملة نظافة؟

بدا واضحًا حَرَج المرأة من رؤية امرأتين أنيقتين ماكثتين في غرفة جلوسها الصغيرة جدًّا ذات المقعدين، ظلّت تعدّل حزامها كما لو أنّها تريد أن تُبقي يديها مشغولتين.

عندما طلبت منّا أن نجلس، رفضنا، تركتني أوبياجيلي أتحدّث معها، أخرجتُ مغلفًا ووضعته على طاولة الفورميكا المتقشّرة. لقد جئت ومعي مبلغٌ ماليٌّ كبير، يعادل راتبي أنا مديرة المدرسة لعامٍ كامل.

"ابنتك تنام مع زوجي." قلتُ لها صراحة.

حدّقت بي، من دون أن يظهر على وجهها أيّ تعبير.

سررت أنّها لم تُنكر مطلقًا. دخلت في الموضوع الذي جئت لأجله مباشرة: "لن أسمح لها أن تتزوّجه، أخبريها بذلك، سأفعل أيّ شيء، أيّ شيء، لضمان ذلك.

عندما استطاعت المرأة أن تتكلّم، قالت ببساطة: "يريد أن يتزوّجها."

كانت نبرتها نبرةَ تحدٍ، لكنّي استطعت رؤية الشّكّ في عينيها، لم أعرف هل هو شكٌّ من وعد يوجين؟ أم شكٌّ من أنّها فكرة جيّدة، لكنّي استغليت ذلك الشّكّ الطفيف.

"يفعل زوجي ذلك مع الفتيات." جازفت وقلتُ بأكثر نبرةٍ واقعيّةٍ استطعتُ حشدها: "كما تعلمين، لكلّ رجل نقطة ضعف؛ بعضهم الشّرب، وبعضهم التدخين، وبالنسبة لزوجي، إنّها الفتيات، اليوم هي ابنتك، وغدًا فتاة غيرها، لقد تحمّلتُ ذلك، وسأظلّ أتحمّل ذلك، لكن ما لن أتحمّله هو رؤية امرأةٍ أخرى في بيتي، أنا مستعدة للموت، وطالما أنّي مستعدة للموت، من الأفضل

للفتاة الأخرى أن تكون مستعدّةً أيضًا، لن يتزوجها."

"إنّه ليس خطأ ابنتي، لا، ليس خطأها، هو من ظلّ يلاحقها وخدعها".

"إنّها صغيرة، لا خلافَ في ذلك، كنتُ مستعدّةً لأن أسامحها إن تركت العلاقة، إنّها لا تفهمُ الرّجال هكذا، ليلة الأمس، أخبرني كلّ شيء، وطلب منّي أن أسامحه." قلت ببرودة مدروسة: "إنّها ليست المرّة الأولى، وعلى الأرجح لن تكون الأخيرة، سأسامحه، لكن قولي لابنتك إنّها شابّة، وستتزوجُ شابًّا، لا رجلًا كبير السنّ."

"لكنّها حامل." قالت المرأة كأنّها تنوح، اتّضح لي الأمر حينها، لم تكن مهتمّةً في التّمسك برجلٍ ثريّ، خوفي الأكبر.

"سآخذُ الطفل."

"هل تأخذينه؟ لا تريدين منها أن تتخلّص منه؟ أرادت التخلّص منه، لكنّه هدّدها".

بدا النّصر يلوحُ، خطر لي. "حذّرتها، قلتُ لها لا أريد مشكلةَ الزوجة الأولى، لا أريد مشكلة"، لم أجد صعوبة في إفهامها.

"قلتُ إنّي مستعدّة لأخذ الطفل." تابعت: "لديّ ولدٌ واحدٌ فقط، وهو بالغٌ تقريبًا، أستطيعُ أن أربّي واحدًا آخر. تسلّمني الطفل وتكون حرّة، مع الزمن، ينسى الناس وتتزوّج، إنّها فتاةٌ جميلة، تستطيع أن تبدأ حياةً جديدة، وتتزوّجَ من رجلٍ قريبٍ من عمرها، لكن يجب ألا تراهُ ثانية".

"ماذا تقول له؟"

"لا شيء، أنا سأقول له بنفسي، يجبُ ألّا تراه ثانية."

جاء يوجين في الساعة الحادية عشرة والنصف في تلك الليلة. كنتُ جالسة أنتظره في غرفة الجلوس في الطابق الأرضي، الأمر الذي لم أفعله منذ

سنوات زواجنا الأولى، بدا مرهقًا، ولأوّل مرّة بدا أكبر عمرًا من أيّ وقت مضى، ربما قالت له الفتاة، أو أمّها، أخبارًا مزعجة، لم يكن ثمّة مجالٌ للتّعاطف معه، لقد جنى ذلك على نفسه وعليّ.

"أهلًا وسهلًا"، قلت.

ذُهل لرؤيتي، لكنّه سرعان ما استجمع قواه.

"جولي، مازلتِ مستيقظة؟ ما كان ينبغي أن تنتظري إلى هذا الوقت."

"انتظرت." قلتُ ببساطة "اجلس رجاء"، بنبرةٍ لا تقبل الجدل.

جلس.

"أعرف أنّك كنت مع تلك الفتاة."

"أيّ فتاة؟"

كدت أضحك، حتى أعقل الرجال يصيرون مثل الأولاد حين يُفتضح أمرهم.

"أنت تعرف أيّ فتاة، رجاءً لا ترفع صوتك، لا نريد إيقاظ الخَدم."

"لا أعرف عمّ تتكلمين!"

"بل تعرف، اسمها ماكو، لا تجعلنا نبدو مثل الأولاد، قد تكون هي صغيرة، لكن أنا لا، أعرفُ أنّها حامل."

"نعم، هي كذلك." قال بعد توقّف، "وسأتزوّجها."

نظر إليّ والحزم مكتوبٌ على وجهه.

"لا، لن تفعل." أجبتُ بهدوءٍ لم أشعر به. "ماذا ستقدّم لفتاةٍ ستبحث عن شابٍّ حالما تشعر بالملل معك؟ لنتناقش بجدّية يا يوجين، ليست من مستواك، لا تستطيع إظهارها في أيّ مكان."

"لكنّها حامل بابني."

"أعرف." ذكّرته، "تلك ليست مشكلة."

"لن أترك ابني." شدّد كلّ كلمة، سمعتُ رنين التأكيد فيها.

"لقد قلت لا توجد مشكلة، سنربّي ابنها، سأربّي ابنها مثلما يجب أن يتربّى، أي ابن لعائلة أوبيتشينا، سننسى أن هذه الحادثة المأساوية قد حدثت أساسًا."

وكان ذلك ما كان، رأيت وجهه يهدأ وبدأ يرتاح، أردتُ أن أتحدّث بسخرية، كان ثمّة حديثٌ أكثر بالطبع، لكن عن التفاصيل لا أكثر، كيف سنعتني بالفتاة في تلك الأثناء، وكيف سنحضر المولود إلى العائلة.

لم يكن الأمر بتلك السهولة، تركني يوجين صباح اليوم التالي وذهب إليها، كما فعل معي من قبل، وأخذ نبيذ النخيل إلى قريتها حيث قبلوه، ظننتُ أنّي سأموت من العار والإهانة.

بعد ذلك، صار يوجين يأتي إليّ في بعض الأحيان لإغاظتي، ليتبختر في المنزل ويذكّرني أنّه مازال منزله، وأنّه يستطيع أن يعيش أينما يريد، معي أو مع أونيماتشي أو مع ماكو، في الماضي، لم يكن أحد يتوقّع أن يتزوّج رجلٌ غنيّ مثله زوجة واحدة أو اثنتين حتى، ولم يكن ولدٌ واحدٌ يكفي، يظنّ المرء أنّك ستكونين سعيدة من أجلي، قال لي، أحيانًا كنت أصرخ في وجهه، وأحيانًا كنت أشفق عليه وأدفعه إلى الغضب بسبب تعطّفي، تحمّلت خمسة شهور من الجنون والحزن، أخطّط من أجل ميراث ابني، خمسة شهور بدت كأنّها عمر.

لكن تلك انتهت أيضًا ذات يوم.

ماتت ماكو وابنتها أثناء المخاض، صُدمت، ظلّ يوجين فترة حزينًا لا يتقبّل العزاء، لكنّه نجا من ذلك، وكذلك زواجنا.

تجاوز زواجنا محاولته إهانتي، وتجاوز تقلّبه المستمرّ، كنتُ دائمًا أذكّره أنّي أمّ ابنه الوحيد، طويت مرحلة جنونه القصيرة كلّيًا لدرجة أنّي صرت أجد

صعوبة في تذكّر شكل ماكو بالضبط، أو كيف استنزفت غضبي وخوفي، وجدت أنّ الغفران أسهل من المرارة للدماغ والنفس والروح وحتى الجسد، تمنّيت لو عرفت ذلك عندما ماتت أمّي منذ سنوات طويلة خلت، المغفرة لنفسي على خذلانه، المغفرة له على ما كان عليه.

عندما مات يوجين، وبرغم عيوب زواجنا، اعتقدت أنّي أريد أن أموت، مررتُ بأيّام ضياع، قال الطبيب إنّي أعاني من الاكتئاب، أليس ذلك ما يعاني منه الناس البيض والناعمون؟ أردتُ أن أعرف، يعلم الربّ أنّ بشرتي بنّية، وتصبح أدكن مع التقدم بالعمر، أمّا بالنسبة للقوّة، فابنة مدير مدرسة وزوجته - التي أصبحت هي نفسها مديرة - لم تجرؤ على الاعتراف بالضعف من أيّ نوع كان، ألم تمرّ أمّي - أقوى امرأة عرفتها - بمثل هذا حين مات أخي؟

عندما خرجتُ من حالة الضياع، أصبحت أكثر إدراكًا بقدري بالفناء من أيّ وقت مضى، لكن لم أستطع تبنّي ذلك الوعي، لم أركع متعبدةً عند مذبح الخلود، عند مذبح السماء، مدركةً أنّ الحياة مهمّة، أردتُ أن أعيش، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وحيدةً، لكنّي لم أشأ أن أموت. الآن، الأسى يجيء ويروح، تاركًا في أعقابه عدم يقين بشأن متى وكيف يعود. أحيانًا يعود مع حزنٍ ودموع، وأحيانًا رفيقه الغضب والمرارة.

وأنا جالسة أفكّر في حزني، سافر فكري إلى نوابولو، كان ثمّة شيءٌ في حضورها، نظرتها للحياة، تحمّلها، شيءٌ يجذب المرء لها.

لم أفكّر بها على أنّها ابنة، لكن لم يسبق أن كان لي صديقة شابّة أيضًا، لهجتها الثّقيلة غير المثقّفة، التي كذّبت ملابسها الأنيقة، حتى مساومتها على الأسعار عندما ذهبنا إلى السوق لشراء القماش للعرس دلّتني أنّ الحياة لم تكن متساهلةً معها أبدًا. "لا تعرفين معنى المعاناة"، سمعتها تقول لابنتها على الهاتف

مرّة حين اشتكت لها من الواجبات الكثيرة في المدرسة، واجبات كثيرة حتى إنّ معلّميهم في المدرسة أشفقوا عليهم. "هؤلاء الذين يشفقون عليكم لن يساعدوكم في المدرسة." واجهت نوابولو الحياة بقوّة، نظرت إلى الحياة وقالت: "من يهربُ من خروفٍ، سيهربُ من أسد"، وكانت مصمّمةً على النّظر إلى الأسد وجهًا لوجه. تستيقظ كلّ يوم، تصل إلى العمل باكرًا، تعمل بجدّ مثل الخياطين الآخرين وأكثر منهم، تعامل عمّالها بحزمٍ ولكن بلطف، باختصار، كانت حيّة، وتمتلك شيئًا ما لافتًا للنظر.

فكّرت في دعوتها إلى البيت، ربّما يوم أحد، نتناول الغداء، وعندما يتّصل أفام، كما يفعلُ عادةً بعد الغداء، سأعطيها الهاتف لتُلقي عليه التحية، يجب أن يمنحه ذلك ما يكفي للتفكير، كلّما فكّرت في ذلك أكثر، وجدت نفسي أتّفق مع نفسي أكثر، سيكون شيئًا أتطلّع إليه.

الفصل العشرون
نوابولو

عندما استيقظتُ صباح هذا اليوم، لم أتّبع روتيني اليومي، بل اتّجهت صوب المرأب الذي حوّلناه إلى غرفة عمل لي، فاليوم هو الموعد النهائي لملابس أوبيتشينا.

كان يجب أن تجهز منذ البارحة، غير أنّ أكمام اثنتين من البلوزات لم تعجبني كثيرًا، أحضرتهما معي إلى البيت، واستيقظت باكرًا لأرى بدقّة ووضوح

دخلتُ الغرفة، وبسرعة فككتُ الأكمام، وبدأت العمل على ماكينة الخياطة.

أردت أن أقدّم لها أفضل ما أستطيع، كان العرس بعد سبعة أسابيع، البارحة فقط، سخر زوجي منّي وتساءل: إن كنت قد كرّست مثل هذا الاهتمام لملابس أحدٍ غيرها غير ملابس أولادي.

"حتى إنّك لن تذهبي إلى هذا العرس." قال.

"سألتني إن كنتُ أستطيع أن أحضر العرس." فاجأهُ ذلك، وأجبتُ قبل أن يصوغ سؤالًا: "بالطبع، لن أذهب، لا أستطيع تحمّل تكاليف ذلك، ولن أسمح لها أن تدفعَ عنّي، بأيّ صفةٍ سأذهب؟ صديقة والدة العريس؟" ضحكتُ وضحك معي.

قلت بعد ذلك: "لو أنّ أمّي على قيد الحياة، لبذلتُ ما بوسعي لتظهر بأجمل ما يكون في عرس ابنها".

نظر إليّ زوجي نظرة تأمّل، تمنّيت لو أعرف بماذا يفكر!

والآن دخل غرفة الخياطة حيث أخيط الأكمام.

"إنّك مستيقظ باكرًا." قلتُ.

انحنى وقبّل خدَيّ، ثم فركهما بيديه الخشنتين قليلًا، شعرتُ بالدّفء يسري في جسدي، رغبتُ في أن أجذبه نحوي، لكن الوقت ليس مناسبًا، سقطت قطرات ماء من شعره الأفرو المبلّل من الاستحمام، الذي ما زال على ذات التسريحة منذ الثّمانينات حين كنت خادمة، وهو صبيٌّ يعيش الحياة الحيوية للرجل.

قال بنبرة مشاكسة: "نعم، لستِ الوحيدة التي تستمتع بهدوء الصّباح الباكر.".

ابتسمت له، لطالما أمزح معه أنّه منذ غادرت ابنتنا أونيني البيت إلى المدرسة الداخلية، صار البيت هادئًا للغاية، هدّدتُ بإنجاب طفلٍ آخر لملء البيت بالضوضاء، لكن يعرف كلانا أنّ الطريق لذلك أُغلق منذ سنوات، صرت أجد إنجاب الأطفال متعبًا للغاية.

ذكّرني إنجاب الأولاد بإزينوا، أوّل سنة أو سنتين، ثلاث سنوات مع تشوكوميكا كنت مفرطة الحرص، في الواقع لم أستطع أن أبعد عينَيّ عن أيٍّ من الطفلين. كان إيفيتشي يقول لي بحذرٍ ولطفٍ إنَّ خوفي غير منطقيّ، ثمّ صار يقولها بأسلوب فظّ، لكن لم أستطع إفلات خوفي، أو ابني، حتى إنّي كنت آخذه معي إلى الحمّام، ما كنت أستطيع أن أسمح لأحد أن يعتني به، لذا لم أستطع العمل ستّ سنوات، كنت أخيط ليلًا حين ينامون كي أعتني بهم نهارًا، وبالتالي لا أنهي العمل وفق المواعيد، وخسرتُ الزبائن، عانينا من مشاكل في زواجنا، لكن بسبب طبيعة إيفيتشي، وجدنا طريقةً للعيش بسلام، وإن لم تكن بسعادة.

بعد إنجاب أونيني، أخبرت إيفيتشي أنّنا لا نستطيع إنجاب المزيد من الأولاد، كان مصمِّمًا على إنجاب المزيد، فهو ينحدر من عائلةٍ كبيرة - واحد من الفروقات الكثيرة بيننا - قال إنّه يريد خمسة أولاد، لكن في هذا الأمر، المزيد من الأولاد، لم أستطع المساومة، لا أستطيع أن أربط خمسة أولادٍ على خصري، وهذا ما كنت أرغب في فعله مع أولادي؛ أن أبقيهم قريبين منّي.

ذهبت إلى الطبيب، ووضعت اللّولب، عدتُ إلى البيت بوجه تحدٍّ لأواجه زوجي.

ليس ثمة شيء يجعلني أغيّر رأيي، لكنّي أفهم وجهة نظره: هو يحبّ الأولاد، وكان أبًا حنونًا للغاية، إلّا أنّي لم أستطع أن أتخيّل نفسي أعيش تجربة الحمل من جديد، والمراقبة الشديدة، وتسارع القلب ودبق اليدين، كانت المسألة الجدّية الوحيدة التي واجهتنا في زواجنا خلال واحد وعشرين عامًا، واجهنا خطر الانفصال بسببها ولا شيء غيرها، لكن زوجي غيّر رأيه، عندما حان وقت ذهاب تشوكوميكا إلى المدرسة الثانوية، لم أرغب في أن أرسله إلى مدرسةٍ داخليّة، أصرّ إيفيتشي على ذلك، تذكّرت شجاراتنا حول المزيد من الأولاد، والتعاسة من التّعب والسّهر طيلة الليل في مراقبتهم.

"دعينا نجرّبها سنة." قال إيفيتشي، أحبّها ابني، وظلّ فيها خمس سنوات إضافية، لم أظنّ أنّي أستطيع تحمّل ذلك، لكنّي تحملت، عندما حان وقت ذهاب أونيني، كان الأمر ما يزال صعبًا، غير أنّي عرفت أنّي أستطيع التحمّل هذه المرّة. أتذكّر كيف تفاجأت، وحتى تأذّيت، أنّ بوسع أولادي أن يعيشوا من دوني، بل أرادوا أن يعيشوا بعيدًا عنّي أحيانًا. وضعت مشاعري في الحقيبة التي أضع فيها الأمور التي تحيّرني في هذا العالم، وتابعت حياتي.

هل أنتِ راضية عن البلوزات الآن؟ سألني زوجي، وانحنى ليلقي نظرة.

"نعم، إنّها أفضل بكثير."

"أنت عبقرية، متأكّد من أنّها ستحبّها وتعود من جديد"، قال بأسلوب الإعجاب الذي يميّزه، دومًا يستخدم صيغ الإعجاب ليصفني لأهله، وشركاء العمل، وكلّ من يلتقيه. اسأل زوجتي، يقول لكلّ من يطلب استشارته في خلافٍ عائلي، تقول زوجتي كذا وكذا، يقول لمن يسبّب له أولاده الأسى، يطلب رأيي في التجارة، ويأخذ بنصيحتي بخصوص التركيز على تجارة الحواسيب التي كان مهتمًّا بها إن تقاعد من الوظيفة، لكم أن تتخيلوا صدمتي، أخذ كلامي على محمل الجدّ، وشكرًا للربّ، ليس لدينا أيّ سبب لنندم على ذلك.

لقد تحقّقت قصّتي الخيالية مع إيفيتشي، لم تكن القصّة البرّاقة، الأمير ينقذُ الأميرة ويعيشان للأبد عيشةً هنيئةً مثل تلك الموجودة في كتاب إيكينا، كانت - على علّاتها - قصّة حبٍّ واقعية.

سأل: "هل ستسلّمين الملابس بنفسك؟"

كنت أسلّم الملابس إلى بعض زبائني، الكبار، الأغنياء، من طلبوا ذلك، من طلبوا إيصالها في وقت حدثٍ مُعيّن أو حفلة، عادة أرسل أحدهم ليوصلها، لكن أحيانًا أوصلها بنفسي. أمّا بالنسبة لصديقتي السيدة أوبيتشينا، بالتأكيد فسأذهب بنفسي إلى بيتها، وأتحقّق من ملاءمتهما لها، لقد اتّصلت بها وأجريت الترتيبات.

"نعم، هذا المساء، في طريق عودتي إلى البيت."

"حسنًا، أنا ذاهبٌ إلى العمل، إيزيغبو آم[48] ، أتمنّى لك يومًا سعيدًا، أراكِ مساء." تعانقنا ووضعتُ رأسي على كتفه، برغم أنّه أقصر منّي، يا إلهي! إن كان ثمة إله، فقد كافأني على آلامي بسخاء.

(48) (Ezigbo m) تعني عزيزتي بلغة الايبو.

غادرت المحلّ في الساعة الرابعة والنصف، وقُدت السيارة نحو بيت السيدة أوبيتشينا، لقد تغيّرت المنطقة في إنوغو التي قضيت فيها سنواتي الأولى في العمل خادمة؛ صار فيها منازل أكثر، ومشاتل ورود أكثر، وطرق معبّدة أكثر، تساءلت إن كانت مدرستي ما تزال هناك، إن كان السيد والسيدة سيعرفانني وأنا أقود سيارتي الخاصّة.

تساءلت أين هما السيّد والسيدة الآن؟ قالت تشيدينما إنّها سمعت أن إيكينا يعيشُ الآن في الخارج، في الولايات المتّحدة، عاش والده وحده في لاغوس، حيث نُقل قبل سنوات، بينما تعيش والدته بمفردها في إنوغو، فكّرت أنّها ربما تخلّت عن التّنظيف والمسح والتعامل مع نوبات غضبه، هذا جيّد لها. تساءلت عمّا إذا كنت سأرى إيكينا مرّة أخرى، إنّها الحياة، فكّرت.

وجدت شارع السيدة أوبيتشينا، كانت تصطفّ على جانبيه المنازل الفخمة، برغم أنّ طلاء بعضها مقشّر، وحدائقها معشبة، ممّا يدلّ على أنّ الأسرة قد مرّت بأوقاتٍ عصيبة، أو أنّ الأطفال انتقلوا إلى لاغوس أو لندن، ولم تكن لديهم حاجة تذكر لاستخدام منزل في إنوغو. عندما وجدت رقم بيتها، استعملت زمّور السيارة وانتظرت، فتح رجلٌ ربّما في الخمسين ونيّف من عمره البوّابات، هل لديه عائلة؟ تساءلت، هل كان قادرًا على إطعامهم من راتبه؟ قدتُ سيارتي نحو منزلٍ آسرٍ كبير، قديم الطراز قليلًا، محاطٍ بنوع الزهور الذي تراها فقط على التلفاز، في الزاوية مقصورة حديقة تبدو وكأنها تقول للناظر "لا تقلق، لا تقلق، كن سعيدًا." كما ورد في الأغنية القديمة، أيًّا يكن من بنى هذا المكان، فقد أراد أن يعرف القاصي والدّاني بوفرة ماله.

أوقفتُ سيارتي بالقرب من البوّابة، وسلكت الطريق نحو المدخل، ومعي أكياس الملابس، فتحت امرأةٌ الباب، بدا من لباسها أنّها طبّاخة أو مساعدة،

ابتسمت حين أخبرتها أنّي أحضرت ملابس للسيدة أوبيتشينا إذ كانوا يتوقّعون مجيئي. أدخلتني إلى غرفة جلوس، وأشارت لي أن أجلس، بينما تذهب وتخبر المدام، كلّ شيء حولي يدلّ على الفخامة والرفاهية؛ رائحة ملطّف الجوّ بالورود، الحاملة الخشبية والمرآة بجانب الباب، الأثاث ذو المظهر العربيّ، لكن أكثر ما أثار اهتمامي هي الصّور على رفّ الموقد، وقفتُ لأحظى برؤية أقرب، رجل، لا بدّ أنّه كان زوجها، هي نفسها، أصغر بكثير مما هي عليه الآن، شابّ، بماذا كان بارعًا؟ تساءلتُ وأنا أقترب لأضع يدي على الصّورة، لكن، وقبل أن أتمكّن من ذلك، دخلت السيدة أوبيتشينا.

"مساء الخير عزيزتي." جاء صوتها الناعم مثلما هو دومًا، ومع ذلك تشعر بقوّة الفولاذ فيه.

مدّت ذراعيها للمعانقة، عانقتها وتشبّثت بي لثانية، كانت ترتدي ملابس أقلّ رسمية من تلك التي رأيتها فيها آخر مرّة، بلوزة كبيرة وبنطال جينز أزرق، بدت عجوزًا عصريّة - خطر لي - وبانت ابتسامتي الداخلية على وجهي.

قلت باحترام: "مساء الخير مدام."

"سعيدة جدًا لرؤيتك في بيتي، وأخيرًا." تلميحٌ لطيفٌ إلى أنّي رفضت كلّ محاولاتها لجعلي أحضر إلى بيتها.

"ماذا أقدّم لك؟" سألت وهي تضغط على جرس على الحائط، أليس رائعًا أن تحصل على المساعدة بلمسة جرس؟ ربّما سأضع واحدًا في البيت من أجل بناتي، تخيّلت إيفيتشي يسخر من سخافتي.

"لا شيء مدام."

"آه، آه." اشتكت، "لا يمكنك أن تأتي إلى بيتي وتغادري من دون تناول أيّ شيء، إن فعلتِ ذلك، فسأتوقف عن تناول الأوكبا في محلّك." هدّدت بتهكّم.

انفجرتُ ضحكًا، لقد عرفت السيدة أوبيتشينا مَنْ أفضل بائع أوكبا بالنسبة لي - أمّ تشيبيكي - من كانت تعمل أطيب أوكبا في كلّ إنوغو، أحمر تمامًا مع زيت نخيل طيّب، طريّ من دون أن يكون رخوًا، وملح وفلفل بالمقدار المناسب تمامًا، قالت السيدة أوبيتشينا إنّه يذكّرها بالأوكبا الذي كانت تطبخه أمّها.

"أعتقد أنّ معدتي مضطربة." قلتُ لها بصوتٍ استرضائي.

"لم أستطع أن أتناول الطعام طوال اليوم، ولا حتى أوكبا أمّ تشيبيكي." لم يكن أمرًا مستحسنًا ألّا تأكل شيئًا في بيتٍ تزوره للمرّة الأولى.

"أخبرتُ السيد أكانو." قالت مشيرة إلى الرجل القصير والسمين الذي واضح أنّه جاء استجابةً لرنّة الجرس، "ليعمل لك حساء سمك بالفلفل طازجًا وساخنًا، ربّما نستطيع أن نضعه لها في قارورة لتأخذه إلى البيت." قالت، وهي توجّه نصف الحديث لي، ونصفه الآخر للطبّاخ.

"حسنا مدام." قال ثمّ غادر.

جلسنا في غرفة الجلوس، غرفة جميلة، وصورة آسرة لرجلٍ طويل في إحدى الزوايا، لا بدّ أنّه زوجها، كان يرتدي ملابس تنمّ عن الثراء؛ قماش رأس الأسد وطاقية حمراء، فمه كبيرٌ بعض الشيء بالنسبة لوجهه، عيناه تنظران نحوي مباشرة، لذا أدرت بصري باتجاه آخر، وقعت عيناي على صورة أخرى للرجل واقفًا مع والديه في الخارج، هل كان امتحان القبول بجامعة؟ أم دعوةً لاجتماع؟ من جديد، ذلك الشعور بالألفة، أين رأيت ذلك الرّجل الطويل من قبل؟

لاحقت السيدة أوبيتشينا عينَيّ وابتسمت، "آه، إنّك تنظرين إلى ابني أفام، الصورة عندما تخرّج من جامعة نيجيريا، منذ سنوات طويلة، هل أخبرتك أنّه كان أفضل طالبٍ في صفّه؟ درس الهندسة قبل أن يتحوّل إلى الموسيقا، كان أبوه غاضبًا." قالت ذلك عرضًا؛ من الواضح أنّ الذكريات لم تكن مؤلمة، ثم بدأت

تحكي عدّة قصصٍ عنه، جعلها البريق في عينيها تبدو أصغر سنًا، وكان سهلًا معرفة أنّه فرحتها، عرفتُ ذلك الشعور.

اقتنعت بتناول حساء الفلفل، كان حارًّا، ساخنًا ولذيذًا، بعد ذلك، ولأنّي أردت العودة إلى المحلّ لبعض العمل قبل موعد العودة إلى البيت، طلبت منها أن تلقي نظرة على الملابس التي أحضرتها.

"تعالي معي." قالت لي، وأخذتني إلى غرفة النوم، أخرجتها ولاحظتْ فورًا أنّي غيّرت أكمام البلوزات، "إنّها غير تلك التي خطتها."

"نعم، لقد أبدلتها، برأيي هذه أجمل، أخفّ، دارجة، ولكن ليست عصريّة".

أومأت برأسها، أخذت طقمًا وذهبت نحو الحمّام المجاور، عندما خرجت، أومأت إيماءة استحسان، كان الموديل؛ تنّورة حورية البحر، مع كشكشةٍ قليلةٍ في الأسفل ناسبت جسمها الكبير تمامًا، غطّت أكمام البلوزة البسيطة الجزء الثّخين من ذراعيها، وجعلت جسمها يبدو نحيفًا إلى حدٍّ معقول، بدت أنيقة، لكن من دون مبالغة.

تفحّصت نفسها في المرآة، "هذه رائعة." قالت أوبياجيلي "إنّك أفضل خيّاطة في إنوغو".

استدارت عدّة مراتٍ معجبةً بنفسها.

كان للطقمين الآخرين ردّ فعلٍ مشابه، وشعرتُ بالفخر وأنا أرى الحماس في وجهها.

قالت: "لا أطيق الانتظار لارتدائها"، "شكرًا جزيلا." نادت المرأة التي أدخلتني وطلبت منها أن تحضر محفظتها، سألتني إن كنت أقبل الشّيكات، وأجبتها بالإيجاب، كتبته بخطّ واضح ودقيق ومتّصل - مثل كتابة أستاذ -

أخذته ونظرت إليه، لقد أضافت بعض المال.

قالت: "شكرًا جزيلا." ثم أضافت: "خيّاطتي السابقة ما زال لديها آخر ملابس طلبت خياطتها منذ سبعة أشهر."

قلت: "على الرحب والسعة، مدام.".

لقد كان يومًا رائعًا.

"أنت عائدةٌ إلى ترانز إكولو؟" سألتني عندما أخبرتها أنّ عليّ العودة إلى المحلّ.

"سأزور أوبياجيلي بعد مغادرتك، لكن سائقي لم يعد بعد." عبست السيدة أوبيتشينا وهي تنظر إلى ساعتها، وهي قطعة ذهبية رفيعة غاصت في ثنايا معصمها، "يقول إنّه عالق في زحمة سير نتيجة حادث"، بدت متضايقة، "ربّما يمكنك أن توصليني إلى أباكبا، بيت أوبياجيلي؟"

قلت: "لا مشكلة مدام." ، وأنا أتساءل، كيف سيكون رأيها بسيارتي، كانت مقبولة، لكن ليست مرسيدس4 ماتيك.

كانت ممتنّة لذلك، وأخبرت سائقها على الهاتف أن يأتي إليها في منزل أوبياجيلي. نهضت بصعوبة وذهبت لارتداء ملابسها، تمنّيتُ أن تجد مساعدةً بشأن ركبتيها.

في الخارج، أرجعت مقعد الراكب الأمامي حتى تجلس بارتياح أكثر، ابتسمتْ ابتسامة شكر حين جلستْ، ركبتُ في السيارة وقدت، رأيت في المرآة الجانبية سيّارة سوداء تنطلق من جانب المبنى المجاور وراءنا، بينما كانت السيدة أوبيتشينا تشكي سائقها.

قالت: "يظنّ أنّه يستطيع أن يفعل أيّ شيء من دون عقاب." مردفةً:"عندما تعطيه السيارة في مهمّة تستغرق عشر دقائق يظلّ ساعات، كان سائق يوجين،

ولم يكن يوجين يحتمل أيّ هراء." توقّفت، ثمّ تابعت: "نعم، كلّ رجل، مهمّا كان شأنه، يعتقد أنّه أهمّ من المرأة لمجرّد وجود قضيبٍ بين ساقيه".

فكّرت بالرجل الذي قدّم لي التحية باحترام عندما كنت أمشي مع السيدة أوبيتشينا إلى سيّارتها، بدا مثل رجلٍ لديه عائلة ومسؤوليات، رجوت ألا يكون مهملًا ويفقد عملًا لا بدّ أنّه بأمسّ الحاجة إليه.

"أنا متأكدة من عودته سريعًا." تمتمت. قرّرت ألا أذهب من مفرق أوتيغبا حيث جرى الحادث، سلكت طريقًا يختصر علينا طريق بيسالا؛ طريقًا هادئًا سلكته عدّة مرّات من قبل.

تبيّن أنّ القرار كان خطأ؛ لم أستطع تفسير السرعة التي قطعت بها سيارتان الطريق علينا، سيارة دفع رباعي وسيارة سيدان، كلتاهما سوداء اللون، بدت واحدة مثل تلك التي رأيتها تنطلق وراءنا عندما غادرنا منزل السيدة أوبيتشينا، لم أستطع تفسير كيف لوّحوا بأسلحتهم في وضح النهار وكدّسا امرأتين، واحدة الأطول في شارعها، والثانية ربّما الأضخم في شارعها، في سيارة الدفع الرباعي، لم أستطع تفسير كيف كان منظر البنادق والوجوه العابسة للرجال الشبان يُفقد الحبال الصوتية وظيفتها، توقّعت أنّهما سيحشران جسمي الطويل في صندوق سيارة، كما سمعت في القصص، لكنّهما دفعانا إلى داخل السيارة، بسرعة عصب الرجل الذي يجلس بجانبي عينَيّ وكمّم فمي، افترضت أنّهما فعلا الشيء ذاته للسيدة أوبيتشينا إذ سمعتها تقاوم، كانت مقاتلة، لكنّك لا تقاوم رجلًا مسلّحًا ببندقية بيديك العاريتين، تلك حماقة.

استغرق الأمر كلّه بضع دقائق، ومثل أفلام التلفاز؛ جزءٌ منكَ يشاهده بذهول، لكن الجزء الآخر منكَ يعلم أنّه حقيقي، ويتعرّف على نوع الخوف الذي لم يعرفه من قبل، أتذكّر فقط تفكيري بأولادي وإيفيتشي.

الفصل الحادي والعشرون

جولي

مكتبة
t.me/soramnqraa

سمعتُ بالتأكيد عن أناسٍ يتعرّضون للاختطاف، والشرق كنزٌ دفينٌ لمَن يسعون لاختطاف الآخرين مقابل المال، اختُطف رجل في الشارع المقابل، اتّفقنا جميعا أنّه جلفٌ ومتفاخر، يتباهى بأمواله عبر مواكب سيارات الدّفع الرباعي، ورجال الشرطة المتنقّلين، وحفلاته الصاخبة التي تستمرّ طيلة الليل، ظلّ مخطوفًا عدّة أسابيع، ثم أطلق سراحه، مع أنّه لديه الكثير من الأموال، إلّا أنّ زوجته لم تحصل على شيء؛ إذ كانت من أولئك النساء اللواتي يرفض أزواجهن أن يعملن. طمأنتني تلك القصة الآن، لقد استغرقت أسابيع، ومع ذلك حافظ الخاطفون على حياة المخطوف، وأطلقوا سراحه في النهاية، حاولت ألّا أفكّر برجلٍ آخر رُبط وتُرك في صندوق سيارة، ووجده أهله ميتًا بعد ساعات من ذلك.

قبل موت يوجين، حصلنا أثناء ندوة لمجموعة النساء في الكنيسة على قائمة بالاحتياطات الواجب اتّخاذها؛ دقّقي في الموظفين المحلّيين، إن أمكن، صفّفي شعرك أو شعر ابنتك في البيت، لا تناقشي المعاملات المالية في الأماكن العامة، تجنّبي الطرق الهادئة، انظري حولك لتري إن كان هنالك من يلاحقك، وفكرت وقتها أنَّ على المرء باختصار استخدام الحسّ السليم. تحدّثت مجموعة الرجال التي كان يوجين يجتمع معهم عن سرطان البروستات، المخاطر، والفحص، ومتلازمات الاستثارة الجنسية المستمرّة، وخيارات العلاج، سألني من قبل عن رأيي بالدفع للشرطة مقابل الحماية، أن تظلّ الشرطة معنا في كلّ مكان، رفضتُ

ذلك، لن تكون لنا خصوصيّة، وإنّ إضافة الشرطة إلى حاشيتنا ليس سوى دفع مال من غير ضرورة. ما فائدة ذلك، قلت ليوجين، غير جلب الانتباه، أوَ ليس تجنّب ذلك أفضل حين لا تريد أن تتعرّض للاختطاف؟ وافقني برغم أنّه كان يحبّ التباهي.

بدا الأمر صبيانيًّا، لم يخطر لي أبدًا أنّ ذلك قد يحدثُ لي، وفي إنوغو، حيث عشتُ معظم سنوات حياتي بعد البلوغ، يجب على الحظّ السيء أن يبحث عن غيرنا لا نحن.

كان واضحًا أنّ الخاطفين استهدفوني، سمعتُ أحدهما يسأل في السيارة هل هم متأكّدون من أنّهم أخذوا المرأة ذاتها؟ قال الآخر إنّه متأكّدٌ من ذلك، أكّد الأوّل أنّها ليست سيارتي، أرادوا أن يعرفوا إن كنتُ أنا السيدة أوبيتشينا، بإمكاني الكذب، لكنهم سيعرفون من أنا للحصول على الفدية، أجبتُ أنْ نعم، تخيّلت سماع صوت النقود، ومال مصانع أوبيتشينا ترنّ في رؤوسهم. كنتُ صيدًا ثمينًا، أعترفُ بذلك، رجوت أن تكون المطالب معقولة، وأن يُطلق سراحنا قريبًا، كم يريد شبابٌ مثل هؤلاء؟ ماذا سيفعلون بالمبلغ؟ يشترون سيارات؟ أردتُ أن أسألهم.

أزيلت عُصابات أعيننا صباح اليوم التالي، لكنّهم أبقوا الحبال التي رُبطت بها أيدينا، أمّا أفواهنا فبقيت حرّة، قال الخاطفون إنّنا محظوظتان لكوننا عجوزتَين.

أبقونا لأيّامٍ في غرفةٍ صغيرةٍ فاسدة الهواء، مطليّةٍ بلونٍ أصفر باهت، أخذوا هاتفينا، وحقيبتينا وكلّ شيء معنا، سألوا عن أرقام هواتف عائلتينا، طلب منا زعيم العصابة الامتثال، وعد ألّا يلحق بنا أيّ مكروه، قال إنّ صلواتنا ودعواتنا يجب أن تركّز على أن يحبّنا أهلنا كفاية ليلبّوا مطالبهم بسرعة،

وسيطلقون سراحنا بسرعة، ومن الممكن أن يحدث ذلك في اليوم التالي، وإلّا فإنّ الأمور قد تصير أصعب. بدا لطيفًا، لكنّه ضربني بالبندقية حين قاومتُ في السيارة، وسبّب لي كدمةً على كتفي، برغم أنّه لم يصرخ أو يهدّد كما يفعلون في أفلام نولي وود، كان رجاله يطيعونه من دون سؤال.

تمنّيت أن يحصلوا بسرعةٍ على المال الذي يريدون، تمنّيت أن نكون من أولئك الذين يعيشون ليحكوا القصّة ويرقصوا شكرًا في الكنيسة، في تلك الأثناء، فكّرت أنّه علينا تزجية الوقت، والتفكير بشيءٍ غير مشاكلنا.

"إذن أخبريني عن نفسك أكثر"، قلتُ لنوابولو.

"كيف أصبحتِ مصمّمة أزياء؟ نحن هنا، ولدينا وقتٌ طويل".

بدت متردّدة في البداية، "أخبريني أنتِ أولا." قالت، "وسأخبرك قصّتي."

بقيتُ عدّة ثوانٍ أفكّر من أين أبدأ، ثم انطلقت بدءًا من قصّة أخي أفام، ومن ثَمَّ عدتُ إلى قصّة أبي وأمّي، إنّ مشاركة قصّتي مع نوابولو جعلها تبدو ممتعة، كأنّي أعيشها من جديد.

تحدّثت عن بداية حياتي بصدق، وحذفت التّفاصيل الصّغيرة غير المهمّة.

أربكتني آراؤها التي عبّرت عنها من حين لآخر: "أليس ذلك عبئًا ثقيلًا على طفلة؟" قاطعتني عندما أخبرتها عن رغبة أبي في أن أعتني بأخي وقطّبت جبينها.

بدت قصّةً غير معقولة، لكنّي لم أفكّر بها أبدًا كذلك، مع أنّي لا أعتقد أنّها كانت غير معقولة، غير أنّي عرفت أنّ البذرة قد بُذرت، وسأقلقُ بشأنها لاحقًا، إن خرجنا من هذه الغرفة أحياء.

تحدّثت عن زواجي من يوجين بصدقٍ كذلك، رويت لها كيف التقينا والظّروف التي تزوّجته فيها، أرى هذه الأيام نساء عازبات لم يتزوّجن بعد،

وربما لن يتزوجن، إنّه خيار لا يرغب به كثيرون، لا أحد يرغب أن يعيش كذلك، لم يتغيّر المجتمع كثيرًا، لكنّه تغيّر بعض الشيء عن أيّامي تلك.

"لكن ماذا عن أونيماتشي؟ ألم تفكّري بمشاعرها، ومشاعر أولادها؟"

لم يوحِ وجهها حينئذ إلّا بالفضول، حاولت أن أجيبها قدر استطاعتي.

أخبرتها أنّه عندما صار لنا ولد، لم يكن لأونيماتشي أيّ أمل مع يوجين

لم أستطع أن أحكي بصدقٍ كيف صار عندي أفام، لذا، وبلباقة، أخذتُ استراحة، صار الوقت ليلًا، بعد قليل سيُحضرون عشاءنا المكوّن من ماءٍ وخبزٍ أبيض غير مقطّع، بل ممزقٍ ومنتزعٍ من الرّغيف، تمامًا كما انتزعونا من حياتنا. سنستريح، وستخبرني نوابولو بقصّتها غدًا.

الفصل الثاني والعشرون
نوابولو

كانت قصّة الخالة جولي مثيرةً للاهتمام، مختلفةً كلّيًا عمّا تصوّرتها؛ دافئة، أدفأ ممّا تخيلتها حين رأيتها أوّل مرّة في محلّي مرتدية نظارات شمسية من ماركة شانيل، والفستان الجميل الطويل والعطر الأخّاذ الذي يسبق صوتها. في حبسنا، انتقلنا من السيدة أوبيتشينا إلى الخالة جولي، حسب طلبها، ولم أكن مجرّد خيّاطتها، بل ابنتها أيضًا.

سمعتها تتحرّك، رفعت نظري عن قدميّ اللتين مازالتا تؤلماني من مكان القيد، رغم أنّه غير محكمٍ الآن، انتظرتني لأبدأ.

من أين يبدأ المرء سرد قصّته؟ فكّرت قليلًا، وبدأت باسمي، "أسماني أبي نوابولو لأنّه رآني مكسبًا، ربحه وفائدته، برغم أنّ أمي ماتت وهي تلدني".

"نوابولو اسمٌ جميل، الولد مكسب - هذا صحيح - الولد مكسبٌ حقيقيّ، فرحة، تقدّم في الحياة." قالت الخالة جولي.

كان ذلك رأيي أيضًا، أخبرتها كم تمنّيت أن أعرف أمّي، وكيف كبر ذلك الشعور كلّما أنجبت طفلًا؛ أخبرتها عن موت أبي، وعن زوجة أبي، وأنّهم أرسلوني إلى لاغوس للعمل.

"خادمة؟" سألت الخالة جولي، سمعت نبرةً مفاجأة، شيء من الإعجاب، منذ أمد طويل لم أفكّر بسنوات حياتي الأولى، وكان مشوّقًا أن أحيي تلك الفتاة من جديد، ربّما أرى التّصميم الكبير الذي تحدّث عنه إيفيتشي: إنّ الربّ يعمل على تحقيق غايته ويتحرّك بطرقٍ غامضة.

عندما أخبرتها بحملي، هزّت رأسها، "فتاة مسكينة، وهل أرسلوك إلى البيت؟"، جعلني اللّطف في استفسارها أرى بوضوح كيف يغيّر الزّمن كلّ شيء، ما من امرأةٍ بعمرها كانت ستقول هذا الكلام لي في ذلك الزّمن، حتى لم أستطع أن أقوله لنفسي.

أخبرتها أنّهم فعلوا، أخبرتها عن خطط زوجة أبي لتزويجي لأيّ رجلٍ عجوزٍ يمكن أن يأخذني منها، لاحقتني عيناها المتعاطفتان، عندما كدت أتحدّث عن أمّ ناثان، سمعنا أصواتًا وفُتح القفل، دخل الرئيس؛ الاسم الذي أطلقناه أنا والخالة جولي على الشابّ المسؤول.

"أهلك يستدرجونني." قال وهو يلوّح بمسدس مثل لعبة، "أهلك يستدرجونني." كرّر، "إنّهم يحاولون استدراجي لفعل ما لم أخطّط لفعله، صدّقيني، لا أنت ولا هم سيحبّون فعلي إن دفعوني لذلك."

"أنت"، قال موجّهًا المسدس نحوي، "يعتقد زوجك أنّه يساوم على لحمٍ في السوق، هل هذه قيمتك عنده؟ لحم في السوق؟ يتحدّث معي عن قروشٍ عندما أتحدّث معه عن مالٍ حقيقيّ"، وجّه المسدس نحو الخالة جولي، وقال بوقاحة: "بالنسبة لك، صديقتك المدام أوبياجيلي، أو مهما تسمّينها، تستفزّني".

أخرج هاتف بلاك بيري واتّصلَ برقم، ووضع الاتّصال على مكبّر الصوت، سمعنا صوت السيدة نواجيه: "ألو"، قالت بصوتٍ مرتعش، لم يكن الصّوت السعيد العالي الذي اعتدت سماعه، نكز الرئيس الخالة جولي. "ألو"، قالت الخالة جولي.

"جولي، هل أنت بخير؟" كلّنا سمعنا اضطرابها.

"أنا بخير، أوبياجيلي، يا ابنة أمّي". قالت بصوت منخفض.

"قولي لها إنّك قريبًا لن تكوني بخير." قال الرئيس وركلَ ساقها.

"هل آذوك؟" سألت السيدة نواجيه لاهثة.

"قولي لها إنّنا نريد المال بسرعة وإلا..."

"يريدون المال بسرعة يا أوبياجيلي، هل تستطيعين جَمعه؟ هل تحدّثتِ مع أفام؟"

"إنّي أبذل قصارى جهدي." سمعت السيدة نواجيه تقول.

"سيأتي أفام إلى هنا غدًا، سيحضر المال، إن لم يأتِ، يقول إيما إننا سنحضره."

إيما، زوجها، البخيل، هل سيحضر المال لإخراج الخالة جولي من هذا المكان؟"

"هل أنت بخير؟ هل يسمحون لك بتناول أدويتك؟ هل لديك طعام، ماء..."

وجّه الرئيس ركلةً قويّةً أخرى للخالة جولي، مما جعلها تصرخُ قبل إنهاء المكالمة.

"تحسب أنّنا ندير فندقًا هنا؟ صلّي من أجل أن يحضر ابنك نقودنا، وإلّا، لا تقلقي، ستموتين.

استدار الرئيس، وتركنا فجأةً كما كنّا حين دخل، كانت الخالة جولي تفركُ فخذها في المكان الذي ركلها بقسوةٍ عليه، تحرّكت على مؤخرتي لأفركَ ساقها وأمسحَ دموعها.

جلسنا صامتتين فترة، نفكّر بمطالب الرئيس، هل يستطيع إيفيتشي جمع المال؟ كلانا يُدير مشروعه، لكن المال لم يكن يجري مثل الماء في البيت، بالتأكيد، لم يكن في ميزانيتنا بند فدية للخطف.

في اليوم التالي، وبعد عدّة ساعات من النوم، طلبت منّي الخالة جولي أن أتابع سرد قصّتي.

"أخبريني، أريد أن أعرف، هل تزوّجتِ رجلًا عجوزًا؟"

لم أتزوّج رجلًا عجوزًا، قلت لها، جاءت امرأة مات ابنها لتفحصني، ومن ثَمّ ذهبت لتتحدّث مع أمّ نكيمديليم، حالما بدأت أتحدّث عن أمّ ناثان، وكيف أجبرت على الزواج من ابنها الميّت، رأيت لون الخالة جولي يبهت، رأيتها تنكمش.

"هل قلت إنّ اسم المرأة أمّ ناثان؟"

"نعم، لم أعرف اسمها الحقيقي أبدًا، في تلك الأيام، كلّ واحدة كانت أمّ فلان أو علّان."

ساد صمت، ثم: "وأنت من نوكينتا؟"

"نعم، مدام."

"لستُ على ما يرام." قالت ورأيت شيئًا من الخوف على وجهها.

صارت جبهتها رطبةً من العرق، ووجهها تجعّد من الألم.

صرختُ منادية خاطفينا، مَن كانوا واقفين حرسًا خارج الباب، ويدخلون من حين لآخر ليأخذونا لنقضي حاجتنا، شعرت أنّي صرخت طويلًا قبل أن يظهر أحدهم.

"رجاءً أحضر لها ماء، إنّها ليست بخير."

نظر إلى الخالة جولي وغادر، لم أسمع صوت طقّة القفل، عاد مباشرة تقريبًا ومعه ماء.

انحنى وأعطاها الماء.

أخذتُ بضع جرعاتٍ بسرعة.

قلت: "أمرٌ بسيط، بسيط."

ولّت النّضارة التي كانت ترافقها مثل عباءة، النّضارة التي كنت أظنّها من

المال والراحة، لم يعد المكياج يخفي التجاعيد، وأعطاها خدّاها الغائران منظرًا نحيلًا، كما لو أنّ القيامة قد صارت وتركت وحيدة.

"احكِ لي بقيّة القصّة." رجتني في وقتٍ لاحقٍ من ذلك المساء، بعد صمتٍ طويل، لقد عادت معنوياتها، لكنّها ما زالت تبدو متعبةً وأكبر من عمرها.

أخبرتها عن إزينوا وولادته التي بدت مؤلمة فوق استطاعة البشر، تحدّثت كيف تملّكت أمّ ناثان طفلي الصغير، وكيف سرقت ذات يوم إزينوا واختفت في مكانٍ الربّ وحده يعلم أين.

"توقّفي!" أمرتني وهي ترفعُ يدها المرتجفة كما لو أنّها تقيّد جسدي.

هل الاعتقال هنا مع طعامٍ من الخبز والماء فقط هو ما جعلها تبدو مريضة؟ أم القلق بشأن ابنها الذي عليه الآن التخلّي عن خطط عرسه للتّعامل مع هذا الموقف؟ هل يدرك هؤلاء السفّاحون سوء ذلك على ضغطها المرتفع؟

"يا هذا." صرخت محاولةً لفت انتباه الحرس من جديد.

"لا." قالت الخالة جولي "لا تناديهم، أكملي قصّتك."

"لا، مدام، لا يبدو أنّك بخير، هل برأيك ينبغي أن تستلقي؟"

"لا." قالت وهي تتنفّس بصعوبةٍ وبصوتٍ مسموع "لا، سأكون بخير، سأكون بخير، أكملي القّصة فقط، رجاءً، ماذا حدث بعد أن أخذت أمّ ناثان الطفل؟ إلى أين ذهبت؟"

"إلى إنوغو، لكن لم أعرف ذلك إلّا بعد سنوات. ماتت وجيء بها إلى البيت ودفنت، لم تأتِ مع الولد، ولا أحد يعلم إن مات ابني، أو إن كان حيًّا في مكانٍ ما الآن."

أرهقتني محنتنا، وزادت الألم الذي أحمله معي أينما ذهبت، انزلقت الدّموع على وجهي، وسبّبت غشاوةً في رؤيتي، لم أمسحها.

حدّقت الخالة جولي بي من دون أن تقول شيئًا، صمتنا بعض الوقت، ثمّ تابعت قصّتي من دون حثّ.

أخبرتها عن تشيدينما، كيف آوتني أختها، كيف بدأتُ محلّ الخياطة الخاصّ بي، تخطّيت سيرة الرّجال الذين تشاركت حياتي معهم في تلك المرحلة، الرّجل الذي ذهب معي إلى القرية، وبعد أن سمع أنّه لدي طفل خارج إطار الزوجية والعوائق التي اختلقتها زوجة أبي، قرّر أنّي لا أستحق العناء، أو الرائد في الجيش المتزوّج الذي كنتُ أواعده مما أثار فزع أوزواماكا التي كانت بمنزلة أمّي حينها واستنكارها.

قضيتُ سنواتٍ طويلة أبحث عن إزينوا، عندما قلت هذا، رأيت على وجه الخالة جولي تعبيرًا لم أستطع تفسيره، ألم تصدّقني؟ تساءلت، لكنّي تابعت، لم يسفر البحث عن شيء، لم يعرف أحدٌ أين ذهبت أمّ ناثان عندما غادرت القرية؛ ادّعى رجال قبيلتها أنّهم لا يعلمون شيئًا، أو لم يبذلوا جهدًا خاصّا للمساعدة، بدا أنّه مقدّرٌ لي ألّا تصير لي عائلة، صارت عائلة أوزواماكا عائلتي، حتى بعد أن صار لديّ مالٌ أكثر، عشتُ معهم في أواني، حيث استأجرت إلى أن قابلت إيفيتشي.

كان زواجًا جيّدًا، قلتُ إنّه يحبني، ودائمًا يحكي كم هو معجبٌ بقدرتي على التحمّل، مرّ طيفُ ابتسامةٍ على وجه الخالة جولي.

أخبرتُ الخالة جولي أنّي خطّطت لتطوير خطّ ملابس، وصنع الأحذية والحقائب من الموادّ المحلية مثل قماش الأنقرة، حيث أخطّط لعرضها في معارض الأزياء في لاغوس في السنّة القادمة، وأنّ ابنتي اقترحت ذلك. عادة ما كان الشباب هم من يفعل تلك الأشياء، لكن من قال إنّي لا أستطيع فِعل ما يفعلون؟ لم تنتهِ الحياة بعد؛ كانت البداية فقط، أو هكذا كنت أظنّ حتى حدث الاختطاف.

الفصل الثالث والعشرون
جولي

توقّف صوت نوابولو، جاءت بقية قصّتها من مكانٍ بعيد، وغامضٍ بعض الشّيء مقارنةً بالجزء السابق. لسبب ما، فكّرت بالإعلانات التي كانت تظهر على قناة NTA في الثمانينات عن الأولاد المفقودين، طفلٌ ينظر في الكاميرا، مُهملٌ، ودموعٌ صامتةٌ تنهمر على خدّيه، يقول المذيع "وُجد هذا الطفل يتجوّل في شارعِ زيْك عصر هذا اليوم على يد فاعل خير أحضره إلى محطّتنا، عمره أربع سنوات تقريبًا، ولا يُعرف عنوانه، وغير قادر على ذكر اسم أبيه أو أمّه".

يسألني أفام، وعيناه كبيرتان ومهيبتان "وماذا إن لم يكن له أب أو أمّ؟"

"لا تكن سخيفًا" دومًا أردّ عليه مع ابتسامةٍ مطمئِنة.

"بالطّبع لديه أمّ وأب، كلُّ شخصٍ له أمّ وأب، مثلك تمامًا، والآن كرّر أمامي اسمك وعنوانك".

فيقول: "أفام أوبيتشينا."

"عنوانك؟" أحثّه على قوله.

"رقم 5/ الشارع الأول/ ضاحية الاستقلال / إنوغو."

"اسم أبيك؟"

"الكبير يوجين أوبيتشينا."

"واسم أمّك؟"

يجيب: "السيدة جولي أوبيتشينا."

السيدة جولي أوبيتشينا، فكّرت، كنت أمّه، وربّيته، وعلّمته عنوانه،

وعلّمته الحروف، علّمته استعمال الحمام، كنت أقبّله قبلةً قبل النوم، ثبّته حين كاد يفقد نفسه في سنوات المراهقة، هل سيساعد التّخطيط في تربية أحفادي منه، أنا وليس أيّ امرأة غيري.

تفحصتُ المرأة الجالسة أمامي، وظهرها يستند على الحائط، الوجه الكئيب ذاته، والمخطّط الآن بالدموع التي سكبتها على الولد الذي أسمته إزينوا، غمرت مخيّلتي صورٌ من شبابها رغماً عنّي، وعن أمّ ناثان وهي تختطف الطفل وتهرب إلى بيت أوبياجيلي، عن الخيبة التي لا بدّ أن شعرت بها نوابولو وهي مسافرةٌ بتلك الحافلة إلى إنوغو عبر السنين، أغلقتُ عينَيّ وقلبي، أردت ألّا أشعر بشيء، لكنّي رأيت الدموع وسمعتُ الألم، وعرفت أنّ الوقت قد حان، حان وقتُ قول الحقيقة.

كان أبي يقول لنا دومًا إنّ الكاذبين سيفتضح كذبهم، لقد كُشف أمري، لكنّي لم أكذب على نوابولو، كذبتُ على يوجين، هل يهمّ؟ سألني صوت - على أيّ حال - لقد حان وقت قول الحقيقة، ما احتمالات أنّ تلتقي طريقينا، طريقي وطريق نوابولو، في هذه الحياة؟ أن يُقبض علينا في هذا الموقف معًا؟ لقد قال الكون كلمته، سأمتثل وأتحمّل العواقب، فتحتُ فمي وبدأت أتكلّم.

الفصل الرابع والعشرون
نوابولو

رائعٌ أن تكون صادقًا، كأنّك من عالمٍ آخر، فركت عينَيّ لأتأكّد من أنّي لست في حلم. لا، ما زالت شفتاها تتحركان، حدّقت فيها، رأيت المرأة المهذّبة التي دخلت محلّي قبل ثلاثة أشهر فقط، لكنّها سارقة طفل، عجوزٌ مرهقة، يخرج من فمها الكبير حقائق تجلد أذني، أردت أن أعرف نوع المرأة التي أخذت ابن امرأةٍ أخرى واحتفظت به سنوات، كيف استطاعت فعل ذلك، أن تسرقَ طفلًا، ولا يُكتشف أمرها سنوات؟ كيف كان ذلك ممكنًا؟

انهمرت دموعي رغمًا عنّي، وتنهّدت بصوتٍ منخفض، تمنّيت لو أستطيع أن أبكي كما كنتُ أبكي حين كنت طفلة، بصوتٍ عالٍ وبقوّةٍ لأفرّغ بعض الضّغط في صدري، بركان على وشك الثوران.

"أنتِ لصّة." صرخت.

"لم أكن أعرف أنّ له عائلة، ربما لديها الرّغبة لتعتني به." قالت بهدوء.

"وهل بحثتِ؟ أم كنتِ تبحثين عن خداع رجلٍ متزوّجٍ من امرأةٍ ثانية؟ هل عرف أنّه خُدع؟ أنّ ابني لم يكن ابنه؟"

ظلّتْ صامتة.

"أعرفُ أنّ هذا صعب عليك لكن..." بدأت.

"لا، لا تعرفين، ولا يهمّك أيضًا." قاطعتها.

هل عرفت كم بكيتُ خلال تلك السنين؟ أنّي ما زلت أرى كوابيس تركت في ذهني صورًا واضحةً ومرعبة، وأنّي كنت أتساءل إن كان ابني متسوّلًا

أم لصًا مسلّحًا؟ لا، لم تكترث بالقدر الكافي.

"قدّمنا له الأفضل، ذهبَ إلى أرقى المدارس، هو الآن مواطنٌ كنديّ؛ يذهب أينما شاء في العالم."

انتابتني مشاعر شيطانية؛ أردت أن أسحبها من شعرها، أن أصفعها، أن ألكمها، أن أركلها كما فعل ذلك الخاطف الوقح، لكني لم أستطع أن أنهض من مكاني، بدلًا من ذلك، صرخت وزمجرت مثل كلب.

دخل أحد الحرس.

أراد أن يعرف ماذا يحدث، بقينا صامتتين، حذرنا ألّا نصدر مزيدًا من الضجيج، وإلّا فلن تكون العواقب محمودة.

أردتُ أن أنهض وأمشي وأحرّك يدَيّ، لكنّي مقيّدة، مسجونة مع المرأة التي سرقت طفلي، بدَت صور الشّاب في منزلها مألوفة، لأنّه كان يشبهني، يشبه ابني تشوكوميكا، يشبه أمّي.

لم أستطع تحمّل النّظر إليها، عندما استطعت تحمّل ذلك، كانت عيناها المتوسّلتان لا تنحرفان عن وجهي، فأنظرُ في جهةٍ غيرها، لِمَ عليّ أن أشعر أنّي أخطأت، في حين أنّها هي المذنبة؟ هل تختلفُ عن أولئك الرّعاع الذين اختطفوا نساء بعمر أمّهاتهم أو جدّاتهم؟ ألم تختطف الطّفل من دون قلق على أمّه؟

في تلك الليلة، حرمني الغَضب النوم، لقد استنفدني، ودمّر روحي.

في الليلة الثانية، أيقظتني جولي، كنت أرى كابوسًا، أنّي أبحث عن ابني، كنت أرتجف، همست: "أنا آسفة، نوابولو، غوبالهو[49]"، كرّرتها مرارًا وتكرارًا حتى استلقيتُ ساكنة "غوبالهو غوبالهو".

وأنا مستلقية، تملّكني شعور هدوءٍ وسلام، برغم كلّ شيء، لقد وجدت

(49) (Gbahalu) تعني اعتني بنفسك بلغة الايبو.

ابني إزينوا أخيرًا، تخلّصت من كلّ مخاوفي من أن يكون جائعًا أو يعيش في عوز أو حتى ميتًا، وعوضًا من ذلك، لقد ربّت هذه المرأة ابني، ربّما حقّق نجاحًا كبيرًا بفضلها وفضل زوجها، ماذا كان بوسعي أن أقدّم له في ذلك الوقت؟ من كان يقول إنّه لو لم تمت أمّ ناثان، لكنتُ رأيتهُ من جديد؟ أو لو أن أوبياجيلي أعادته إلى عائلة أمّ ناثان، لكانوا أعطوني إياه؟

بعد وقتٍ قصير، جلستُ وأخذت نَفَسًا عميقًا، سألت، كأنّ النقاش بيننا كان طبيعيًا: "ما شكله؟"

ابتسمت ابتسامةً مرتجفة، "إنه يشبهك؛ طويلٌ، بشرته غامقةٌ جدًّا، صوته رخيم، إنّه مجتهد في عمله مثل يوجين، لكنّ أباه كانت تأتيه نوباتٌ يظنّ فيها أنّ كلّ المال الذي أنفقه على التعليم في كندا ليس مناسبًا للعمل في مايكروسوفت، أو لإدارة تجمّع شركات هندسية، لكنّه ناجحٌ في عمله في الإنتاج الموسيقيّ." قالت بفخر.

"أبوه!" سألت.

فكّرت بأورينا الذي لم يعرف أنّ لديه ولدًا، ولم يهتمّ لذلك، للحظةٍ شعرت بالسّرور أنّ إزينوا كان له أبٌ يعتني به.

"التقى بالفتاة الكينيّة التي من المقرّر أن يتزوجها في كندا، فتاةٌ جميلة، كان أبوه سيغضبُ من ذلك أيضًا، وماذا بوسعه أن يفعل لو عرف أنّها ستحتفظ باسم عائلتها؟ أسأل نفسي.

يقول أفام إنّه لا يمانع إن كان كلّ أولادهِ من البنات، سيضرب يوجين رأسه بالسّقف لو سمع ذلك، كان سيتبرّأ منه." انفجرتْ ضحكًا، كأنّ ذلك أكثر شيء مضحك في العالم، بالطّريقة التي تنقلب فيها حياة الشباب رأسًا على عقب.

بدا واضحًا أنّها أحبّت الحديث عن أفام، وأنّ في جعبتها قصصًا كثيرةً

عنه، شعرت بالغيرة في بعض الأوقات، وفي أوقاتٍ أخرى كنت اندمج مع القصّة وحسب، وأنا أراه عبر عينيها، الصّورة التي رسمتها عنه صورة شابٍّ مثاليّ، لا تشوبه شائبة ومجتهد ولطيف.

حاولتُ ألا أستبق الأمور وأتخيّل لقاءنا الأوّل، لقاء إزينوا مع أشقّائه، لكنّي لم أستطع، عرفت أنّ إيفيتشي سيسعد لسعادتي، وهو الذي كثيرًا ما مسح دموعي وهدّأني بعد كوابيس كثيرة، كان الوحيد الذي لديه فكرةٌ كيف يجبُ أن أشعر في مثل هذه الحالة، نمت أخيرًا.

عندما استيقظت، نظرت إلى الخالة جولي المستلقية على جانبها، ووجهها على الحائط، أثارت قسوة هؤلاء الخاطفين غضبي، كيف يمكنهم الاحتفاظ بامرأة عجوزٍ في مثل هذه الحالة؟ هم أيضًا كانوا يتّخذون خيارات مثل التي اتخذتها أمّ ناثان، مثل الخالة جولي، يؤذون الآخرين لأنّهم لم يتمكّنوا من الحصول على ما يحتاجون، تحرّكت لألمسها مستخدمة يدَيّ لدفع نفسي.

كانت هادئة هدوءًا غير طبيعي: "خالة جولي! جولي، سيدة أوبيتشينا! صرخت، لكن ما من ردّ، وصلت ليدها، شعرت بثقلٍ في جسدي وأنا أبحثُ عن نبض، كما تعلّمت من التلفزيون، لكن لم أجد شيئًا.

"يا حرس! يا حرس! صرخت "نحن بحاجةٍ الوصول إلى المشفى، بسرعة"، توسّلت عندما جاء أحد الخاطفين.

بدا الشاب خائفًا، وهو يتحسّس في جيبه بحثًا عن هاتف، تحدّث عبر الهاتف، وأخبر شخصًا ما، الرئيس على الأرجح، بشأن ما حدث، ظلّ يهزّ رأسه لأعلى وأسفل مثل السّحلية بينما يتلقّى أوامره، حدث أن ابتسم ابتسامةً سريعة، هزّ رأسه مرّة أخرى، جاء الحارس الآخر.

سأل: "ماذا يحدث؟"

بسرعةٍ أخبره الأوّل بالأمر، ثم قال: "قال الرّئيس لقد أحضروا المال واستلمه، سنقابلهُ في ذلك المكان."

"ماذا سنفعل بهاتين الآن؟"

"يقول الرئيس نأخذهما إلى المفرق، شيناك! سيأخذوننا إلى مكان ما ويتركوننا، سيتركون الخالة جولي على الطريق".

"إنّها بحاجة إلى المشفى، قل لرئيسك إنّه يجب عليه أن يأخذنا إلى المشفى." رجوته، لكن الحارس الأول تجاهلني، خرج وعاد مع عُصابة عينين، وسرعان ما صار الظّلام كلّ ما نراه.

"أرجوكم لا تغطوا عينيها." اعتقدت أنّ ذلك سيجعل حالة الخالة جولي أسوأ، برغم أنّي لم أعرف إن كانت ميتةً أساسًا.

لم يعطوا أيّ إشارةٍ أنّهم استجابوا لمناشدتي، بل إنّهم ربطوا فمي كما ربطوه حين اختطفونا أوّل الأمر قبل سبعة أيام.

"رائحتها كريهة." سمعت أحدهما يقول، سمعت همهمات، أصوات اضطراب، كانوا يخرجونها.

"متى تموت هذه المرأة؟"

سمعت أحدهم يتذمّر.

بعدما بدا أنّه وقتٌ طويل، عادوا إليّ، وضعوني قسرًا في سيارة بدت صغيرة، لا بدّ أنّنا سرنا بالسيارة ثلاثين أو أربعين دقيقة على طريقٍ وعرةٍ قبل أن نتوقّف، جهد الخاطفون وهمهموا، وسمعت صوتًا بدا أنّه رمي الخالة جولي على الأرض مثل كيسٍ كبير، سحبوني من السيارة، وفكّوا قيد فمي ثم عينَيّ، استغرق الأمر بعض الوقت لتتكيّف عيناي مع وهج شمس ذلك النّهار السّاطع، في تلك الأثناء، صارت سيارتهم بعيدة جدًّا بالنسبة لي لأسجّل أيّ معلومةٍ غير لونها.

وجدت الخالة جولي ملقاةً على الأرض من دون حراك، يا إلهي لا تدعها تمُتْ.

لمستها، رفعت يديها، وأخيرًا وجدت ما يبحث عنه الأطبّاء في التلفاز، وريد النبض يرتفع وينخفضُ بضعف، استعدت قوّة حبالي الصوتية ويدَيّ وقدمَيّ، ثم رميت نفسي وسط ما بدا أنّه طريق مهجور.

لكن الربّ لم يكن في إجازةٍ في ذلك اليوم.

مرّت سيارة، وكان بداخلها حبيبي إيفيتشي، كان الخاطفون قد أخبروه بمكاننا بعد أن دفع الفدية، بكينا وأشرتُ إلى المكان الذي توجد فيه جولي.

"أسرع! أعتقد أنّها أصيبت بجلطة" صرخت.

صعب أن تحشر إنسانًا في سيارة - اعترفت بعد ذلك - وأنا أفكّر بكل حماقات أفلام نولي وود التي شاهدتها، كانت امرأةٌ بدينةٌ مثل جولي عملًا شاقًّا أكثر، كنت ضعيفةً ويداي تؤلماني، لكن في النهاية استطعنا رفعها ووضعها في سيارة إيفيتشي، ركبت بجانبه وانطلقنا مسرعين نحو المشفى.

سمعت نفسي أصلّي بصوتٍ عالٍ، الأمر الذي لم أفعله منذ سنواتٍ كثيرة، صلّيت أن تعيش جولي، كيف سيتزوج أفام من دون أن تكون حاضرة؟ من سيقول لأفام إنّي أمّه؟ هل سيصدّقني؟ هل سيظنّني مجنونة؟ هل سيستطيع أن يحبّني؟ هل سيقول إنّه لا يريد أن يكون ابن الخادمة؟ برزت هذه الأسئلة كلّها في ذهني.

لكن رغبتي بابني لم تكن السّبب الوحيد لصلاتي.

كان يجب أن تعيش جولي، قضينا أسبوعًا في الأَسر معًا، وجباتنا من الخبز والماء، لقد شكّلت ضحكاتنا وقصصنا رابطةً بيننا كأنّ عمر علاقتنا سبعون سنة، لا سبعة أيام. صرت أعرف صوت ضحكها، وحركة خدّيها حين تمضغ

طعامها، وأعرف أنّها تشخر حين تنام، صرت أعرف التّصميم في عينيها ولطف روحها، صرت أعرف أنّها تعاني من سلس البول، كيف لامرأةٍ لم تنجب طفلًا أن تعاني من سلس البول، سألتني بالأمس فقط، وقلتُ لها إنّ ذلك يظلّ من ألغاز الحياة، كانت ضحكتها طويلةً ونابعةً من القلب وتتجاوز دعاباتي.

لا، لم يكن إزينوا وحده من جعلني أصلّي كي تعيش، كانت جولي نفسها، صارت بيننا رابطةٌ لا تنفصمُ بسهولة، امرأتان تبذلان قصارى جهديهما في عالمهما.

شكر وتقدير

حلمي أن أكتب رواية مذ كنت طفلة. أشكر الرب يسوع، مانح كلّ العطايا الصالحة، الذي يحقّق أحلامي.

هذا الكتاب مُهدى لوالدَيّ: البروفيسور (الرئيس) أوبيديما أونيميلوكوي، والدكتورة ريبيكا أونيميلوكوي؛ سأظلّ دائمًا ممتنة لدعمهما وحبّهما وإيمانهما وتشجيعهما طيلة حياتي، لكونهما أبطالي الأوائل. أشكرهما لكونهما مثالين حيّين على المثابرة والعزيمة، وموهبتهما القصصية، والجزء من موهبتهما في سرد القصص الذي أخذته منهما؛ أحبّكما دائمًا.

أشكر زوجي فريد أونوبيا على حبّه ودعمه وتشجيعه، وإيمانه الذي لا يتزعزعُ بي وبقدراتي، لإتاحة مساحةٍ لي لمتابعة الأحلام، أحبك.

شكرًا أيضًا لأولادي الرائعين والمذهلين، هدايا الربّ لي: كيليتشي، وأولوتشيو، وأودوتشي، لجلب الفرح والحبّ والمعنى والإلهام إلى حياتي، أتوق لقراءة كتبكم.

ممتنة أيضًا لأختي أكاوما لحبّها وصداقتها وتشجيعها ومثابرتها؛ أنت ملهمتي، ولأختي جيندو، وأخي سوكي، وأختي توشي، شكرًا لكم جميعًا على الحبّ والدعم.

شكرًا جزيلًا للكثيرين الذين دعموني بطرقٍ مختلفةٍ وأنا أعمل على هذا الكتاب: جين كريغ لحبّها ودعمها خلال السنين، وإخيدي إخيلوا لمراجعاته الصادقة والثاقبة لهذه المخطوطة والمخطوطات السابقة، والأهمّ لصداقته عبر السنين، وأوكاماكا أوسيجويو اتصالها بي باكرًا ذات صباح والسؤال متى

أبدأ العمل على هذا الكتاب، وإلى تشينيلو أوراغالوم إزينوا لحبّها وصداقتها عبر السنين، وإلى أنوولي أوجوجو لمراجعة المخطوطة وربطي بمصادر مهمّة ومساعدتها وحضورها في هذه العملية، وإلى فلوريدا أوزوارو لمراجعة المسوّدات الأولى من الكتاب ومشاركتها أفكارها فيه، وإلى إيكي آنيا للدعم. أنا ممتنّة لكلّ واحدٍ منكم، الشّكر وحده لا يوفّيكم حقّكم.

أشكر أيضًا المراجع المجهول الذي منحني تقريره المتبصّر عن الكتاب، وآمل أن يرغب الناس باقتناء هذا الكتاب. الشكر موصولٌ أيضًا إلى Penguin Random house، جنوب إفريقيا، لتبنّي هذا الكتاب، شكرًا لك فوري بوثا لاستضافتك الدافئة وصبرك أثناء نشر الكتاب. شكرا لمحرّرتي الدكتورة جينيفر شوتي على انتقاداتك وعملك في المحافظة على روح الكتاب وعلى مساعدتك في صقله، وإلى إليزابيث ستوبي لترحيبك الدافئ بهذا الكتاب وكونك مصدر الأخبار السارّة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

حادثة اختطاف توحّد قدر امرأتين معًا، لتنحلّ خيوط حياتيهما إثر سرد كلّ واحدةٍ للأخرى حكايتها. تفاصيل موجعة لامرأتين تعيشان في مجتمعٍ ذكوريٍّ لا يرى في الأنثى غير وسيلةٍ لضمان الرّاحة والتكاثر.

تذوق نوابولو الويلات لإثبات استحقاقها للحياة؛ إذ تراها قبيلتها شؤمًا بسبب وفاة أمها أثناء ولادتها لها، فتعمل خادمةً لزوجة أبيها، ثم خادمةً في بيوت الآخرين، وتتعرض للظلم وتقاوم للنجاة بأحلام طفولتها. فهل تنجو؟ وهل تجد في جولي خيط الأمل الذي يعيد إليها ما سُلبَ منها؛ ابنها أفام؟

أما جولي فتبيع حريتها مقابل الزواج من رجل ثريّ تحقّقُ به شرط الحياة الهانئة في نيجيريا، إذ لا سعادة لامرأة دون رجل، ولا سعادةً لرجلٍ دون أولاد. فتتابع سلسلة تنازلاتها لتعيش بالتحايل ومكر النساء.

تترك الرواية قارئها مع نهايةٍ مُثيرةٍ حميمةٍ مفتوحة، متخيلًا نجاة المرأتين، ولقاءَهما ثانيةً بعائلتيهما، وانكشاف السر الذي تجاوز ثلاثين عامًا، محاطًا بأسئلةٍ متشابكة عن معنى الحياة، والروابط الأسرية، والمصالح والخيوط التي تربط بين المرأة والرجل في مجتمع مُعقّد.

Cover Design by: Mariam Al Refai

روايات
REWAYAT

ISBN 978-9948-758-32-7
9 789948 758327